مصـــر فـــي مـــائة عـــام



أحمـــد عـــرابي

تأليف محمد عودة



الناشر

المكتبة الأكاديمية

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

رسم الغلاف : هبه عنايت
الاخراج الفني والرسوم : زهدي

إهـــــداء

إلى روح الدكتور محمد صبري « السوربوني » أعظم مؤرخي مصر الحديثة ، والذي مات منسياً لم ينل حقه في التكريم والتقدير .

ولعل أحداً يقوم بترجمة كتبه التي كتبها بالفرنسية . . ولا زالت أهم المراجع عن تاريخنا الحديث .

محمد عوده

مقدمة

لا تملك الشعوب شيئاً أثمن من تاريخها وتراثها . . وهو كل ما تعيش به وتواجه حاضرها وتصنع مستقبلها . وتملك شعوب قليلة ما نملكه في مصر .

ونحن ننقب كثيراً في تاريخنا القديم وأحياناً الوسيط ، ولكن لا نفعل ذلك بقدر كاف في تاريخنا الحديث والذي لا يقل كنوزاً !

وقد « طمر » تاريخنا الحديث أحياناً بأعمق مما دفن القديم أو الوسيط . . ولابد لنا أن نعيد إكتشافه وأن لا نمل الجهد لأن الذين يهيلون الأتربة مازالوا لا يتوقفون !

وقد تقرر منذ زمن طويل تجريد كل الشعوب « العريقة » من أي فضيلة أو مفخرة وليس هناك ذريعة للاستيلاء على أرض أو شعب أفضل من كتابة تاريخه واثبات أنه بلا ماضي أو حاضر أو مستقبل ، وأحياناً بلا شعب . وانه لابد من « انتشاله » وضمه لموكب الحضارة !!

وذات يوم قال الزعيم الهندي نهرو « بدأت المأساة بكتابة الاستعماريين لتاريخنا » . وعكف على تصحيح العدوان ، وخلال سنوات السجن الطويلة كتب ثلاثة كتب شهيرة هي « اكتشاف الهند » و « لمحات من تاريخ العالم » ثم « قصة حياتي » وأصبحوا دليل الكفاح والحركة الوطنية الهندية !

ولم يكن العدوان على تاريخنا أقل ضراوة . « وأثبت » بعض المؤرخين والأثريين أن مصر انتهت بنهاية آخر فرعون وأن ما بقى مجرد فلول وانقاض !

و« أثبت » البعض الآخر أن قدر مصر تحدد ومصيرها تقرر منذ غزوة قمبيز ، وحتى الاحتلال البريطاني وأن تكون مستعمرة ، أو ممراً ومستقراً « للغزاة » !

وتفاقم العدوان منذ الغزو الفرنسي ، وبعد أن احتلت مصر صدر قائمة الأهداف الاستعمارية . وأنكر على الشعب المصري وجوده أو كفاحه . . وأصبح محمد على مغامرا أجنبياً . واسماعيل مسرفاً منحلاً وعرابي فلاحاً ساذجاً قاصر الفهم والمصريون خليط متنافر ومتضارب ومن كل الشعوب والأجناس . . « مجرد حقيقة جغرافية وليسوا شعباً بأي حال » كما قال كرومر !

ويصبح علينا جميعاً أن نقوم على تبرئة تاريخنا بما له وما عليه !

وقد كانت الثورة العرابية أشد أحداث القرن الماضي اثارة واستفزازاً لأوروبا الاستعمارية ولبريطانيا « العظمى » خاصة .

جرؤ فلاح مصري أن يقف ويقرر صد الغزو وأن يجمع الشعب كله وراءه . . ولم يكن فلاحاً مقهوراً يحمل فأساً ضد عدوه ، ولكن زعيماً وطنياً ثورياً - « وعصرياً » يحارب أوروبا بنفس مبادئها واسلحتها .

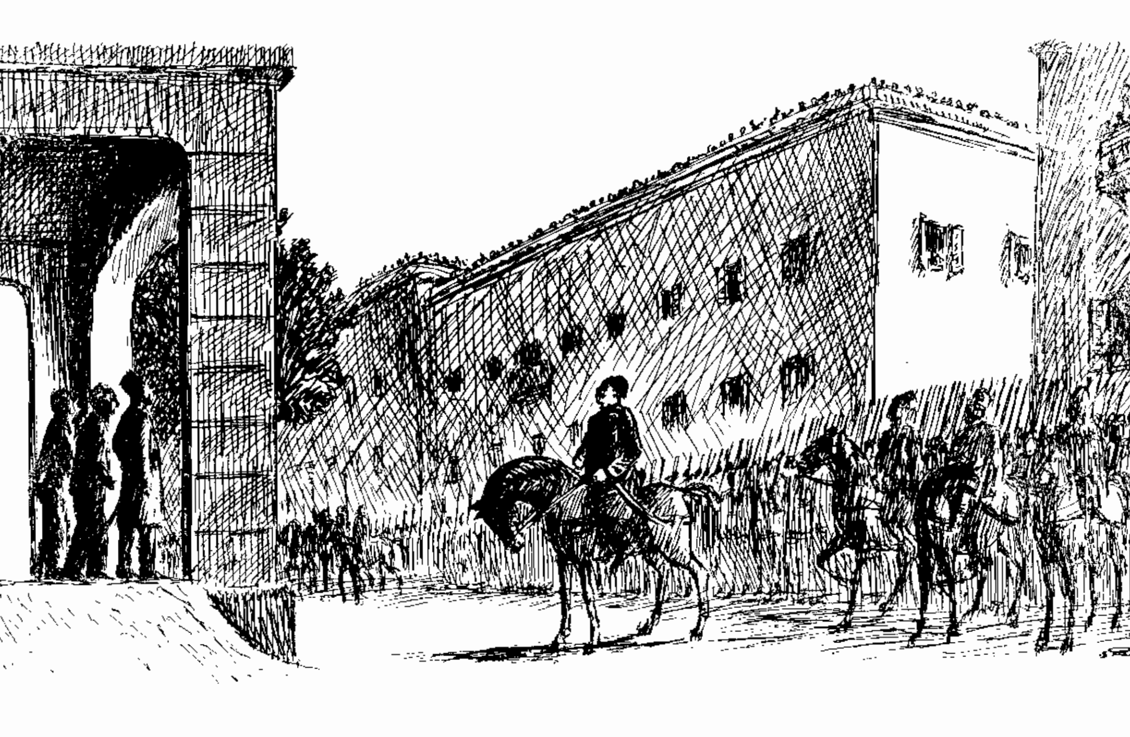
طالب لشعبه بنفس حقوق « الانسان » وحقوق الشعوب التي ادعت انها تعترف بها للجميع . . وفضح نفاقها وقرر أن يحارب لانتزاعها .

وكانت الثورة العرابية أول تحدي من نوعه . . واشدها خطراً ، ولهذا تقرر القضاء عليها مهما كان الثمن .

ولم يفتقد عرابي باشا ورجاله الشجاعة أو البطولة أو الكفاءة . . وهزمته الخيانة . . ولهذا بقى الثأر قائماً وظلت الجذوة كامنة حتى شب الحريق الكبير . .

وتظل الثورة العرابية احدى « ملاحمنا » الكبرى والتي لابد أن نرويها دائماً ولكل الأجيال . . خاصة هذه الأيام التي تحيط بنا فيها كل الأخطار .

محمد عودة



كان يوماً عظيماً ..

أصبحت وقائعه .. مشهورة ، ومحفورة عميقاً فى ضمير شعب مصر وكل تاريخه .

بدأت فرق الجيش المصرى « وآلاياته » تتوافد منذ صباح يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ على ميدان عابدين أمام القصر « الخديوى » وغص الميدان بها ، ولم تكن القوات وحدها ، ووقف خلفها أعضاء مجلس شورى النواب وممثلو الأمة الشرعيين . وخلفهم ما يقرب من ألفين من العمد ومشايخ البلاد توافدوا من كل الارجاء وخلف هؤلاء جموع حاشدة وآلاف من الرجال والنساء والاطفال ، جاءوا يشاركون فى اليوم المشهود ..

وعلى رأس المظاهرة .. كان يقف « الزعيم » الذى التفت مصر كلها حوله وبايعته وتعلقت به كل آمالها « الميرالاى أحمد عرابى » وإلى جواره وخلفه يقف رفاقه وضباطه ، وهؤلاء برزوا فجأة واكتسبوا « ثقة ومحبة الأمة » وسلمتهم القيادة كأنها كانت تنتظرهم .

وطلب هؤلاء أن يخرج إليهم الخديوى ليتوجهوا إليه بطلبات حملتها اياهم

« الأمة » ولم يملك الخديوى ألا أن يخرج . على الأقل لأن حرسه وقائد الحرس قد انضموا إلى « الثوار » !

وخرج وراء الخديوى ـ ليشد أزره ـ موكب من الأجانب يتقدمهم المستر كوكسون قنصل انجلترا فى الاسكندرية والمستر أوكلاند كولفن المراقب المالى العام البريطانى ، وبعض القناصل والموظفين الاجانب الآخرين .

وتوجه الخديوى بالحديث إلى « عرابى » قائلاً :

ـ ما هى اسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟

ـ جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش وطلبات الأمة كلها وهى طلبات عادلة .

ـ وما هى هذه الطلبات ؟

ـ هى اسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الاوربى وابلاغ الجيش العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

واشتد الغيظ بالخديوى وانتفخ وانتفض وصاح :

ـ كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن أبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا .

وبهدؤ « الزعيم » وكبريائه ووسط رهبة الصمت السائد رد عرابى :

ـ لقد خلقنا الله أحرارا ووالله الذى لا اله إلا هو لن نورث أو نستعبد بعد اليوم . ورسم « أحمد عرابى » خطا فاصلا بين تاريخ وتاريخ آخر جديد .

وأسقط فى يد الخديوى ولم يدر ما يقوله ، والتفت إلى القنصل الذى أشار له بالدخول . وأنه سيتولى الرد وأطاع الخديوي وقال القنصل :

ـ ان طلب اسقاط الوزارة وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الأمة وليس من حقوق الجهادية ولا لزوم لطلب زيادة الجيش لأن المالية لا تساعد على ذلك .

ـ اعلم ياحضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائباً عنهم فتنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن اخوانهم وأولادهم . هم القوة التى ينفذون بها كل ما يعود على الوطن بالخير

والمنفعة وأننا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان مالم تنفذ .

ـ يفهم من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم .

ـ كيف يكون ذلك ومن ذا الذى يعارضنا فى اصلاح داخليتنا واعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضينا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا .

ـ وأين هى قوتكم التى ستدافعون بها ؟

ـ عند الاقتضاء يمكن حشد مليون من هؤلاء العساكر يدافعون عن بلادهم ويلبون اشارتى .

واستنفد القنصل كل ذرائعه ولم يبق لديه ما يرد به .. كانت لغة جديدة يسمعها لأول مرة وكانت وجوه حاسمة صارمة لا يستطيع أن يرهبهم أو أن يخادعهم ..

ودخل القنصل ومعه موكب الأجانب ليشاوروا الخديوى .. وذلك بعد أن أكد لهم عرابى :

ـ لن نبارح هذا المكان حتى تجاب طلباتنا كاملة وسنبقى فى حالة تأهب تحت السلاح حتى يصل الرد .

وبعد انتظار طال بعض الوقت وبعد أن نوقشت كل الحلول فى الداخل . خرج القنصل يحمل الرد مكتوباً ..

وقرأ عرابى الرد بصوت عال تجاوب فى كل أرجاء الميدان .. وهو تكليف محمد شريف باشا بتأليف وزارة جديدة بدلا من وزارة رياض باشا وتعيين محمود سامى البارودى باشا وزيراً للحربية فى الوزارة . وتعيين أحمد الدرملى باشا محافظاً للقاهرة .

ودوت الهاتافات عالية « الله ينصرك ياعرابى » الذى أصبح هتاف مصر كلها وشعارها أو يسقط الاستبداد وتعيش الحرية .. ويسقط المستبد ويدوم جيش الحمية .

وغادرت المظاهرات والحشود الميدان يتقدمها « بطل الأمة » أحمد عرابى تشق شوارع القاهرة .. وقد خرجت كل الأمة تهلل وتكبر وتدعو بالنصر « طربت البلاد كلها للانتصار وعده الجميع فاتحة عصر جديد من الحرية والعدل والمساواة » .

[ولم أشهد فى الماضى ولم أشهد فى المستقبل شعباً كهذا الذى رأيته يوم ٩ سبتمبر والاشهر التالية ، اتحدت مصر كلها ، كل القوى السياسية فيها وسرت رنة فرح وسعادة بشكل لم يسبق له مثيل ، وكان الناس يحتضنون بعضهم بعضا فى الطريق ، وكانوا يوزعون أكواب الشربات فرحاً بعهد الحرية الجديد الرائع وقد طلع عليهم طلوع الفجر المشرق بع ليل طويَل مخيف] وذلك كما قال ويلفرد سكاون بلنت الانجليزى .

وقد تقررت هذه المظاهرة والمواجهة بعد تفكير وتدبير وبعد بحث من كل القادة من السياسيين والعسكريين والمثقفين ، وقد تأكد لهم أن الحكم ينزلق سريعاً إلى الاستسلام وأن الأمة فى خطر ، ولابد من صد الانحدار ووقفه .

كشف الخديوى عن وجهه الحقيقى وأسفر عن هدفه ، وهو حصار الحركة الوطنية وتصفيتها لحساب « الأجانب » .

وقد تعددت القوانين واللوائح التى صدرت منذ تولى الخديوي توفيق ولكن كان محورها هدم القوائم الثلاث التى تستند عليها الحركة الوطنية وهذه هى الحركة الفكرية والثقافية التى أزدهرت وأيقظت الرأى العام وفجرت وعيه وحماسه ، والحركة الدستورية التى نمت ونضجت وتحولت إلى معارضة ديمقراطية وطنية ، وانتزعت دستوراً « نموذجياً » من الخديوى السابق .. ثم الحركة العسكرية التى انبثقت كالشهاب من صفوف الجيش وأنجبت صفوة من القادة الوطنيين « الفلاحين » ومنحت الحركة الوطنية أهم ما كان ينقصها وهو قوة ضاربة .

وقد استطاع الخديوى « الشاب » أن يخدع كل الناس لبعض الوقت وقد حرص خلال ولايته للعهد أن يؤكد انحيازه للوطنيين والدستوريين وكان يعد نفسه واحداً من اقطابهم .. « تماماً مثل شريف أو البارودى » وكان مريداً وتلميذاً دائم التردد على « جمال الدين الأفغانى » الأب الروحى للوطنيين والدستوريين ، وكان حريصاً على أن يوثق صلاته بالعسكريين الجدد عرابى ورفاقه .. وعلى أن يؤكد لهم إن عهده فيما لو تولى السلطة سيكون عهدهم ويحقق كل أحلامهم !

وقد تولى الأمير « توفيق » حينما كان ولياً للعهد رئاسة الوزارة « الشورية »

المسئولة بعد اقالة وزارة نوبار باشا .. ثم استقال لكى يتولى شريف باشا الوزارة .. « كان دستوريا ملتزماً » .

وقد استطاع بدهائه أن يقنع الأفغانى ذات يوم أن يذهب بنفسه إلى القنصل الفرنسى لكى يبدد شكوكه وارتيابه فى توفيق ، ويؤكد له أنه مع الحرية والوطنية وليس صنيعة البريطانيين .. وكان القنصل الفرنسى مؤيداً للحركة الوطنية متعاطفاً تماماً معها ، وكان أول من طلب توفيق نقلهم بعد توليه السلطة ..

ولم يكن الوطنيون يدرون أن « الأمير محمد توفيق » ولى العهد ، ضالع تماماً فى التآمر ضد أبيه وضد بلاده عامة وانه كان مع البريطانيين ، ووثيق الصلة بالقنصل البريطانى يواليه بالتقارير والأخبار ويؤكد له تنصلة من سياسات أبيه ، « مولاه » .. حين يحكم لبريطانيا العظمى !!

ولم يكن الوطنيون يعرفون أنه كان « موضع احتقار أبيه وازدرائه الشديد لأنه كان فاقد الشخصية والخلق يفضل صحبة الحريم والخدم وأنه كان طوع بنان خادم ألمانى فى لقصر يدعى فريدريك » .

ولم يعرف الوطنيون ما قاله عنه أبوه ذات نفسه بعد أن اكتشف أمره « **قد يكون أميراً ولكنه يحمل ضعة وذلة العبد** » .

ولم يدرك الوطنيون أنه منذ تولى السلطة « **فوض أمره كاملاً إلى الدولتين اللتين أجلستاه على العرش** » وهو كان [مثال الضعف والاستسلام مجرداً من الصراحة ، أنانياً مستبداً وألعوبة فى يد كل من يعرف كيف يتملقه ويسلبه وهو يكره المصريين كراهية شديدة ويسعى جاهداً ليعيد النفوذ للاتراك الشراكسة والأجانب] كما وصفه مراسل أجنبي .

وبدأت الأحداث والصدمات تترى وتكشف عن حقيقة الشخصية المزدوجة والتى تولت حكم مصر فى ذروة المحنة وأشد الفترات حرجاً .

ولدى تولى « الخديوى » الجديد العرش استقال رئيس الوزراء « شريف » وفق الأصول الدستورية ولكنه أعاد تكليفه بالوزارة وبخطاب قال فيه :

« ان حسن الادارة يتطلب أن تكون الحكومة خديوية شورية ووزرائها مسئولين ولن أحيد عن المبدأ الذى ستقوم عليه حكومتى ويجب علينا تأييد مجلس شورى النواب وتوسيع لائحتة حتى يتمكن من تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الأمور ».

واستبشر الجميع وتفاءلوا وكان كل شيء جاهزا معدا لقيام الحكومة الشورية وقام رئيس الوزراء بالتعديلات التى كان لابد منها فى الدستور وقانون الانتخاب الذى أقر فى نهاية عهد اسماعيل وتقدم إليه لكى يصدق عليه . وفوجىء رئيس الوزراء بمماطلة ثم تسويف ثم اعتذار ورفض للتصديق .

وقدم رئيس الوزراء استقالته ولم يتردد الخديوى فى قبولها وأعلن على الفور أنه سيتولى رئاسة الوزارة بنفسه .

وأعلن شريف « **أننا نعود إلى الحكم الفردى المطلق ونسير إلى الكارثة** » .

وهب جمال الدين الافغانى ليعلن استنكاره وليوبخ تلميذه ومريده ولكنه فوجىء به يأمر بنفيه من مصر وابعاده إلى جده !

وسرى القلق والسخط بين الناس فأرسل يستدعى رياض باشا من الخارج لكى يتولى السلطة ، وكانت شهرته فى الاستبداد والقمع مدوية .. وتولى رياض باشا رئاسة الوزارة .

« وكان من رجال الجيل القديم الذى خلق لزمان غير زمانه مملوءا بالصلف والغرور مستبداً غليظ القلب لا يطيق احتماله اصدقاؤه وأعداؤه على السواء ، وكان لا يخالج فكره شك فى خنوع المصريين وسكونهم إلى الطاعة فى كل ما يؤمرون به وذلك حملاً على سوابقهم وسالف عهدهم . ولم يكن يرى من اللازم اعتبارهم أو الاحتياط لشيء فى شأنهم » .

» وقد سافر إلى تركيا واوربا لتنظيم الحملة لخلع اسماعيل . وارساء الاسس لعصر اوربى كامل فى مصر .. لهذا كانت عودة رياض فى هذه الظروف معناها العودة إلى الحكم الاستبدادى وأن تعود السلطة لتنحصر فى قنصلين هما قنصلى بريطانيا وفرنسا » .

وانجابت الغشاوة وأدركت الحركة الوطنية مدى التحدى ، وأن لابد من التنظيم والتعبئة العامة . وتقرر تكوين حزب يضم كل القوى ويقود الحركة .. وتألف الحزب الوطنى فى سبتمبر سنة ١٨٧٩ « اجتمع سراً فى حلوان عدد من الوجهاء والكبراء والذوات من بينهم شريف باشا وشاهين باشا وعمر لطفى باشا وسلطان باشا ، وقرروا تكوين الحزب الوطنى ، وسمى هؤلاء فى الدوائر السياسية الاوربية الباشوات والليبراليون الاحرار .

وقام سلطان باشا الذى كان على رأس الحزب بالاتصال بالعسكريين عرابى

وعبد العال حلمى ، وعلى فهمى ومحمود سامى وعلى الروبى . وقد سمى هؤلاء « **الضباط الثوريين** » .

وامتدت الاتصالات إلى المديرين الاعيان سليمان اباظه باشا وحسن باشا الشريعى ومحمود فهمى باشا للنفاذ إلى الريف ولا مكان وضع برنامج وطنى عام وتعبئة البلاد كلها لاسقاط رياض والاستبداد .

وقرر الحزب إصدار جريدة فى باريس وانتدب لها « أديب اسحق » الصحفى السورى الذى جاء إلى مصر وأصدر جريدته مصر القاهرة تحت شعار « اثارة الحمية الشرقية ورفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وان يعلم القوم أن لهم حقاً مسلوباً فيلتسموه ومالا منهوباً فيطليوه » وقام أديب اسحق بالمهمة وشاعت الجريدة حتى أصبحت النسخة تباع « بجنيه ذهب » .

واذاع الحزب فى نوفمبر سنة ١٨٧٩ أول منشور له بالعربية والفرنسية طبع منه عشرين ألف نسخة ليتداولها الجميع فى مصر وخارجها وقال فيه :

قام الحزب لكى ينقذ مصر من الهوة السحيقة التى تردت فيها تحت وطأة الربا والاستبداد وقد استولى السماسرة والمرابون على أكثر من ستين مليون جنيه من ديون مصر الحقيقية واختلسوها . وان الحزب ليعلن أن مصر عازمة قادرة أن تتخلص من ديونها .

ولكن يشترط أن تتركها الدول حرة فى تنفيذ الاصلاحات العاجلة التى تقررها وأن تتركها حرة فى اختيار حكومتها ، وأن لا تفرض حكومة مثل الحالية والتى لا تمت إلى مصر بأى صلة لأن الدول هى التى فرضتها ولا إرادة للأمة فى ذلك .

وتوالت الاجتماعات والمباحثات لتعبئة الجهود والصفوف ، والوقوف أمام احتمالات المصادمة والمواجهة ، واتخذ بيت سلطان باشا مقراً للاجتماعات التى أكدت شجاعة العسكريين ووعيهم أيضاً واظهرت كل مواهب الزعامة والقيادة التى يتمتع بها عرابى .. ولم يلبث أن أصبح الزعيم ، بإرادة الكل واجماعهم .

وقد بدأ « رياض » بفرض الرقابة على الصحف ، التى اصبحت أكثر جرأة وتحدياً من أى وقت سابق ، وشفع ذلك بتعبئة جيش من الجواسيس « العيون والارصاد » لملاحقة الصحفين والمعارضين .. وأعد قانوناً جديداً للمطبوعات .

وبالطبع لم يبق أى تفكير فى دعوة مجلس شورى النواب للانعقاد أو فى حكومة شورية أو دستورية .

ولكن أهم ما حرص رياض على أن يحققه كان اعادة الهيمنة الاوربية على المالية المصرية ، وذلك بعد ما استطاعت الحركة الوطنية أن تحررها وأن تضع القواعد لذلك .

واصدر رياض فى نوفمبر سنة ١٨٧٩ ـ وكأنه رد على قيام الحزب الوطنى ـ مرسوماً باعادة المراقبة المالية الثنائية الاوربية وكانت تعرف باسم « الكوندومنيوم » . وأن تعود على أسس جديدة أوسع نطاقاً مماكانت فى أى وقت مضى .

« نصت المادة الأولى على أن يكون للمراقبين أوسع السلطات من الوجهة المالية فى التفتيش على جميع المصالح والادارات العامة ، ونصت المادة الرابعة على أن يكون لهما الحق فى حضور جلسات مجلس الوزراء ويكون لهما رأى استشارى ، ونصت المادة السادسة على أنه لا يمكن اقالتهما من وظيفتهما الا بموافقة حكومتيهما ، وكان هذا يعنى ان الدولتين أصبح لهما مراقبان أوسع سلطة وأقوى مركزاً من الوزيرين الاوربيين اللذين تم عزلهما والخلاص منهما فى نهاية عصر اسماعيل ولهذا سميت هذه اعلان الحماية وليس المراقبة المالية الثنائية » .

وقامت المراقبة الجديدة بأول عمل قامت به وهو اصدار قانون التصفية الذى أعدته لجنة برئاسة السير ريفرز ويلسون . وزير مالية مصر السابق . ورجل بريطانيا الأول . والذى كانت مهمته [أن لا تسوى مصر مشاكلها المالية حتى لا تفقد بريطانيا ذريعتها فى الاستيلاء عليها وقد كان قانوناً لصالح الدائنين تماماً ، والغى دين المقابلة وحقق به ما كان يريده من اعلان افلاس مصر فى شكل آخر ، واحتج المصريون وتذمروا ولكن » لم تكن للمصريين ـ مثل الدائنين دولة تحميهم] كما قال بلنت !!

لكن المهمة الأخرى الرئيسية التى القيت على عاتق رياض والتى لم يكن هناك من يقوم بها غيره كانت تصفية الحركة العسكرية .. وكانت هذه أكثر ما يثير قلق وفزع « أصحاب المصالح الاوربية » .

وقد ازداد قلقها واشتد حينما تحول السخط إلى حركة وطنية وحينما تحولت هذه الحركة إلى حزب سياسى يقود التذمر والسخط ولكن أن يتحول الأمر إلى ثورة وطنية يقودها ضباط « ثوريون » فهذا هو النهاية ، وأن تسقط جهود وتدبير حقب طويلة لتجريد مصر من مقوماتها .. والاجهاز عليها ..

وقد اختار رياض ضابطاً شركسياً عنيداً متعجرفاً هو عثمان باشا رفقى ليكون

وزيرا للحربية فى وزارته ووضع المهمة على عاتقه ، وكان جاهلاً متعصباً يكن كراهية حادة للمصريين ويشاطر رياض كل آرائه حولهم !

وكان القضاء على الحركة العسكرية يبدأ كما اقتضت الخطة الاوربية بتشويهها والحط من قدرها ، وذلك بأن تبدو وتصور بأنها حركة عنصرية وصراع بين ضباط فلاحين من تحت السلاح وبين ضباط أتراك شراكسة من الطبقات العليا ـ وكان هذا وجهاً من وجوه الحركة ولكنه لم يكن محورها أو هدفها ، وأرادت الخطة الاوربية أيضاً أن تصور الضباط « الفلاحين » بأنهم مجرد متمردين عسكريين لا يريدون أكثر من مساواتهم بالآخرين فى الترقيات والعلاوات .. وهذه كل وطنيتهم !!

وقد بدأ وزير الحربية التحرش بالضباط الفلاحين ليؤكد هذا وبدأ يشيع عن حركة تنقلات وترقيات وتغيير فى القيادات ، وأنها سوف تقصى كل الضباط « الفلاحين » ولهذا تقدم عرابى ورفاقه إلى رئيس الوزراء يطلبون اجراء تحقيق عام ولكنه طمأنهم .. ولم يتخذ أى أجراء .. بل قام بابلاغ وزير الحربية بالامر وواصل الوزير استفزازاته وطلب إلى الفرقة التى يقودها عرابى وإلى بعض الفرق الأخرى التى يقودها رفاقه ، أن تقوم بأعمال تطهير « الترع » وأن تقوم فرقة عرابى .. بتطهير ترعة « التوفيقية » المسماه باسم الخديوى .. ورد عرابى الصفعة ورفض التنفيذ . بل وأعلن أن أى فرقة من الجيش لن تشترك فى مثل هذه الأعمال .

وقام وزير الحربية بالفعل باصدار حركة التنقلات والترقيات وكانت صارخة فى إجراءاتها بحيث استفزت كثيراً من الضباط الشراكسة انفسهم .. ولم يغب عن أحد أن هدفها هو اثارة الفتنة فى الجيش كله ، وتحريض فئة من الضباط ضد فئة أخرى واستغراق قوة مصر العسكرية فى حرب الترقيات والعلاوات .

وقرر الضباط الوطنيون القيام بعمل حاسم وذهب وفد برئاسة عرابى يرافقه عبد العال حلمى وعلى فهمى إلى رياض باشا ، وتقدموا بعريضة تطلب اقالة عثمان رفقى وزير الحربية .. ولا أقل من هذا .

وبهت رياض وأجاب « **هذه العريضة مهلكة** .. **مهلكة** » ولكنهم أصروا على طلبهم .. وأعلن رياض أنه لابد من مشاورة الخديوى وامهاله أياماً .

واتفق رياض والخديوى ووزير الحربية عثمان رفقى على خطة بديلة . واستدعى إحمد عرابى ، وعبد العال حلمى وعلى فهمى إلى وزارة الحربية وذلك

لتنظيم الاستعدادت لقران شقيقة الخديوى .. وذهب هؤلاء ولكن بمجرد وصولهم ، اعتقلوا وجردوا من سيوفهم ورتبهم ونقلوا إلى ثكنات قصر النيل لمحاكمتهم عسكرياً وحوكموا بالفعل وصدر الحكم بادانتهم وسيقوا إلى السجن وسط سيل من السباب والشتم والاهانة من حشد من الضباط الشراكسة تجمع فى الثكنات .

ولم يعرف أصحاب التدابير ، أن الضباط الثلاثة كانوا على علم بما ينتظرهم وأنهم قد أخذوا حذرهم واستعدوا له ، ولم تكد الفرحة تتم حتى بوغت الجميع بضابط عظيم يقتحم الثكنات بفرقته ، ويبحث عن القادة ويأتى بهم من السجن ، ليحملهم الجنود هاتفين مهللين ولكى « يفر الشراكسة هاربين يلقون بأنفسهم فى النيل أو يتصايحون النجاة ، واختفى المجلس العسكرى برئاسة عثمان رفقى الذى فر هارباً من باب خلفى .. وراح كل عضو يبحث عن نجاته » .

وأراد محمد عبيد وجنوده أن يقضوا على الباقين ، ولكن وقف عرابى ، ليمنعهم من أن يأذوا أى أحد منهم ، بل وذهب إلى ضابط شركسى كبير كان موجوداً واحتضنه وقال « **هذا شركسى ولكنه أخى** » وكان أحد اللذين أخبروه بالمؤامرة !!

وخرجت مظاهرة عسكرية من ثكنات قصر النيل على رأسها عرابى ورفاقه ومحمد عبيد وجنوده والتفت حولهم الالاف من الجميع وساروا رأساً إلى عابدين .. وأعلنوا اعتصامهم حتى يعزل عثمان رفقى وزير الحربية .

ولم يملك الخديوى الا أن يجيبهم إلى مطالبهم بل ارسل إليهم يسألهم من يختارون وزيراً للحربية بدلا منه . فاختاروا محمود سامى البارودى الذى أمر بتعيينه على الفور .



وكان محمود سامى البارودى وزيراً للاوقاف فى وزارة رياض وكان أحد اللذين أخبروا عرابى بما يدبر لهم فى الثكنات ... وكان عضواً بارزاً فى التنظيم العسكرى .

وأصبح عرابى بطلاً لكل المضطهدين ، وذا شعبية كبيرة فى القاهرة وخارجها ، وبدأت تتوافد عليه الجموع ، ويتصل به الاعيان ومشايخ البلاد ويطلبون منه المساعدة وفتح عرابى صدره للجميع يساعدهم قدر ما يستطيع ويبتسم فى وجوههم جميعاً ويترك فى نفوسهم أثراً لا يمحى .

وأرسل القنصل البريطانى ادوار ماليت برقية مذعوراً تعليقاً على مظاهرة فبراير سنة ١٨٨١ قال عنها « **أن هؤلاء يستطيعون اقالة الوزراء جميعها بل واقالة المراقبة الثنائية والاستيلاء على السلطة وعلى شئون مصر كلها** » .

ولهذا لم يكن ممكناً أن يرضى ماليت أو الخديوى أو رئيس الحكومة رياض عما حدث وأن يسلموا به خاصة وأن نجاح الجيش فى مطالبه ذكر المصريين أن لهم مطالب أخرى لم تتحقق وانتشرت فى البلاد روح الثورة ، ولهذا فإن عزل رفقى باشا لم يعد فى الحقيقة سوى هدنة بين الطرفين .

وأخذ الخديوى ورئيس الحكومة يتحرشان بوزير الحربية الجديد ، ويتحينان الفرص للاطاحة به . وكان الخديوى يتهمه دائماً ويستفزه بأنه صنيعة « العرابيين » وهو الاسم الذى أصبح يطلق على الضباط الوطنيين . وحانت الفرصة ذات يوم بعد حادث وقع فى الاسكندرية من بعض الجنود ، واستدعى الخديوى مجلس النظار كله لجلسة عاجلة بالاسكندرية ، وقرر فيها اقالة محمود سامى البارودى من وزارة الحربية ، وتعيين ابن عم الخديوى داود يكن باشا بدلا منه وذلك بعد أربعة اشهر فقط من توليه .

وأصدر الوزير الجديد بمجرد تولية الوزارة أوامره بنقل عدة فرق من الجيش إلى مواقع بعيدة ولم تترك هذه الاوامر مجالا للشك لدى عرابى « أن المقصود هو تفريق كلمتهم هو وأعوانه » .

وتقرر بحث الأمر فى الحزب وبين كل الاقطاب وثبت لهم « كثرة الدسائس وشدة الضغط من الحكومة وعدم التصديق على القوانين العسكرية التى تم تنظيمها وعدم الشروع فى تشكيل مجلس النواب الذى وعد الخديوى بانشائه ومماطلة الحكومة فى تنفيذ الطلبات الوطنية » . واستقر الرأى على أنه لابد من تحديد وتجديد الطلبات

الوطنية فى صورة مظاهرة وطنية شاملة .

وأعد الحزب منشوراً وقعه عرابى وحمله خطيب الثورة وداعيتها الكبير عبد الله النديم ليطوف به المدن والارياف ، ويعد الرأى العام .

وقال المنشور :

أن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم . ولم يكن مقصدها مؤدياً الا إلى اضمحلال البلاد وتلاشيها وذلك بما هو جار من التسليم للاجانب . وأن سكوتنا على ذلك إنها هو العجز والجبن والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا ولابد من المطالبة بسقوط وزارة رياض وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة .

ووزعت مع المنشورات توكيلاً « لتوقعوا على هذه الكتابة المرسلة وهى الكتابة المقصود بها أن أكون نائباً عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد » وأشعل عبد الله النديم البلاد حماساً طوال الصيف ، وتدفق طوفان من التوكيلات إلى عرابى .

وفى اجتماع كبير تقرر يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ الساعة العاشرة صباحاً ليكن يوم الحسم واخطرت الاقاليم « وزحفت الوفود والاف العمد والاعيان وقفوا مع أعضاء مجلس شورى النواب وما لا يحصى عدده من الجماهير يصاحبهم شعورهم الذى وصل إلى قمة الاشتعال » .

وتمت المواجهة بين الوطنية المصرية وبين الخديوية والامبريالية البريطانية بانتصار مدوى .

ولم يملك مراسل التايمس البريطانية الا أن يكتب :

« من العبث أن نخفى الحقيقة وان لا نعترف أن هذه حركة وطنية ضد التدخل الاجنبى ، واذا كان جائزاً منذ أسبوعين القول أنها مجرد حركة محدودة . وفى نطاق عدد محصور من الضباط ، فإن هذا يغدو عبثاً اليوم .. ان الشعب كله يؤيد الجيش .. وأصبح الجميع لا يهابون شيئاً فى التعبير عن آرائهم . »

وكتب قنصل اوربى ، غير متحيز هو قنصل النمسا .. هذه ليست تمرداً أو حركة عسكرية بأية حال .. هذه ثورة وطنية شعبية تماماً .



عبد الله النديم





محمود سامي البارودي

وبلغة عصرنا ، كانت مواجهة هى الأولى من نوعها بين الثورة الوطنية الديمقراطية المصرية وبين الاستبداد والاستعمار .. وكان الانتصار حاسماً وتجاوبت اصداؤه مصر والعالم خارج مصر . الدولة العلية والعالم الاسلامى حتى الهند .. واصبح عرابى زعيماً من زعماء الشرق والاسلام .

وتساءل الجميع : « **من يكون هؤلاء العرابيون وكيف جاءوا** ؟ » .

كان محمد سعيد باشا رابع الولاه من أسرة محمد على ، وكان أصغر ابنائه محبوبا مقربا منه ، وكان يعده لقيادة البحرية ولهذا « **درس علوم وفنون البحرية والاساطيل ونشأه أبوه فى فصل من أبناء العامة . حيث لابد للقائد البحرى خاصة أن يكون وثيق الصلة بجنوده فى عرض البحار النائية** » .

وكان سعيد لهذا طالبا مجدا مهذبا يحب رفاقه ويحبونه حبا جما ، ومنهم تعلم حب عامة الشعب المصرى .

ولهذا « **كان سعيد أول حاكم اعتز بالجنسية المصرية وأحب بلاده باخلاص حبا لا تشوبه المطامع والزهو ، وكان لا يميل إلى الاتراك ويبذل جهده لتقوية العنصر الوطنى واسعاده** » .

ويروى أحمد عرابى :

حدث فى أول مأدبة له بعد جلوسه على العرش أدبها للعلماء والرؤساء الروحانيين وأعضاء العائلة الحاكمة وأعاظم الرجال ملكيين وعسكريين أن وقف بعد العشاء وقال مرتجلا :

أيها الاخوان :

انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما

مستعبدا لغيره من أمم الأرض فقد توالت عليه دول كثيرة كالرعاة والاشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالامويين والعباسيين والفاطميين من العرب ومن الترك ومن الأكراد والشركس .

وقد أغارت فرنسا على مصر واحتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بونابرت . وبما أنى أعتبر نفسي مصريا رأيت أن أربى أبناء هذا الشعب وأهديه حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل .
ويستطرد عرابى باشا قائلا :

« **لما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجو ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا ، وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر اساس مصر للمصريين** » .. كانت أحد معالم التحول فى الوعى الوطنى و « الطبقى » فى مصر .

وقد انعكس حب سعيد للمصريين فى تحيزه للفلاحين عماد مصر وفى سنة ١٨٥٨ قضى على نظام الملكية القديم ووزع الأرض بين الفلاحين فأصبحوا ملاكا أحرارا فى التصرف فى أرضهم وحاصلاتهم وتنازل للاهالى عن جميع الديون والضرائب المتأخرة على الأرض ولهذا سمى العصر الذهبى للفلاح .
وشمل الحب الجيش بالطبع وعنى عناية خاصة بالجيش وذلك بالمحافظة على صبغته الوطنية بعد أن كاد يقضى عليها عباس الذى عاد وجلب الالبانيين وكون منهم حرسا بلغ عدده ستة آلاف جندى .

ولكن القرار الذى بدأت منه الأحداث الجسيمة كان « **أن قرر ترقية العسكرى من تحت السلاح إلى ضابط وبهذه الطريقة ترقى عرابى وغيره من أبناء جنسه إلى مراتب القيادة فى الجيش والتى كان يحتلها الاتراك والشراكسة وكان ذلك بدء النزاع الذى أدى إلى الثورة العرابية** » . وكان أحد هؤلاء الضباط الجدد والمقربين إليه هو أحمد عرابى الذى كان يلازمه ويستحوذ على اهتمامه واعجابه ..

« **ولشدة اعجابه بى أهدانى تاريخ نابليون بونابرت طبع بيروت وهو بادى الغيظ لأن الفرنساويين تمكنوا بسهولة من التغلب على البلاد المصرية .**

وكان يحرص على وجوب حفظ الوطن من طمع الاجانب » .

وكان الكتاب بداية مسيرة الفلاح من تحت السلاح إلى الثورة وترسبت فى نفسه مبادىء الحرية والأخاء والمساواة .. وحقوق الشعب والعامة .. وعبقرية نابليون « ابن الثورة » .

وقد بدأ سعيد عصره بالاصلاح وبفتح النوافذ والابواب التى أغلقها عباس ، ولكن لم يدخل الهواء النقى .. ولم يقدر لسعيد أن يحقق نواياه الطيبة أو سياساته الخيرة لأن الذين أصابهم الفزع بعد المأدبة سواء من الحكام أو الاجانب تكاتفوا لدفع الخطر فى المهد ، وعملوا على شل ارادته وعلى فساده وانحلاله وعلى تخريب كل خططه ومشاريعه .

وقد كان الشعور السائد بعد وفاة محمد على وابراهيم ، ثم تولى عباس أن المشكلة المصرية قد انتهت وإلى غير رجعة ، بعدما أثارت فزع وقلق الدول الكبرى ، وبعدما قلبت الموازين الدولية لأكثر من ربع قرن .. ولم يكن ليسمح ببعثها مرة أخرى فى أى صورة كانت !!

وقد اشتد الصراع حول مصر بعد نهاية محمد على مباشرة وبين فرنسا وبريطانيا وهو نزاع لم يهدأ منذ معركة أبو قير سنة ١٧٩٩ .. ولكن تركز الصراع فى مشروعين تمثلت فيهما كل مطامع ووسائل الدولتين .

وكان الأول البريطانى هو انشاء خط سكة حديدية من الاسكندرية إلى القاهرة ثم منها إلى السويس .. وكان القطار قد اخترع وأخذ يغير اقتصاد وسياسة واستراتيجية أوربا . وبدأ استكشاف قدراتة واحتمالاتة الاستعمارية بعد أن كان الاسطول هو الوسيلة الرئيسية .

وتقدمت بالمشروع شركة الهند الشرقية التى كانت تحكم وتملك الامبراطورية البريطانية فى الهند . وقد أرادت اختصار « الطريق إلى الهند » الذى كان يقوم عليه كل ثراء ورخاء بريطانيا .. وكانت شركة الهند الشرقية تملك بعض المحطات « البريدية » فى مصر وتحت الادارة المصرية الكاملة . ولكن بهذا المشروع أرادت أن يكون لها وجود وامتداد فى مصر .. وجاء « ستيفنسون » مخترع القطار بنفسه ليعرض المشروع لحساب الشركة العتيدة .



ابراهيم باشا





محمد علي باشا

وكان المشروع الثانى « الفرنسى » هو حفر « قناة السويس » التى توصل بين البحرين الأبيض والاحمر ، وكان من المشاريع التى درسها باهتمام علماء الحملة الفرنسية وانتهوا إلى عدم امكان تحقيقها لخطأ فى الحسابات . وحينا اكتشف الخطأ واكتشفه المهندسون المصريون ، عادت فرنسا تلح فى قبول المشروع الذى أصبح احدى دعامات سياستها الشرقية .

ولم يكن المشروعان جديدين وقد عرضا على محمد على من قبل واستماتت كلا الدولتين فى اقناعه بهما ، وقد رفضهما رفضا باتا .

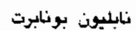
وقد رفض محمد على المشروع البريطانى إلا إذا كان تحت الادارة والملكية المصرية الكاملة وليس لشركة الهند الشرقية سوى الخدمات .. وكان يعرف تماما ما فعلت الشركة بالهند وكان يحاصر كل محاولاتها للنفاذ إلى مصر أو تثبت أى قدم لها فى البلاد .. وقد رفض المشروع الثانى منذ البداية لانه كما قال لن يصنع بيديه « بوسفور » آخرى وكان يرى الصراع الدولى حول مضايق البوسفور والدردنيل والذى لم يبرد لقرون طويلة بين الدول الكبرى والامبراطورية العثمانية .

ولم يكن المشروع فى حقيقته مجرد شق قناة تصل بين البحرين ولكن اقامة « مستعمرة » تستقدم حشدا من المعمرين الفرنسيين ثم من الجزائريين واللبنانيين لتقيم دولة تزحف على الدولة ويبدأ التوسع والنفوذ الفرنسى فى المشرق بعد ما توطد فى المغرب !

وقد حصلت بريطانيا فى عهد عباس الأول على امتياز الخط الحديدى من القاهرة إلى الاسكندرية ولهذا أصبح كل هم فرنسا « المحموم » هو الحصول على امتياز قناة السويس مهما كان الثمن .

وقد وفر وصول سعيد إلى العرش فرصة ثمينة لفرنسا ، كان على عكس ابن





نابليون بونابرت

فرديناند ديلسبس

آخيه عباس ، مستنيرا ومحبا لفرنسا وثقافتها ، وكان يرى انحصر دائما في بريطانيا ، وكان صديقا حميما لابن القنصل الفرنسى فى عصر ابيه ماثى ديلسبس واسمه « فرديناند » .

وقد تكفل فرديناند الذى أصبح من مغامرى القرن التاسع عشر الكبار بالحصول على الامتياز من صديقه « سعيد باشا » واستطاع هو والامبراطور نابليون الثالث والوزير المصرى نوبار باشا اقناع سعيد بأن المشروع سوف يخلد اسمه فى التاريخ وان الحضارة والمدنية الحديثة سوف تظل مدينة له للأبد ، وآن الرخاء والثراء سوف يعم مصر وآن العالم كله سوف يتحول إلى قناة السويس .

وفتحت أبواب مصر لشركة الهند الشرقية والشركة العالمية لقناة السويس ، وتحولت مواكب الاجانب التى انهالت على مصر إلى سيل وطوفان . ضم كل نفاية اوروبا من الباحثين عن « الذهب » .

واحتمى هؤلاء فى قناصلهم الذين كانوا يستمتعون بحصانة خاصة فى ظل نظام الامتيازات الاجنبية . وهو نظام بدأ كمنحة للاجانب ثم تحول إلى ميزة تجعلهم فوق القوانين وتعفيهم من أى ضرائب أو التزامات نحو الدولة .. « وقد كان هناك ست عشرة قنصلية فى مصر تحولت كل منها إلى دولة داخل الدولة .. وعلى رأسها أنواع متفاوتة من الأوغاد وسفلة الناس » .

« وكان هؤلاء أو رعاياهم يتقدمون بمشاريع وهمية وعمليات احتيالية ثم يطالبون بتعويضات خيالية عما أصابهم ولكل هذا بدأ تعثر الاقتصاد المصرى وتخبطه وتداعت الأسس المتينة التى قام عليها خلال عصر محمد على » .

وفتح ديلسبس ـ صاحب امتياز القناة ـ عينى سعيد وأغراه على الخطيئة القاتلة وهى الاستدانة من بيوت المال الاوربية .

« **ووقع سعيد فيما لم يقع فيه أبوه أبدا وأصبحت ادارته المالية من أسوا الادارات لأنه أول من استدان من البيوتات المالية الاجنبية . وعقد قروضا تبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات وكان دينه السائر يبلغ العشرة ملايين . وقد استحكمت الازمة المالية فى أواخر حكمة فاضطر إلى بيع أثاث القصور وما حوته خزائن الحكومة من نفيس المتاع وقرر تسريح الجيش** » .

« **وقد كانت ديونه داخلية وخارجية وكان منشؤها فى سعة وكرم الوالى وتعاقده من غير روية مع الاوروبيون المتعهدين وغيرهم الذين لا ينفكون يطالبون بواسطة قناصلهم بتعويضات كبيرة عن غبن وهمى أصابهم فى اتفاقات أبرموها مع الحكومة** » .

وقد أصابه اليأس والارهاق فى سنواته الاخيرة . وكان يبدو برما بالحياة ويستعجل نهايته .. ويردد « لقد تعبت » .

وقال نوبار « **بدأ التدهور فى عهد سعيد** » **ولم يعترف بالطبع أنه المهندس الأول** .

وتولى اسماعيل العرش بعد سعيد ، وكان طرازا مختلفا فى حيويته وقدراته وكان ابن ابراهيم وحفيد محمد على ، وكان على وعى دائم بهذه الحقيقة ، وذو احساس بالتاريخ ، وبدور مصر فيه وبالتراث الذى خلفه أبوه وجده .. والذى عليه أن يتمه .

وقد عنى أبوه عناية فائقة بتعليمه فى مصر وأوربا ، واشتهر بين الأمراء بحسن سمعته ثم بمواهبه الفائقة فى الادارة والاقتصاد وكانت مزارعه ومشاريعه الخاصة نموذجية وفى خطاب العرش الذى ألقاه أمام الذوات والاعيان وقناصل الدول قال :

« **أن أساس كل إدارة جيدة انما هو النظام والاقتصاد فى المالية ولكى أقدم دليلا محسوسا على ارادتى هذه عزمت من الآن على ترك الطريقة المتبعة من اسلافى وتقرير مرتب سنوى لن أتجاوزه أبدا فأتمكن بذلك من تخصيص عموم ايرادات القطر لانماء شئونه الزراعية وتحسينها** » ..

واتجه إلى القناصل قائلا :

« **اننى آمل ياحضرات القناصل أن أجد منكم اقتناعا بهذه العواطف التى تملأ فؤادى واقبالا على وضع ايديكم باخلاص لنعمل معا على ما فيه خير البلاد وساكنيها** » .

وقد ساعد الحظ اسماعيل فى بداية حكمه وشاع التفاؤل ، إذ أرتفعت أسعار القطن المصرى ارتفاعا كبيرا بسبب الحرب الاهلية الأمريكية « وبلغ الصادر ١٤ مليون جنية بعد أن كان لا يتجاوز ٤ ملايين جنيه وكان اسماعيل كمعظم رجال عصره يتوهم أن الحرب ستستمر طويلا ولهذا عقد قرضا كبيرا وشرع فى تنفيذ سياساته الطموحة » .

وكان اسماعيل يريد تحقيق « الحلم المصرى » الكبير الذى بعث وارتفعت ألويته على يد جده وأبيه وهو مصر المستقلة كأساس لقوة عربية أفريقية كبيرة وأن تتشرب حضارة العصر وتجدد حضارة الشرق فى مواجهة الغرب .

وقد عدل اسماعيل فى صيغة الحلم مستخلصا دروس وعظات تاريخ أبيه وجده ، ومتلافيا عثراتهما ، وأراد أن يحقق بالسياسة والدبلوماسية ما لم يتحقق بالقوة .

واراد اسماعيل أن يعيد بناء مصر بالتعاون مع أوربا أن يجعل من مصر نموذجا لحضارة أوربا ، ويمكن أن تفخر به أوربا نفسها وأن لا ترى فيه « خطرا » أو مصدر « قلق » .

ولم يشأ أن يعيد مشروع الدولة العربية العصرية التى تحل محل الامبراطورية العثمانية وذلك حتى لا يصطدم بصراعات وأطماع « المسألة الشرقية » وأثر أن يتجه جنوبا إلى أفريقيا حيث الأرض مجهولة لم تقم حولها مصالح بعده وأن يقيم الدولة المصرية الافريقية الكبرى .

وأكد أنه سوف يتم مشروع القناة ، ويضعه فى خدمة الحضارة والتجارة ولكنه سوف يعدل فيه فقط بأن يجعل « القناة لمصر وليست مصر للقناة » .

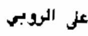
وكان تحقيق هذه السياسات الطموح يعنى بعث الجيش وإعادة بناء القوة العسكرية ، ولكى يتلافى الصراعات والدسائس الاوربية لجأ إلى مصدر جديد للخبرة ، واستقدم بعثة أمريكية عسكرية كما استعان بضباط من السويد فى أقصى الشمال .

وكان الجيش المصرى الجديد فى عصر اسماعيل ، هو الطليعة الحقيقية لاكتشاف القارة المجهولة وقد لقيت قوات اسماعيل أستجابة وترحيبا من الشعوب والقبائل الافريقية خاصة « المسلمة » والتى أثارها ظهور سلطان مسلم جديد هو « السلطان سماعين » ، كما كان يسمى وامتد توسع اسماعيل حتى الصومال ، وقام الضباط المصريون بوضع أسس الدولة المصرية الأفريقية العصرية الجديدة .



الخديو إسماعيل





وخلال فتوحات وبحوث الجيش المصرى نبغ عدد كبير من قيادات العسكرية الادارية والعلمية وكان على الضباط أن يكتشفوا أراضى وأهالى جددا وأن يضعوا نظما وأساليب حكم مبتكرة وأن يبتدعوا تنمية وترقية مناسبة لأهالى تلك البلاد . وكانت جهود الضباط المصريين هى الاساس العلمى الحقيقى لاكتشاف أفريقيا ..

وفى صفوف هذا الجيش نمت قوة جديدة من الضباط من تحت السلاح أو من فوقه ، هى الضباط المصريون الفلاحون ، أو الذين ليسوا من أصول تركية شركسية ، وبدأ فى الجيش صراع تزداد حدته كل يوم بين الفريقين.

وقام ضابط فلاح من هؤلاء هو على الروبى بتكوين جمعية سرية داخل الجيش من الضباط الفلاحين « الأحرار »وبدأ التنظيم يقوى ويتكاثر اعداده ، كلما وجد هؤلاء الضباط أن بطولاتهم واكتشافاتهم واجتهاداتهم . تغمط أو ينتحلها الجهلة أو المتعجرفون من الشراكسة .

وبدأ توسع اسماعيل ، والدولة الكبيرة التى يرسيها فى أفريقيا يثير قلق أوربا خاصة بريطانيا وبدأت شهرة السلطان سماعين وشعبيته توجه الانظار والاطماع إلى القارة المجهولة .. وبدأ التطلع الاستعمارى إلى أفريقيا وشرعت بريطانيا تنبه وتقرع نواقيس « الخطر المصرى » مرة أخرى فى أفريقيا وكانت المرة الأولى فى أسيا الصغرى خلال عصر محمد علي .

ووجدت أوروبا وخاصة بريطانيا فى الحبشة « المسيحية » قوة تستطيع دفعها ضد التوسع المصرى « الاسلامى » ولم يكن عسيرا أن تشعل الحرب « الصليبية » ضد مصر من الجنوب .

وأعد اسماعيل حملة للرد على استفزازات « امبراطور » الحبشة ولتأمين حدود



راشد حسني باشا





طلبة عصمت

مصر وحسم ... ى رفض الامبراطور كل محاولات تسويته ، وتولى قيادة الحملة « راتب باشا » وكان رئيس أركان حربه ضابطا أمريكيا كبيرا هو الكولونيل « لونج » وكان رئيس الامدادات هو القائمقام « عرابى بك » .

وبدأت الحملة بداية سيئة بالصدام بين القائد الشركسى وأركان حربه الامريكى واستطاع بعض المبشرين الاوربيون أن يندسوا وسط الحملة ، ثم ينقلوا كل أسرارها إلى الإمبراطور المسيحي وأعد هذا بمساعدة المبشرين والخبراء الأوربيين كميناً محكماً للحملة .. وانتهت لهذا .. بكارثة . كانت أكبر هزيمة لقيتها القوات المصرية حتى ذلك الحين .. وألقيت تبعة الهزيمة على رئيس الأركان الأمريكي ثم على رئيس الامدادات .. ولم يمس راغب باشا ، ولكن تقرر طرد « عرابي » بك من خدمة الجيش .

الجيش .

وانعكس أثر الحملة فى جمعية الضباط وكان نقطة تحول ، فقد انضم إليها عدد أكبر كان أبرزهم أحمد عرابى ، ومنذ انضمامه أصبح بشخصيته وشجاعته وفصاحته الرئيس الحقيقى وروح هذه الجمعية .

وقد تتالت على مصر منذ تلك الحملة « **الاحداث الجسيمة والخطوب الجليلة** » وعم السخط والحنق كل الفئات والطبقات .. وخاصة من العسكريين ولم تعد الجمعية خاصة بعد انضمام عرابى جمعية عنصرية للضباط الفلاحين ضد الضباط الشراكسة . ولكن أصبحت جمعية سياسية للضباط الاحرار الوطنيين عامة .. وانضم إليها عدد من الشراكسة الاتراك الذين قال أحدهم فى عصر محمد على « لقد صهرتنا شمس مصر وروانا ماء نيلها وأصبحنا عربا مصريين لا نعرف لنا وطناً آخر ».. وكان من أبرز هؤلاء محمود سامى البارودى وراشد حسنى وطلبة عصمت .. وآخرين » .

ولم تقبل أوربا التعايش المتكافىء مع مصر أو أن تخلق منها واحة حضارية أوروبية فى الشرق كما حلم اسماعيل ..

كانت الرأسمالية الاوربية فى ذروتها بنمو الرأسمالية المالية « الامبريالية » وكان الشرق بالنسبة إليها مجرد ميادين استثمار تصدر إليها فائض رءوس الاموال لتملكها وتحكمها ولم يكن للاعتبارات الحضارية أو الانسانية أى مقام لديها ..

وقد وجدت هذه الرأسمالية الامبريالية فى طموح اسماعيل وفى سذاجته « وكان اسماعيل سليم الطوية » فى البداية .. أفضل ثغرة ينفذون منها إلى مصر التى كان السباق محموما على امتلاكها ..

وتوافد سيل من السماسرة والمضاربين والمرابين يمثلون أكبر البيوت المالية فى أوروبا ، ويعرضون القروض ويغرون بها ، وبدأ التورط من قرض إلى قرض ثم إلى قرض لسداد قرض أو اقساط وفوائد قرض .. ولم يمضى وقت طويل حتى كانت مالية مصر غارقة فى محيط من القروض ، وفريسة فى قبضة بيوت المال الاوربية الكبرى .. وعلى رأسها بيوت المال البريطانية .

عبأت بريطانيا مصارف وبنوك أوروبا للغزو المالى لمصر ، فى عصر اسماعيل ، كما عبأت قوى أوربا السياسية والعسكرية لغزو مصر العسكرى أيام محمد على ..

وقد بلغت ديون مصر الرسمية فى عصر اسماعيل ٩٠ مليون جنية ، ولكن كان ما وصل فعلا منه ، لا يتعدى ٤٢ مليون جنيه .. وذهب أكثر من نصف القروض فى السمسرة والوساطة والعمولة ..

وقد سددت مصر كل دينها الحقيقى ودفعت عنه فوائد ٦٪ حتى سنة ١٨٨٢ ، ومع ذلك « بقيت مثقلة بدين قدره ٩٠ مليون جنيه » وظلت مصر تسدده حتى سنة ١٩٤٤ !!

وأصبح « نهب مصر » اسطورة شائعة فى القرن الماضى ، وسميت القروض المصرية « **أكبر عملية نصب فى القرن التاسع عشر كله** » ..

وقد بدأ مركز مصر المالى يتحرج بعد سنة ١٨٧٦ وعرفت كل الدول هذا ، بل لقد دفع الامر السلطان العثمانى إلى أن يصدر فرمانا يحرم فيه تقديم أى قرض إلى مصر بدون إذن من الحكومة التركية ..

ولم يعبأ أحد بالفرمان ، ولم يوقف تقديم القروض إلى مصر ..

« ويلاحظ أن الماليين كانوا يعلمون جيدا أنهم يخاطرون بأموالهم لأن مركز مصر المالى كان فى غاية الدقة وكان عقد هذه القروض من جهة أخرى بدون تصريح تركيا خرقا للقوانين والمعاهدات لا يبرره إلا جشع الماليين الذين كانوا يستندون إلى قوة خفية تكفل لهم مصالحهم » .

ولم تكن القوة خفية بل كانت واضحة ظاهرة وتدفع الأمور إلى نهايتها حتى تستطيع أن تحقق أهدافها ..

وحينما صدر فرمان السلطان ، اقنع الوسطاء والمرابون اسماعيل أن يستدين برهن أملاكه الخاصة ، وعقد سلفة من مصرف بتشوفهايم الالمانى سنة ١٨٧٠ بمقدار سبعة ملايين جنيه وبفائدة ١٣٪ ، ولكن لم يتسلم فعلا سوى خمسة ملايين جنيه ، واحتج الباب العالى احتجاجا شديدا لدى بريطانيا بصفتها ممثلة لكبار الدائنين ولكن لم ترد بريطانيا سوى بأنها تحيط السلطان علما أنها تسلمت الاحتجاج .

ووضع أحد وزراء المالية « الوطنيين » اسماعيل صديق المفتش ، خطة لعقد قرض داخلى كبير يسدد به القروض الاجنبية وذلك بأن يتقاضى ضرائب ست سنوات كاملة من الملاك مقابل اعفائهم من نصف الضرائب بعد ذلك ولكن تمكنت الدولة من جباية ٨ ملايين من الجنيهات وكانت الديون قد بلغت ٢٧ مليون جنيه .. وأصبح اسماعيل صديق مكروها من الاجانب والدائنين كراهية التحريم .. وظلوا حتى أغروا اسماعيل بالقضاء عليه فى حادثة مشهورة وبشعة .

فى سنة ١٨٧٢ قدم مصرف أوبنهايم البريطانى قرضا إلى اسماعيل بمبلغ ٤ ملايين جنيه . وسافر إلى الاستانة وذلك ليحصل على « فرمان » يخول له حق عقد القروض بلا قيد ولا شرط ..

وقدم اسماعيل معظم المبلغ رشوة للسلطان وحاشيته فصدر الفرمان ، مباشرة منه ، وبغير علم الوزارة التركية .

ولما سقطت الوزارة فى تركيا وتولت وزارة جديدة برئاسة مدحت باشا .. زعيم الاصلاح فكر فى عدم الاعتراف بالفرمان حرصا على صالح مصر .. ولأن الفرمان لم يسجل فى أرشيف الباب العالى كما تقضى بذلك قوانين الدولة .. ولكن اعترض السفير البريطانى السير هنرى اليوت « **وقد رجوت رئيس الوزراء ألا يسمح لمثل هذه الافكار ان تدور برأسه وما دام السلطان قد أعطى كلمته فلابد وأن تنفذ مهما كان الثمن** » ..

وهكذا كان استغلال مصر واستنزافها منذ ذلك الحين مصلحة بريطانية يحافظ عليها . [وضاعت سدى محاولات الوزير التركي المتخلف في اقناع الدولة المسيحية المتحضرة في انقاذ شعب مصر من الوقوع تحت وطأة المرابين المتربصين] . .

وبعد أن استرد اسماعيل حريته ، عقد أكبر قرض عقده من نفس بيت « اوبنهايم » البريطانى بمبلغ ٢٢ مليون جنيه .. بفائدة ٨٪ .. وكان يستعد لحملة الحبشة كما كان عليه سداد فوائد وأقساط الديون السابقة ..

ولم يتسلم اسماعيل من هذا القرض فعلا سوى ١١,٧٠٠,٠٠٠ جنيه .. « **ولم يعرف تاريخ القروض الحكومية من قبل صفقة مثل هذه ولم يحدث أن تحقق مثل هذا الربح لأى دائن أو وسيط** » !!

وحينما اشتدت الضائقة ، وكان على اسماعيل أن يسدد فوائد ديون قدرها ستة ملايين جنيه .. أوحوا إليه أن يبيع أسهم مصر فى قناة السويس ، وكانوا أثمن ما بقى فى حوزته وعرضها بالفعل للبيع ، وسارع دزرائيلى رئيس وزراء بريطانيا وخرق كل القواعد الدستورية واشتراها مباشرة من اسماعيل بمساعدة بنك روتشيلد بمبلغ ٤٠٠,٠٠٠ جنيه وكانت ١٧٦,٦٠٠ سهم !!

« **وكان الثمن بخسا . وقد تعهد اسماعيل فوق ذلك بأن يدفع فوائد قدرها ٥٪ سنويا لهذا المبلغ وذلك حتى أول يوليو سنة ١٨٩٤ وبعبارة أخرى كانت الحكومة الانجليزية تسترد مبلغا بالتقسيط بعد أن استولت على أسهم بلغت قيمتها سنة ١٨٩٦ ـ ٢٤ مليون جنيه** » .

وكتب القنصل الامريكى فى ذلك الحين « **أن الصفقة كانت الضربة القاضية وأكبر غلطة سياسية ومالية ارتكبها فى حياته .. وأصبح للحكومة الانجليزية مصلحة مزدوجة مالية وسياسية فى القناة تمهد السبيل لتدخلها الفعلى فى مصر** » ..

وببيع أسهم قناة السويس ، بلغت الازمة ذروتها وانتهت المرحلة الأولى وبدأت المرحلة الثانية ..

واقترح القنصل البريطانى على الخديوى أن يستدعى خبيرا بريطانيا لفحص المالية المصرية واقتراح خطط الاصلاح ، ووافق الخديوى ، وسارعت الحكومة بانتداب المستر كيف للمهمة .. وجاء إلى مصر سنة ١٨٧٦ ..

وبدأ بوصوله التدخل الفعلى وارسال البعثات المختلفة التى كان الغرض منها

اصلاح الادارة المعتلة بوضعها تدريجيا تحت السيطرة الاوروبية وتسخيرها لصالح الدائنين ..

وقد راجع المستر كيف كل الملفات ودرس كل الحسابات ، وطاف كل أرجاء البلاد . وأعد تقريرا مفصلا .. ظل بعض الوقت فى أدراج الحكومة البريطانية ..

وذات يوم تقدم أحد اعضاء مجلس العموم البريطانى بسؤال حول تقرير المستر كيف حول مالية مصر وأين هو ولماذا لم ينشر ؟

وأجاب رئيس الحكومة دزرائيلى :

ـ انه كان يريد نشر التقرير ولكنه تلقى رجاء من الخديوى بأن لا ينشره ..

وأحدثت الاجابة دويا فى أوروبا وفى مصر .. وكان واضحا أن السؤال والاجابة متفق عليهما ، وأن تبدو مصر وكأنها على شفا الهاوية ..

وسارع الخديوى بارسال برقية يطلب فيها نشر التقرير .. ولكنه أدرك كل ما وراءه وقال لمن حوله « **انهم يحفرون قبرى** » .

وصرح فى حديث لمراسل التايمس « اننى لم أكن أعتقد قط أن إنجلترا تهدف لشراء أسهم قناة السويس وارسال موظف كبير لفحص حساباتى إلى وضع يدها على مصر » .

وهكذا انجابت الغشاوه الباقية على عينيه وبدأ التحول الحاسم فى موقفه ..

وقد اقترح كيف فى نهاية التقرير الذى قرر إمكان اصلاح المالية المصرية وقدرة مصر على تسديد ديونها ، أن توضع المالية المصرية تحت إدارة خبير بريطانى من كبار موظفى المالية البريطانية هو « السير ويفرز ويلسون » ولكن هذا السير لم ينتظر موافقة الخديوى أو عدم موافقته على انتدابه بل وصل إلى مصر فعلا ليضع اسماعيل امام الأمر الواقع .

وقرر اسماعيل أن يفسد هذه الخطة ..

قرر اسماعيل أن يفسد الخطة الانجليزية للأستيلاء على مصر وذلك بإنشاء صندوق للدين يتمثل فيه كل الدائنين ، حتى لا تستأثر بريطانيا بالحلول وأن يحول جميع الديون الى دين موحد بفائدة قدرها ٧ ٪ وعين فى صندوق الدين مندوبين عن فرنسا والنمسا وايطاليا ، ورفضت بريطانيا تعيين مندوب لها .

ودبرت بريطانيا مع الدائنين وحملة السندات المصرية أرسال بعثة ثنائية جديدة لفحص مالية مصر مرة أخرى تتكون من عضوين أحدهما بريطانى والآخر فرنسى ، وهما المستر جوشن والمستر جوبير ، وكان اسماعيل قد استعان بفرنسا فى تنفيذ مشروع صندوق الدين ، وحتى يحبط محاولة بريطانيا الاستئثار بإصلاح المالية المصرية ورأت بريطانيا أن تسد عليه هذا الطريق .

وقررت البعثة الجديدة وضع مالية مصر واقتصادها تحت مراقبة ثنائية بريطانية فرنسية ونظام ثنائى « كوندومنيوم » يتولاه مراقبان أحدهما بريطانى ولآخر فرنسى .

وحاول الخديوى الأقتداء بتركيا واعلان أفلاس مصر ، ولكن ذهب إليه القنصل الفرنسى البارون دى ميشيل وانذره بعزله عن عرش مصر اذا فعل ذلك . وصاح اسماعيل « **ما العمل إذا كنت لا أستطيع الدفع وكانت مصر جلدا على عظم ، أتظنون أنكم بوضع السكين على رقبتى ستتمكنون من أستنباط الموارد التى تنقصها** » .

ولم يستطع اسماعيل مع هذا شيئا وصدر مرسوم ١٨ نوفمبر سنة١٨٧٦ بإنشاء المراقبة الثنائية وتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة البريطانية وقضى المرسوم بتعين المراقبين [وتكون مهمتهم استلام ايرادات الجهات المرهونة ضمانة لسداد أقساط الديون السنوى من يدى مراقب الإيرادات العام وتسليمها لبنكى انجلترا وفرنسا واتخاذ الأجراءات اللازمة لاستهلاك ذلك الدين ثم تعيين لجنة لإدارة مصلحة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تتكون من مصريين وفرنسيين وبريطانيين تحت رئاسة العضو الانجليزى ، وتقوم بإدارة المرفقين وتسليم إيراداتهما الى صندوق الدين] .

وعين ريفرز ويلسون مراقبا بريطانيا ودى بيلنر مراقبا فرنسيا وقد قررت بعثة جوشن ـ جوبير . وهذا أهم ماحرصت على تقريره وتأكيده تحويل الديون الى دين ممتاز مقداره ١٧ مليون جنيه بفائدة ٥٪ ودين ثابت مقداره ٥٩ مليون جنيه بفائدة قدرها ٧٪ .

وأصبح مجموع فوائد الدين التى تدفع سنويا لا تقل عن ٦,٥٦٥,٠٠٠ أى مبلغ ٦٦٪ من الإيرادات العامة فلا يبقى لمصر بعد دفع الجزية إلا مليون ونصف تقريبا لا تكفى للأنفاق على الإدارة وتعهد أعمال الرى وغيرها التى هى عماد الثروة فى البلاد .

ووضعت اللجنة القاعدة التى آلتزمت بها مصر والتى صاغها القنصل البريطانى فى ود له على الخديوى « **أن الدائنين لا يمكن ولا يجب أن يدفعوا ثمن تدهور الأحوال فى مصر لأنهم ليسوا مسئولين أدنى مسئولية عن ذلك** » .

واصبحت مالية مصر مسخرة تماما لوفاء الأقساط والفوائد . مهما يكن الثمن .. ووصلت الأمور الى حيث أضطر نفس القنصل البريطانى الى أن يكتب فى يوليو سنة١٨٧٧ :

« **أن الأموال المطلوبة لدفع الفوائد هى ٢,٠٧٤,٩٧٥ جنيها وقد دفعت كلها أمس ولكن أخشى أن يكون بلوغ هذه النتيجة قد كلفا الفلاحين قصم ظهورهم تماما ، فقد بيعت حاصلاتهم المقبلة قهرا وطلبت منهم الأموال مقدما ، وكل ذلك انتزع من بلاد أرهقتها وسحقتها الضرائب وأكبر ظنى أن المراقبة الأوربية آخذة من حيث لا تشعر فى القضاء على ثروة مصر الزراعية وجعلها أثرا بعد عين واننى أرى أن الانجليز يحملون نصيبا كبيرا من هذه التبعية الخطيرة** » .

وقد توالت الكوارث الطبيعية على مصر فأضافت الى المأساة .. « وفاض النيل فيضانا لم يسبق له مثيل سنة١٨٧٧ ونشر القحط والمجاعة والموت . وفى السنة التالية جاء فيضان منخفض فأتى على الزرع والضرع ولم يمنع ذلك السلطان من أن يطلب الى مصر أرسال حملة مصرية للأشتراك فى الحرب الروسية التركية .. وأن يلبى الخديوى الطلب » .

وكتب القنصل البريطانى اللورد فيفيان الذى قامت الحكومة البريطانية بتغييره بعد ذلك بسبب رسائله يقول :

« **أن الخزينة خاوية والشعب يزداد سخطا ولا يقيم أو يرى سببا لأن يدفع لأصحاب الديون كل ما لهم . بينما لا يتقاضى الموظفون المصريون الذين تقوم بهم الدولة مرتباتهم منذ أشهر عديدة ويلح الخديوي في رفع بعض العنت عن الناس . وذلك بأن يحصل من الأوربيين على دفع بعض الضرائب التى تقع كلها على كاهل الوطنيين الفقراء وحدهم ، وأن يكف الأجانب عن استيراد البضائع المهربة التى تملأ البلاد وتباع علنا تحت أعين السلطات المصرية العاجزة عن التدخل بسبب حصانة الأمتيازات** » .

وضجت الصحف المصرية من شدة الظلم والجور .. وكتبت أحداها « مرآة الشرق » :

« لقد بلغ الأيراد العام فى آخر سنة١٨٧٧ ٩,٥٤٣,٠٠ ، ودفعت منها مصر للدائنين ٧,٤٧٣,٥٠٥ ، ولم يبق لها بعد دفع الجزية العثمانية وفوائد أسهم قناة السويس التى بيعت لانجلترا سوى ١,٧٠٠,٠٠٠ لكل نفقات الادارة » .

وقد وضح أن هذا كان معتمدا ، وحتى تصل إلى حافة الهاوية ، حيث لا يبقى مجال سوى للتدخل المباشر لأنقاذ مصر .

وقد كتب ادوارد دايسي وكان من أشهر الكتاب الاستعماريين مقالاً في « **مجلة القرن التاسع عشر** » لسان حال المحافظين البريطانيين تحت عنوان طريقنا الى الهند قال فيها « **يجب علينا أنتهاز هذه الفرصة التى لم تسنح منذ ٧٥ عاما** . **وأمكان أمتلاك مصر دون التعرض لخطر الحرب مع فرنسا المنشغلة الآن بخطر المانيا .. وأن على بريطانيا أن تضع يدها كاملة على حكومة مصر مقابل تحمل مسئولية تنفيذ تعهدات مصر نحو دائنيها واصلاح الادارة نفسها** » .

واحكاما للخطة واستطرادا لها تقرر تأليف لجنة تحقيق « دولية » عليا تدرس أحوال مصر دراسة مستفيضة وتضع حلولا نهائية وشاملة ، وصدر قرار تكوين اللجنة فى يناير سنة ١٩٧٨ وتألفت برئاسة ديلسبس وكان لها وكيلان هما رياض باشا والسير ريفرز ويلسون . وكان أعضاؤها هم الممثلين الأربعة للدول الأوربية فى صندوق الدين . أى أن كل الذين كان عليهم تقويض حكم اسماعيل وأحلامه .

وقد أعطت اللجنة نفسها حقوق السلطة العليا فوق السلطات ، وطافت بكل أرجاء مصر واستمتعت لكلي الطوائف والطبقات وبعد ثمانية أشهر أصدرت تقريرها فى أغسطس سنة١٨٧٨ .

وكان الرئيس الفعلى للجنة والذى قام بكل المهام والتوجيهات هو « السير ريفرز ويلسون » وكان محور تقرير اللجنة هو الأستيلاء على أملاك الخديوى « الواسعة » وضمها الى أملاك الدولة ثم تحديد سلطانه المطلقة بتأليف وزارة مسئولة .

ولم يخف على اسماعيل أن اللجنة أرادت تجريده من ثروته ومن سلطانه وصرح علنا « أنهم يريدون القضاء على بتجريذى من ثروتى الشخصية وطردى بعد ذلك من مصر بفرمان من الباب العالي » .



مسيو دي بلنيين





محمد رياض باشا

ولم يكن ليستطيع أن يفعل شيئا . وأعلن على الفور قبوله مبدأ تكوين وزارة مسئولة واعترف بما قالته اللجنة فى تقريرها من أساس المشكلة أن « **الحاكم الأعلى يتمتع بسلطات مطلقة وثروة فاحشة** » وكلف « نوبار باشا » وهو الذى كان وراء مشروع تأليف اللجنة والذى أصبح معروفا بأنه رجل المصالح الأجنبية والبريطانية بتأليف أول وزارة مسئولة فى مصر .

وقال اسماعيل فى بيان تكليف نوبار بالوزارة « أنى أريد أن أؤكد لك إنى وطدت العزم على التوفيق بين القواعد الإدارية فى مصر والمبادىء التى تقوم عليها الإدارات فى أوربا وأريد أن تحل مكان السلطة الشخصية التى هى مبدأ حكومة مصر الحالية سلطات أخرى تتولى إدارة الشئون العامة ولكنها تجد نقطة توازنها فى مجلس الوزراء وعلى ذلك أريد من الآن فصاعداً أن أقوم بشئون الحكم مع مجلس وزرائى وبواسطته فكل أعضاء الوزارة يجب أن يكونوا معا وأن يبتوا فى الأمور بأغلبية الأصوات بينهم » .

وكان وزير الداخلية فى الوزارة الجديدة هو رياض باشا ، الذى انحاز للأجانب ضد اسماعيل ، على أن أهم ما تميزت به الوزارة كان تعيين السير ريفروز ويلسون وزيراً للمالية وتعيين المسيو دى بلينر وزيراً للأشغال العامة « ولهذا بدت وزارة الأجانب تماماً » وكان رئيس الوزراء الفعلى هو ريفرز ويلسون ، وكان تعيين وزير انجليزى للمالية يعنى انتقال الحكم المطلق من اسماعيل الى الأجانب أو على الأصح الى السير ويلسون وزير المالية » .. وتحققت بذلك مرحلة أخرى .

ولم يمض وقت طويل حتى كشفت الوزارة الجديدة عن وجهها وأدرك الناس حقيقتها وطبيعتها .. وكتبت جريدة الوطن وكانت أكثر جرائد العصر جرأة مقالاً يعكس رد فعل الناس قائلاً :

« أمل الجميع أن تسقيهم الحكومة الجديدة من العدل شرابا ولاسيما الفلاح الذى قد زادت عليه الخطوب فى هذه السنة والتى قبلها ، غير أنه حصل فى الاسبوع الماضى مادل على أن الدهر لم يكف الفلاح العقاب فإن السير ريفرز ويلسون نشر فى هذه الأيام منشورا للمديرين الفخام والمأمورين العظام مفادة أن يحصلوا من الفلاح الأموال المتأخرة من ١٨٧٦ - ١٨٧٧ - ١٨٧٨ فإذا لم يرض الفلاح بدفع هذه الأموال المتأخرة الزموه أولا ببيع أرزاقه ومحصولاته ثم بيع مواشيه وأطيانه وجميع عقاراته بل زاد على ذلك بأن أمر باستعمال القساوة القديمة (الكرباج والفلقة) فهذا المنشور الفخيم مناف على خط مستقيم لما جاء فى التقرير الشهير ، ولوقسط المستر ويلسون متأخرات الاموال لأحسن عملا » .

لم تكن هذه سياسة اصلاح ولكن دفع الأمور حتى الهاوية . وقد أكدها أن المستر ريفرز ويلسون بدأ اصلاحاته « بالسير على خطة اسماعيل التى كان يندد بها دائما ، وعقد قرضا جديدا بضمانة املاك الخديوى مع بيت روتشيلد بمقدار ٨,٥٠٠,٠٠٠ جنيه وظلت الوسائل القديمة مستعملة فى جباية الضرائب حتى فاض البؤس والخراب بالبلاد . وكان الفلاحون يبيعون مواشيهم والنساء تبيع حليها وازدحمت المحاكم بالمرابين يقيمون دعاوى الحجز أو نزع ملكية الفلاحين » .

ولم يكن الفلاحون وحدهم هم الذين وقعت عليهم الوطأة بل « ظل الموظفون الوطنيون لا يتقاضون مرتباتهم بينما كان الدائنون يتقاضون فوائدهم وأقساطهم حتى آخر سنتيم . وكان الموظفون الأجانب فى الحكومة المصرية يتقاضون مرتباتهم بانتظام ، وكانت مرتبات ضخمة وقد كان عددهم يتزايد بكثرة واضطراد ، والحق منهم بخدمة الحكومة المصرية ما لا يقل عن ١١٩ موظف جديدا سنة١٨٧٦ ، ثم ١٢١ موظفا فى سنة١٨٧٧ ، و٢٠٨ موظفا فى سنة١٨٧٨ ، و ٢٥٠ موظفا سنة١٨٧٩ وقد بلغ عددهم ١٢٠٠ موظفا فى كل دواوين الحكومة » .

لم تكن حكومة مسئولة دستورية ولكن حكومة ما قبل الاحتلال ..

وقد تساءلت جريدة الوطن قائلة « قيل لنا أن الحكومة بعد أن كانت

أستبدادية أصبحت مقيدة بالقوانيين الشرعية وشكلت وزارة شورية وأعطيت المطبوعات قدرا من الحرية ولكن لا يمكن أن تقوم حكومة مسئولة بغير دعوة مجلس النواب للإجتماع ، وعلى قواعد جديدة حرة أوسع حرية ، لأنه لا تصير الوزارة مسئولة إلا بذلك وإلا فما معنى كون الوزراء مسئولين عن تصرفاتهم فى الحكومة وفرنسا وأرباب الديون تسأل الوزارة عن تصرفاتها » .

ودعى المجلس للإجتماع فى ٢ يناير سنة ١٨٧٩ وكان ذلك استمرارا لمجلس شورى النواب الذى أقامه اسماعيل سنة ١٨٦٦ لبداية أقامة حكومة دستورية مستنيرة على « **غرار النظم فى أوربا** » وبعد ثلاثة أسابيع عادت الوطن لتقول :

« **أن مجلس النواب الذى صار له الآن أكثر من عشرين يوما لم تعرض عليه مسألة مالية لا داخلية ولا خارجية فكيف تكون الحكومة شورية تقيدية بدون هذا المجلس** » .

□ □ □

كان التنظيم العسكرى يتابع كل ما يحدث ويرى المحنة تصل الى ذروتها ، وتتالت الاجتماعات على كل المستويات وأصبحت القضية هى مصير البلاد وانتهى التنظيم بزعامة أحمد عرابى الى أن الحل هو فى خلع اسماعيل ونهاية الاستبداد وفى أقامة جمهورية دستورية أصلاحية .. تمسك بمالية البلاد وتضع نظاما بتسديد الديون وبذلك تدفع خطر الاحتلال والأستعمار .

وبدأ تنظيـم العمـل والاستعداد من أجل هذا . واتصلوا بالفعل « بعلى باشا مبارك » ليكون رئيس الجمهورية المقبل . ولكن هذا سارع بالوشاية بهم ، وأخبار اسماعيل بأمرهم . وكان يمكن أن يكون مصيرهم النفى أو الأعدام ، لولا أن تدخل القدر . .

كان اسماعيل يتلمس أى قوة يعتمد عليها فى مواجهة الحصار (الأوربى) الذى يطبق عليه ورأى فى هذه القوة التى تريد خلعه طوق النجاة الذى يمكن أن يلجأ إليه ، وبوسائله المحنكة أستطاع أن يصل إليهم ..

وقد حدث أن قررت وزارة « الويلسون » كما كانت تسمى ، وليست وزارة نوبار أنه من باب الاقتصاد لابد من الأستغناء عن ٢٥٠٠ ضابط من الجيش ، وذلك دون دفع أى متأخر من مرتباتهم والتى لم يتقاضوها منذ خمسة عشر شهرا ، وأحدث هذا أشد الهياج بين الضباط وفى صفوق العسكرين .



وفى يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ ذهبت مظاهرة حاشدة من هؤلاء الضباط بقيادة اليوزباشى لطيف سليم ، واليوزباشى سعيد نصر الى مجلس النواب .. وألقوا خطبا حول الظلم والغبن الذى وقع عليهم ، والبؤس الذى تعيش فيه البلاد ورد عليهم بعض النواب على نفس المنوال ثم أنضم إليهم أثنا عشر نائبا ؟ وساروا فى مظاهرة صاخبة الى وزارة المالية حيث حاصروا نوبار وويلسون وأنهالوا عليهم ضربا ولكما وتعالت الهتافات بسقوط باعة البسطرمة وعملاء الأجانب والظلم والظالمين .

وجاء الخديوى على عجل وقام بنفسه بتهدئة الضباط « **وأخمد الفتنة** » .

واهتزت البلاد كلها بالحادث .. ظهر العسكريون لأول مرة على المسرح السياسى فى مصر ، وبعمل خارق الشجاعة .. أشاع روحا جديدة فى الناس جميعا .

ودعا : اسماعيل قنصلى بريطانيا وفرنسا على الفور وأعلن لهما « أنه لن يكون مسئولاً عن السكينة العامة إلا إذا أعيد له نصيبه الشرعي من حكم البلاد وصرح له أما بتراس مجلس الوزراء أو بانتخاب رئيس للوزراء يثق به ، وأنه يشترط اشتراطاً لا يقبل رفضه . أن نوبار باشا الذي ثبت له أنه يعمل عى اجتثاث سلطته ونسفها ينسحب حالاً من الوزارة .

وصرح الخديوى لأخصائه « **أنه يعرف جيدا أن نوبار كان يعمل منذ ١٨٧٦ على توطيد نفوذ انجلترا فى مصر وانه الذى مهد الطريق لبعثة « كيف » الأولى وأنه ظل يسعى فى باريس ولندن من ذلك الحين لتقويض سلطانى ، وتعيين وزير مالية انجليزى ، وأنه لم يعد الى مصر إلا مع لجنة التوفيق ولكى ينفذ خطته** » .

ولم يملك نوبار إلا أن يستقبل بل ، واقترض السير ريفرز ويلسون مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه من بيت روتشيلد دفع منها كل متأخرات الضباط « ولم يمس أحدا من الثائرين بسوء وكشفت هذه الحركة للجندية عن قوتها وصار الجيش من ذلك الوقت مع المجالس هو القوة الوطنية فى البلاد » ..

وأعيد عرابى الى خدمة الجيش مما حمل كثيرين على أتهامه فيما بعد بتدبير المظاهرة بالأتفاق مع اسماعيل ..

وتقرر تأليف الحكومة الجديدة برئاسة الأمير محمد توفيق ولى العهد ، وكان وثيق الصلة « بالوطنيين » ومن أنصار الدستورية « المتحمسين » ولكن بقى الوزيران الاجنبيان السير ريفرز ويلسونوالسير دى بيلنر ، بل وأصبح لهما حق الفيتو على أى قرار يتخذه مجلس الوزراء .. وكان ذلك هو الشرط الذى أصرت عليه بريطانيا وفرنسا مقابل إستقالة نوبار ..

ورأى ويلسون أن يضرب ضربته الأخيرة فوضع مشروعا بإعلان إفلاس مصر .. وهو نفس الأمر الذى أقترحه اسماعيل من قبل فهدد بالعزل ، وكان المشروع يتضمن أيضا الغاء دين المقابلة نهائيا ، وجعل فوائد الدين عامة ٥٪ ..

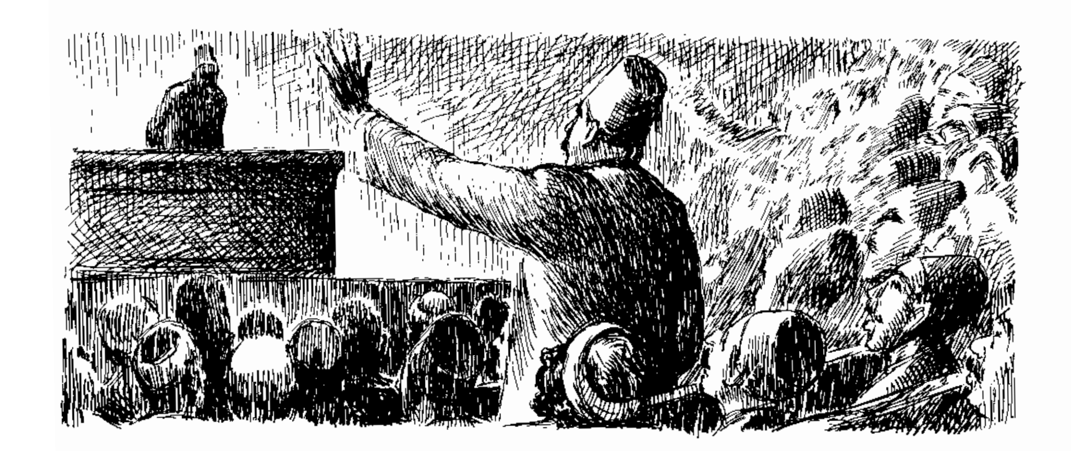
وإعلان الإفلاس ، كان يعنى ذريعة للتدخل المباشر الكامل والأستيلاء على كل مالية مصر .

وإستفز مشروع السير ويلسون البلاد قاطبة « ورأى المصريون أن أشهار إفلاس مصر بعد أن حكمتها الإدارة الأوربية والتفكير فى إتخاذ بعض الإجراءات الحازمة التى كان ينادى بها اسماعيل والمصريون منذ أكثر من ثلاثة أعوام نكبت فيها البلاد بالدين والخراب معناها أن الاوربيين يستحيل عليهم أحداث أصلاحات جدية وأنهم لا يفكرون إلا فى مصالحهم المالية والسياسية .. وعلى ذلك أخذ أولو الرأى والسعة منهم يباشرون تنظيم خطة وضمانة ينقلون بموجبها لأصحاب الدين المصرى بإبقاء الديون بأوقاتها وقيمتها الأصلية .. ودون إعلان إفلاس أو دون أن يصير تخفيضها إلى خمسة فى المائة كما ذهب حضرة المستر ويلسون وذلك على أن تكف الأصابع الأوربية على التدخل فى إدارة القطر المالية والسياسية »..

وكان أنضمام الخديوى الى الحركة الوطنية أحد المعالم الفاصلة فى تاريخ مصر وتطور الاحداث ، وأصبحت مصر كلها بأغلبيتها ومن الحاكم الأعلى حتى الفلاحين فى صف واحد ضد الأجانب وعملائهم .. وسرت قوة جارفة الحماس فى كل أرجاء البلاد ..

وفى أول إبريل ذهب رياض باشا وزير الداخلية الى مجلس النواب لكى يحله بحجة أنتهاء دور أنعقاده ولكنه « **لقى فى المجلس مظاهرة غير منتظرة .. فقد قام حزب وطنى جديد عدو لكل سلطة من الخارج ويرفع شعارا هو مصر للمصريين ، ولم يعد مجلس النواب موضع سخرية وأحتقار كما كان بل أثبت أعضاؤه أنهم أصحاب جاه وأستقلال .. وذلك المرة بعد المرة وخاصة منذ أنعقاده الأخير .. وقد وجه رياض خطابا رقيق العبارة الى الأعضاء يشكرهم على ما أدوه من خدمات وعلى أن واجباتهم قد أديت على أكمل وجه ، ولكنه لم ينجح فى تمثيل دور اوليفر كرومويل فى فض المجلس لأن المجلس رفض أقتراحه بإنهاء الدورة وقام زعيم المعارضة عبد السلام المويلحى وصرح باسم البرلمان بأن الأعضاء لم يفعلوا شيئاً وأن مهمتهم الأساسية هى الإشراف على أعمال الوزارة ولاتزال هذه قائمة وهذا ما يدعوهم للبقاء وقد أبده زملاؤه بالاجماع والتفوا حوله ألتفاف النواب حول ميرابو فى فرساى ابان الحادثة المشهورة وظل البرلمان يعقد جلساته ، وأعلن أن جميع الوزراء مصريين وأجانب يجب أن يخضعوا لإرادته ورقابته وأن يكونوا مسئولين أمامه عن أعمالهم والحقيقة أنهم يريدون تحويل هذه الحكومة المسئولة شكلا الى حكومة مسئولة فعلا** »..

وذلك كما كتبت جريدة التايمس فى رسالة مشهورة..



وخرج رياض باشا من مجلس النواب ليعرض الأمر على الخديوى ولكن النواب أعدوا مذكرة جاء فيها « **أنهم لم يشتغلوا لغاية الآن إلا بأمور جزئية وأنهم لم يسنوا لأنفسهم قانوناً جديداً ليكون للمجلس آلة قوية فى الاصلاح كما حصل فى أمارة البلغار وطلبوا أطلاق حرية المطبوعات الأهلية وسن قانون لها وإجراء الضرائب على الأوربيين كغيرهم من الوطنيين** ».

وكانت البلاد من أقصاها الى أقصاها تغلى وتفور ، وتعقد الإجتماعات فى كل مكان ومن كل الطوائف والطبقات من العسكريين أو السياسين أو العلماء أو الرؤساء الروحانيين أو التجار .. وكان بيت نقيب الأشراف الشيخ على البكرى هو المطاف الأخير لكل أصحاب الشأن والرأى..

وفى ٥ أبريل سنة ١٨٧٩ عقد أكبر إجتماع وطنى شهدته مصر حتى ذلك الحين ، فى دار الشيخ وشهده ممثلو كل الطبقات والفئات من الذوات والأعيان والعلماء والرؤساء الروحانيين من الأقباط واليهود ، وأعضاء مجلس شورى النواب ، والعسكريين وكبار الموظفين وكان على رأس هؤلاء شريف باشا وشاهين باشا ورشيد باشا وراتب باشا وعرابى باشا ، والشيخ البكرى والشيخ العدوى وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود وتليت على الجميع خطة مالية تعترف بالديون وتريد تسويتها وترفض خطة ويلسون الرامية لإعلان إفلاس مصر وإلغاء دين المقابلة ثم وضع مصر كلها تحت السيطرة المالية والسياسة للأجانب..

كما أعلن عن جمع مبلغ ١,١٠٠,٠٠٠ جنيه هو قسط مابو من الديون والفوائد بواقع ٥ ٪ وذلك تبرعا منهم للحكومة .. وتليت وثيقة سياسية تطالب بحياة دستورية كاملة وذلك بإصدار دستور جديد وتكوين وزارة وطنية بحته ليس فيها وزراء أجانب ، ومجلس نواب يقوم باعداد دستور وقانون إنتخاب جديد بدلا من القديم .. ويبدأ ذلك بإقالة الوزارة القائمة بوزارئها الأوربيين والعودة الى نظام المراقبة الثنائية القديمة فى حدود محدودة.

وتلقف الخديوى البيان ، الذى أعاد لمصر هيبتها وأعتبارها ، وأعلن لكل هيئات الأمة المختلفة أنه يوافق على مشروعها ، وأنه يرفض أى فكرة تريد العودة الى نظام الحكومة الشخصية ويطلب من أوربا أوسع رقابة ممكنة على الإدارة المالية ولكن بلا سيطرة أو تدخل ، وهو يريد أن يحكم بواسطة مجلس وزراء مسئول حقا أمام مجلس النواب ..

وفى يوم ٧ ابريل سنة ١٧٨٩ دعا الخديوى كل قناصل الدول الى أجتماع فى

قصر عابدين شهده كل أصحاب بيان ٥ ابريل وأعلن الخديوى فى لهجة واثقة متحدية :

أن الأستياء فى القطر بلغ حد أصبح معه يرى نفسه مضطرا إلى إتخاذ إجراءات حاسمة ، وأن الأهالى جميعا يحتجون على ما يريد ويلسون أعلانه من أن البلد مفلس ويطلبون تشكيل وزارة مصرية محصنة تكون مسئولة أمام مجلس نواب منتخب بحسب لائحة جديدة وأنه يرى أجابة لطلبهم أن يكلف شريف باشا بتشكيلها وقد قدم البرنس توفيق بالفعل أستقالته ..

ووقف شريف باشا بعد الخديوى وأعلن « **أن الأمة تعتقد أن سلوك الوزارة كان مهينا لنوابها ، وأن اعلان إفلاسها يلبسها عارا لن تمحوه الأيام وأن الرغبة فى إلغاء قانون المقابلة قد أثار أستياء عاما وأنه أصبح يستحيل على الخديوى مقاومة إدارة الأمة الظاهرة بهذه الكيفية الصريحة** » ..

وخرج القناصل وكأن على رؤسهم الطير .. وأعلنوا أن ما حصل « أنقلاب » ولا يمكن أن يمر أنه يعنى الأطاحة بكل ما دبروه وما أعدوه فى الماضى وما لازال بعد للمستقبل ولم يكن قنصل بريطانيا - عميدهم - موجودا وكان فى بريطانيا وصدرت له الأوامر بالعودة فورا لتصحيح الأوضاع .. وأنهمك فى رد الضربة القاضية التى وجهت له ولكن كان الوقت متأخرا .. وكتبت التايمس تقول :

« **أن الحرب الوطنى الذى أستولى على السلطة بإنقلاب ٧ ابريل قد فاجأ الجميع بقوته وفى البداية أعتقد الناس أن أيامه معدودة ولكن حينما أستطاع فى سرعة مذهلة أن يجمع الأموال لكى يسدد قسط مايو أخذ الناس يشعرون نحوه بإعجاب وإحترام وقد قبل أن عودة القنصل لورد فيفيان سوف تعنى سقوطه لا محالة . ولكن هاهو القنصل هنا منذ أسبوعين ، وقد حاول المستحيل لكى يضع السلطة الوطنية تحت الإدارة الأوربية . وأنضمت إليه فرنسا بقنصلها فى خذه الصدد ولكن أصمت مصر « الوطنية أذنها** ».

وقد تركزت كل مطالب الدولتين حول اعادة الوزيرين الأوربيين .

وعلقت جريدة مرآة الشرق على ذلك قائلة « أننا ندهش حقا من مسلك بريطانيا نحو مصر وعلى إصرارها المتزايد على فرض إرادتها السياسية وتحويلها مسألة مالية بحته إلى مسألة سياسية . لقد ذهب قنصلها العام إلى

الخديوى لكى يؤكد له ضرورة وجود وزيرين أوربيين فى حكم البلاد ولكن رد عليه الخديوى أنه لا يمكن أن يذهب ضد إرادة البلاد وذهب إلى الشيخ البكرى ولكن رد عليه الشيخ البكرى بأن مصر قد شارفت على الغرق وأنها عزمت على أن تنقذ نفسها وأن تخلص اقتصادها من براثن الأجانب ، وأن تؤكد أستقلالها وحريتها ، وأعلن له أن أوربا لا تملك إلا إن تطالبنا بتنفيذ إلتزاماتنا نحوها وهذا كل ما لها ».

ولم تبال الوزارة الجديدة . بالسعى المحموم لقناصل الدول خاصة القنصل البريطانى والفرنسى ، وأنهمكت فى العمل وفى تنفيذ ما أتفق عليه .

وأعلنت الوزارة « **أنها مصممة على بذل أقصى الجهد فى تحسين أحوال البلاد وأن التجارب قد دلت على أن وجود العنصر الأجنبى فى وزارة مصرية لا يتفق والشعور الوطنى بحال من الأحوال ويعتبر سابقة من أخطر السوابق لا يصح الرجوع إليها . وقد جرى الوزيران الاوربيان على خطة الأزدارء إزاء السلطة الشرعية وخاصة أزاء مجلس النواب ، وانتهى المستر ويلسون إلى طلب إعلان إفلاس مصر وإلغاء ديون المقابلة بجرة قلم ليضيع ٤٠٠ مليون فرنك على دافعى الضرائب المصرية** ».

وركزت الوزارة الوطنية كل جهدها على مشروعين أساسيين هما أصدار الدستور وقانون الأنتخاب الجديد ثم زيادة الجيش الى ٦٠,٠٠٠ وأقامة السياج السياسى واتلعسكرى لا ستقلال البلاد .

وقدمت الحكومة مشروع الدستور وقانون الانتخاب الجديد الى المجلس فى ١٧ مايو سنة١٨٧٩ ، وقرر المجلس أحالته الى لجنة برئاسة عبد السلام بك المويلبحى لدراسته وإعادة عرضه على المجلس وتم ذلك بعد التعديلات التى أقرتها اللجنة وقرر المجلس الموافقة عليه بالأجماع فى جلسة ٨ يونية سنة ١٨٧٩ ، حيث صدر أول دستور مصرى .. منبثقا من ارادة شعبية ديمقراطية وربما لأول مرة فى الشرق.

وكتبت جريدة مرآة الشرق تعليقـاً على صدوره « **هذه وثائق محتوية على أحسن قواعد الشورى وأحكم أسس الحرية** ».

ونشرت جريدة الوطن نص الدستور الجديد وقانون الإنتخابات « **وأهم مواده المادة ١٥ وهى تقرر الحصانة النيابية والمادة ٢٧ وتنص على عدم تنفيذ**

القوانين واللوائح ما لم يصدق عليها مجلس النواب والمادة ٣٤ تحدد عدد النواب ١٢٠ بما فيهم نواب السودان . والمادة ٣٦ تقرر المسئولية الوزارية وتدعوا مجلس النظار الى المبادرة بوضع قانون لمحاكمة النظار عند الأقتضاء والمادة ٤٥ حق النواب فى أقرار الميزانية والتصديق على الضرائب ».

وبدأ الإستعداد للإنتخابات التى ستجرى بموجب الدستور الجديد . واتفاق على موعدها ولكن وسط البشر والتفاؤل الذى كان يعم البلاد جاءت برقية من السلطان فى ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ تطلب إلى الخديوى التنازل والإعتزال وتسليم الحكم الى الأمير محمد توفيق ».

وكتبت جريدة مرآة الشرق تفسر ماحدث :

« لقد مهد فتح قناة السويس طريقا قويما للدول الأوربية تسلك فيه الى البلاد الأفريقية وكان ذلك أقوى منبه لأفكارها ومحرك لهمسها إلى التطلع لتملك تلك الأقطار . وأنهم يعلمون أن القطر المصرى ووادى النيل هو السبيل الوحيد للتغلغل فى كبد تلك البلاد فلو قامت فيه حكومة أهلية قوية وضعف فيه نفوذها الكلمة الأجنبية لتعسر عليهم حينئذ نيل هذا المقصد الذى لا يزال نصب أعينهم جميعا بل ربما ما تهم أهل البلاد المصرية إلى نيله ومن ثم رأت الدول أن لا فائدة فى اللجاج فإن ذلك يمكن الحرب الوطنى من إجراءات الاصلاحات فى البلاد ولم شملها فعمدوا إلى الإتفاق على معارضة مشروعنا ومقاومة أستقلالنا ».

وقد كتبت الجريدة ذلك قبل عزل الخديوى بأسبوعين وكأنها تتنبأ بالأحداث ..

وانتهى عصر حافل بالمجد والمأساة ، وذهب آخر الثلاثة العظام من أسرة محمد على ومهما كانت رذائله ومباذلة وهى كثيرة إلا أنه بدأ حياته وطنيا وأراد أن يعبد بناء مصر .. وقد قيل أن اسماعيل كان ميكافيليا وأنه أنضم للوطنيين من أجل سلطته وبعد أن لفظته أوربا « **ولكن قال كرومر فيما بعد « لقد فقد اسماعيل العرش لأنه لم يدرك ولم يقبل حقيقة أن السلطة كانت قد انتقلت إلينا بالفعل** » .



المواجهـــــة

تقرر الاستيلاء على مصر وضمها إلى الامبراطورية البريطانية سنة ١٧٦٣ ، بعد عقد « معاهدة باريس » بين فرنسا وبريطانيا ، وكانت المعاهدة التى حسمت النزاع الطويل الذى امتد منذ بداية الاكتشافات الجغرافية الكبرى حول الهند ، واشتركت فيه كل دول أوربا الاستعمارية وبدأ به عصر الرأسمالية والاستعمار .

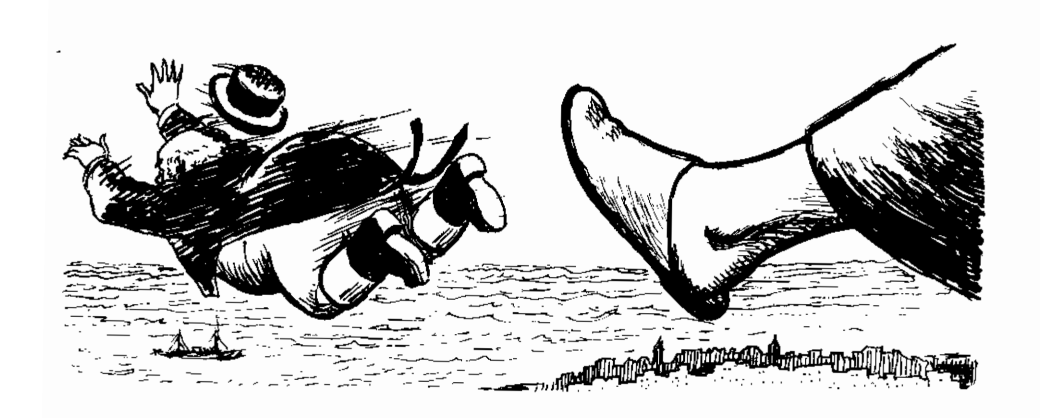
وانتهت المعركة إلى سلسلة من الحروب الضارية بين بريطانية وفرنسا فى شبه القارة الهندية ـ وانتهت بانتصار شركة الهند الشرقية لحساب التاج البريطانى .. وصدقت فرنسا على هذا فى « **معاهدة باريس** » بعد أن تخلت لها بريطانية عن بعض الجزر « الهندية » الصغيرة على سبيل التذكار .

وكانت مصر محطة رئيسية إن لم تكن المحطة الرئيسية على الطريق إلى الهند وكانت كل المحطات على هذا الطريق سواء الكبيرة أو الصغيرة لابد وأن تقع تحت السيطرة البريطانية تأميناً لدرة التاج البريطانى .. وكانت مصر قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، تتحكم فى الطريق الرئيسى إلى الهند و « الشرق » ولهذا كان من الضرورى الاستيلاء .

وقررت فرنسا أيضاً وفى نفس التاريخ ، ضرورة الاستيلاء على مصر ، وما دامت قد فقدت الهند ، وأحلام التوسع فى الشرق الأقصى ، فلابد وأن تستولى على مصر وأن تبنى حولها امبراطورية فرنسية فى الشرق الأدنى وبذلك توجد دائما على الطريق إلى الهند وإلى الشرق عامة ، وتواجه بريطانيا من مركز قـــوة .

وتأجلت المشاريع لأن مصر كانت فى تلك الفترة مسرحا لحركة استقلالية كبرى ، استطاعت أن تقيم دولة كبيرة من مصر والحجاز وسوريا ، بقيادة على بك الكبير .. وكانت ذروة سلسلة من الانتفاضات وحركات ٣التمرد التى حفل بها العصر العثمانى فى مصر ، ولهذا جاءت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون إلى مصر بعد بعض الوقت تحقيقا لهذا الهدف ، وارادت حكومة « الادارة » فى فرنسا أن تبعث حملة لضرب بريطانيا مباشرة ولكن عدلت رأيها وتقرر ايفاد حملة إلى الشرق وإلى مصر .

وقد أراد نابليون أن يجعل من مصر مركزا لامبراطورية فرنسية جديدة فى الشرق ، ترث الامبراطورية العثمانية وتحسم قصة الصراع حولها ، ثم تمتد



وتسترد الامبراطورية الفرنسية التى « ضاعت » فى الهند .

وقد عبأت بريطانيا كل قواها ، وسلاحها الرئيس وهو الاسطول لتعقب نابليون والقضاء عليه ، وبدأ ذلك بالضربة القاسية فى معركة أبو قير سنة ١٧٩٩ والتى أجهزت على الاسطول .. الفرنسى نهائيا ، ثم أتبعت ذلك بتعبئة أوربا والدولة العثمانية فى مواجهة لم تنته إلا بجلاء القوات الفرنسية عن مصر سنة ١٨٠١

وبعد خروج فرنسا من مصر كانت الخطط البريطانية جاهزة معدة لكى تحل بريطانيا وتملأ « الفراغ » وقد اصطحبت المراكب البريطانية « محمد بك الالفى » زعيم المماليك لزيارة طويلة إلى بريطانيا عقدت خلالها الاتفاقات لكى يحكم مصر فى ظل حماية بريطانيا ولحسابها وسوف يجد المماليك الذين هزمتهم فرنسا وقهرتهم الدولة العثمانية من قبل منقذا وحاميا جديدا فى بريطانيا .

وفوجئت بريطانيا بأحداث جسيمة كبيرة لم تخطر ببال أحد .. و« نابليون » آخر يحرج هذه المرة من مصر ، ويقلب رأسا على عقب كل « الاستراتيچية » البريطانية بل ويصبح خطرا مباشرا وأشد وطأة .

وقد ارادت بريطانيا وفق قاعدة بريطانية استعمارية أن تقضى على الخطر « فى المهد » وقبل أن يستفحل وسيرت حملة عسكرية كاملة بقيادة « الجنرال فريزر » لكى تحتل مصر وتطيح بالمغامر الجديد « محمد على » .

وفوجئت بريطانيا بهزيمة حملة « بريطانية » امام جموع مدينة صغيرة فى ولاية عثمانية . وباضطرارها إلى الانسحاب وفشل أكثر مهانة من الفشل الفرنسى .

وقد استوعب محمد على « **الحلم الفرنسى** » والاستراتيچية « **البريطانية** » وسخرهما لصالح مصر ، واقتبس أسرار « القوة » الأوروبية ليعيد بناء مصر ، ولأن تكون قاعدة لدولة كبرى ، وأن ترث الامبراطورية وتحمى « الشرق » .


الخديو عباس الأول


الخديو سعيد

وشنت بريطانيا على محمد على معركة طويلة المدي ـ واعتبرته العدو الأول وبنى رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون ، مجده أو القدر الأكبر منه على الاطاحة بمحمد على واعادة مصر إلى الحظيرة العثمانية . وأرسى القاعدة التى لا زالت قائمة إلى الآن « **أن قيام مصر قوية تكون قاعدة لدولة عربية هو أكبر خطر يهدد المصالح الأوروبية** » .

وأستطاع بالمرستون أن يوحد أوروبا لأول وآخر مرة فى تاريخها أمام خطر مشترك هو « **الخطر المصرى** » حتى قضى عليه ، ورضخ محمد على وتنفس الجميع الصعداء .

وبدت « **المسألة المصرية** » وكأنها انتهت واستطاعت بريطانيا أن ترهب الوالى الجديد وأن تغريه وأن تحصل منه على أهم امتياز حصلت عليه وهو مد خط السكك الحديدية من الاسكندرية إلى القاهرة .. ثم إلى السويس وأن يكون بداية سيطرة شركة الهند الشرقية على مصر .. والطريق إلى الهند ..

ولم يقدر للوالى « عباس الأول » أن يستمر طويلا ، وأن يمكن للوجود البريطانى فقد أغتيل وتولى وال آخر مختلف تماماً .

وكان الوالى الجديد « سعيد باشا » يؤمن مثل أبيه أن العدو التقليدى والتاريخى هو بريطانيا وان السياسة الأفضل هى التحالف مع فرنسا لمواجهته ، ولضمان استقلال مصر .. وكانت تربيته وثقافته فرنسية تؤكد ميله إلى فرنسا ، وقد استطاعت هذه أن تحصل من الوالى على الامتياز الكبير « **المضاد** » وهو حفر قناة السويس .. والذى تركزت حوله أهم مشاريع فرنسا ومطامعها فى الشرق بعد حملة نابليون .

واستفز الأمر بريطانيا وثار صراع مرير بين الدولتين حول المشروع ، واستماتت

بريطانيا لكي تعرقله ، ثم تحولت إلى ضرورة الاستيلاء عليه وعلى مصر عامة أصبح ذلك حتمية « **استراتيچية** » .

وتولت الدولتان كل منهما عبر طريقها الخاص ولحسابها ـ تحطيم احلام ـ « الوالى » الطيب القلب . ودفعه إلى الفساد والانحلال ، ولكن أسوأ ما قامتا به كان فتح وتوسيع الثغرة التى قضت فيما بعد على كل شيء وهى الغزو الاقتصادى عن طريق الديون .

وجينما توفى الوالى يائسا مرهقا كانت مصر ميدانا لصراع يبلغ ذروته بين بريطانيا وفرنسا لا بد وأن ينتهى لصالح احداهما وكانت بريطانيا هى الأقدر . وقد استطاعت أن تجند وتشترى أهم شخصية بعد الوالى وهو الوزير « نوبار » باشـــا .

وتولى العرش اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على وكانت هذه الحقيقة مائلة امامه وتسيطر على خياله وتدفعه إلى ثقة زائدة ، وطموح فى أن يصد التدهور بل وأن يعيد المجد السالف فى صورة أكثر تقدما .

كان يريد أن يحقق استقلال مصر بأن يشترى آخر القيود من تركيا ، وكان كل شيء يباع ويشترى فى الدولة العلية ، ثم أن يقيم علاقة متكافئة ، حضارية مع أوروبا ، وأن يجعل مصر قاعدة لدولة افريقية كبرى .. تضيف إلى« **مدنية** » العصر ولا تثير صراعاته .

وأثارت أحلام اسماعيل وطموحه كل المخاوف التى اثارها ذات يوم جده محمد على وأبوه ابراهيم وكانت أوروبا قد اصبحت أكثر من أى حقبة أخرى تعنى الرأسمالية والامبريالية وليست النهضة أو الاصلاح أو الثورة أو « **المدنية الحديثة** » وكانت بريطانيا تتعجل الوقت للاستئثار بمصر ، بعد أن اشتد الصراع واحتدم حتى الذروة حول اقتسام العالم .

واحتاج اسماعيل إلى طريق جديد لمواجهته أو هو لم يقدم ذريعة للقضاء عليه بالسيف ، كما فعل جده وأبوه ولكنه قدم كل الذرائع لتحطيمه بسلاح لا يقل فتكا وهو « **القروض** » ..

وقد غمرته بيوت المال البريطانية والاوروبية بالقروض ليحقق طموحه ، ثم أغرقته فى دوامتها ووقفت حجر عثرة أمام أى محاولة لاصلاح حقيقى ، أو « **خطة وطنية** » لسداد الديون وفرض حصار محكم على اسماعيل من « القنصل »

والمرابى والمغامر والمراسل والقواد » كما قال هو نفسه ذات يوم بمرارة ، وشوهت صورته فى العالم كمقدمة لتصفيته .

وحينما تمرد اسماعيل ، وتحدى أوروبا وعلى رأسها بريطانيا ، وانضم للوطنيين كان جزاؤه العـــزل .

واستجاب السلطان لطلب بريطانيا وفرنسا بعزل وال أراد الوقوف فى وجه الكارثة .

وبعزل اسماعيل ، بدا الجو وكأنه خلا تماما لبريطانيا ، ولم تبق سوى خطوة واحدة قصيرة وينتهى كل شىء وتصبح مصر محمية إن لم تكن مستعمرة بريطانية .

« وكانت مصر منذ انشاء صندوق الدين والمراقبة الثنائية سنة ١٨٧٦ خاضعة فعلا للحكم الأجنبى .. كان السودان وافريقيا الوسطى أى نصف الدولة تحت حكم ضابط انجليزى هو جوردون ، وكان النصف الآخر فى الشمال تحت اشراف طائفة من الموظفين الأجانب يقررون كل شىء » وبهذا لم تعد هناك عقبة امام تكريس ذلك الواقع والتصديق عليه .

وحينما وقع السلطان مراسيم عزل اسماعيل ، أشار عليـه بعض « المصلحين »ب١ **إن يعيد نظام وراثة العرش فى مصر إلى ما كان عليه قبل اسماعيل . وأن يتولى أكبر الاعضاء سنا . وليس النجل الأكبر للخديوى .**

وكان الاصلاحيون العثمانيون يرمون من وراء هذا إلى أن يتولى « الأمير حليم » العرش بدلا من الأمير محمد توفيق . وكان الأول معروفا بعدائه للأجانب ، وبقوة شخصيته وحكمته وهو قد انضم للعرابيين فى نهاية الأمر ، ولكن تشبثت الدولتان باستمرار النظام حفظا « لحرمة الفرمانات السلطانية » وأصرنا على تولى الأمير محمد توفيق بدلا من أبيه . وكان معدا من قبل لهذا الدور .



الخديو توفيق

وبولاية محمد توفيق ، وذهاب اسماعيل لم يعد الأمر يعنى أكثر من تصفية حفنة من السياسيين والعسكريين « **المشاغبين** » هم آخر من يقف بين بريطانيا وبين ضم جوهرة للتاج طال انتظارها وتجاوز كل حدود الصبر .

كان آخر ما تتوقعه أو تتصوره بريطانيا أن لا يمضى عامان على ولاية توفيق حتى تنفجر ثورة وطنية شعبية تمتد من الأمراء والباشوات حتى الفلاحين وتطيح بكل الخطط المقررة والموضوعة .

كانت أول ثورة وطنية ديمقراطية شعبية فى الشرق حتى ذلك التاريخ .

كانت مواجهة بين ثورة « تحرير وطنية » وبين الاستعمار فى ذروة عصر « الامبريالية » والسيادة الأوروبية . ولهذا لم يكن ممكنا قط السماح لها ـ مهما يكن وعيها أو بسالتها ـ أن تنتصر .

كانت سابقة خطيرة .. بل أخطر السوابق فى عالم تم قهره وكانت مأساة تونس على الحدود لا تزال ماثلة ولم تجف دماؤها بعد وقد امتدت أصداء الثورة شرقا حتى الهند حيث استبشرت الجموع بقيام زعيم عربى ثورى فى مصر ، يرمى القفاز فى وجه بريطانيا « **العظمى** » .

ومنذ اليوم التاريخى المشهور فى ميدان عابدين بدأ العمل فوراً ، لحصار الثورة وتصفيتها .

ولم يكن التسليم بمطالب الثوار « **كاملة** » أكثر من انسحاب مؤقت أمام حدث مفاجىء « جــارف » .

وقد أرسل الخديو فى نفس اليوم وبعد انتهاء المواجهة رسالة مطولة وعاجلة إلى السلطان العثمانى ، وطلب إليه أن يرسل إليه قوة تركية كبيرة ليستطيع القضاء على هؤلاء العصاة وذلك لأنه لم يعد يطمئن إلى ولاء الجيش المصرى الذين يسيطرون عليه ، وحفز السلطان على ذلك ، بأن العصاة متمردون على الدولة العثمانية ، وأنهم يريدون طرد « العنصر التركى » من مصر ، ويريدون تغلب

العنصر العربى وأثار الشبح الذى كان يزعج سلاطين الآستانة منذ عصر محمد على ، فأكد له أنهم يرمون فى النهاية إلى اقامة امبراطورية عربية تستقل عن الدولة .

وفى نفس اليوم أيضـا ، أرسل القنصل البريطاني إلى حكومته وصفا لأحداث اليوم المخيفة وأن قوة جديدة انبثقت فى مصر وتثير أشـد القلق وذلك لأنهم « **لا يستطيعون تغيير وزير أو تغيير حكومة فحسب ، ولكن أن يستولوا على السلطة كاملة لو أرادوا** » .

وكان هذا تحذيراً واخطاراً للاستعداد لمواجهة موقف عصيب وبدأت بهذا تعبئة قوى « **الثورة المضادة** » داخل مصر .. وتعبئة الرأى العام الأوروبى ضد أحداث مصر .

ولكن تكونت الحكومة الجديدة التى فرضها« **الثوار** » فى هذه الظروف ، ولم يكن « شريف باشـا » رئيسها من أنصار العرابيين المقربين أو وثيق الصلة بهم ، وكانت علاقاته بعرابى قليلة ، ولكن صورته وشهرته بالنزاهة ولقبه « **بطل الوطنية والدستور** » ودوره فى تأليف الحزب الوطنى دفعهم إلى اختياره والاصرار عليه .

وكان شريف باشا فى الحقيقة من الاصلاحيين « المعتدلين » وممن فاجأتهم الثورة وذهبت إلى أبعد بكثير من مطالبهم أو معتقداتهم ، وقد تردد كثيراً فى قبول الوزراء وذلك خوفا من مطالب العسكريين أو ضغطهم كما قال . ولكن « **قدمت إليه التراجى من كل اعضاء مجلس النواب ومن نحو ألفين من العمد يلحون عليه فى قبول رئاسة الحكومة ، كما قدمت إليه عرائض مذيلة بأكثر من أربعة آلاف ختم من الأعيان برجاء قبول الوزارة وانقاذ البلاد ، من رق العبودية وإصلاح أحوال الحكومة وفى النهاية قدم العسكريون عريضة موقعة باختامهم تعهدوا فيها بالامتثال لأوامر الحكومة وأكدوا ثقتهم فى شريف باشا وأن الجيش هو القوة المنفذة لما يصدر من أوامر لخير الوطـن** » .

وأعلن عرابى باشا ورفاقه أنه بمجرد تشكيل الوزارة وإعلان موعد اجراء الانتخابات يقومون بتنفيذ أوامر النقل التى صدرت إليهم من وزير الحربية السابق داود يكن ، إلى خارج القاهرة .. وأن عبد العال حلمى وفرقته سوف يذهبون إلى دمياط وسوف يرحل عرابى إلى رأس الوادى فى الشرقية وصرح عرابى .. « **وافقنا على ذلك تهدئة للخواطر وتمكينا للقلوب** » .

ومن الناحية الأخرى ألح القنصلان البريطانى والفرنسى على شريف بالقبول حتى لا يقوم بديل أشد خطراً « **للوقوف أمام أى كوارث يمكن أن تتعرض لها مصر » يتولى العسكريون أنفسهم السلطة مباشرة** !

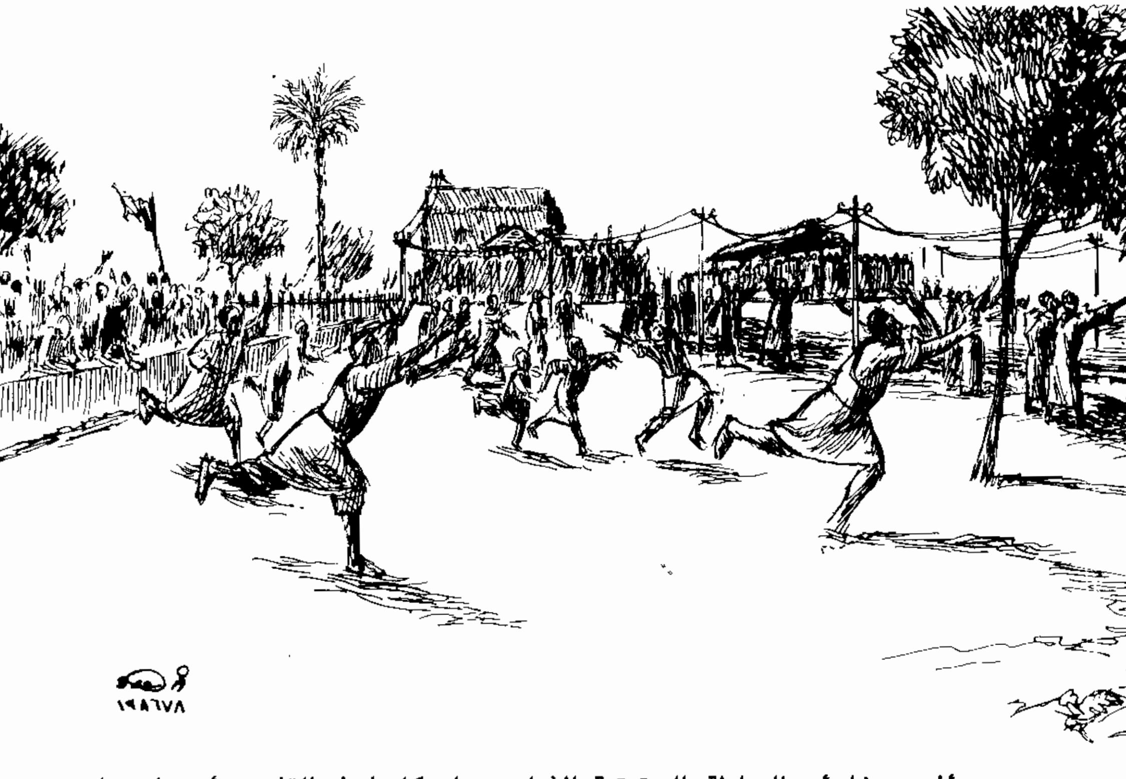
وقد قبل شريف فى النهاية بعد كل هذا « التدلل » ولكنه كشف عن الثغرة التى أدت بعدئذ إلى شق صفوف الثورة ، والايقاع بين الاصلاحيين المعتدلين من السياسيين وبين العسكريين الثوريين ..

وقد عمل شريف منذ اللحظة الأولى على حصار نفوذهم وعلى ابعادهم عن السياسة وأعلن صراحة للقنصل البريطانى ماليت « أنه ينوى دعوة البرلمان عاجلا للاجتماع وذلك حتى يصبح شيئا فشيئا السلطة الحقيقية والممثل الشرعى لمطالب البلاد .. وبذلك يجرد الجيش من السلطة التى انتحلها لنفسه خلال الحركة الأخيرة « **وفضح شريف قابليته للتخلى عن الثورة** » .

وقد حدث خلال تنفيذ العسكريين لوعدهم بمغادرة القاهرة أن خرجت القاهرة كلها لتوديعهم .. وكان عبد العال حلمى أول من نفذ القرار « وسار على رأس فرقته عبر شوارع القاهرة ، وسط الآلاف من كل الفئات والطبقات تهتف لعرابى وللجيش وللحرية ... وسط مظاهرة لم تعرف مصر لها مثيل من قبل ، وكان الحشد الأكبر فى ميدان المحطة حيث اختلط الأهالى بالجنود ، وتعاقب الخطباء من الضباط ومن المدنيين وليعلن العسكريون إن الجيش فداء الوطن والوطنيين ، ويعلن المدنيون أن الجيش أحيا روح مصر ورد الحرية والأخاء والمساواة إلى شعبها » .

وكان يوم رحيل عرابى ، عيداً قومياً خرجت مصر كلها تودع فيه البطل المنتصر والفارس الذى أنجبته مصر لينتشلها والزعيم الذى يضحى لتسعد البلاد .. وسار عرابى على رأس فرقته وسط محيط من الحماس الشعبى المتدفق حتى وصل إلى محطة القاهرة وهناك ألقى خطاباً ضافياً دعى فيه إلى الحكمة والاعتدال والتمسك بالحقوق والقانون .

وقد وقف قطار عرابى على كل المحطات بناء على الحاح الجماهير ، ولقى نفس التأييد والحماس الحار على كل محطة صغيرة وكبيرة حتى وصل إلى الزقازيق عاصمة مديرية الشرقية التى أنجبته ، وفاق اللقاء كل تصور فقد خرجت الشرقية كلها بباشواتها وأعيانها وفلاحيها لاستقبال « **البطل وأحيط بأعظم مظاهر التكريم والتمجيد** » .



وأثبت هذا أن السلطة الحقيقية للثوار سواء كانوا فى القاهرة أو خارجها ، وأمضى عرابى وقته فى الريف فى الطواف بالقرى والمدن ، ليشرح مبادى الثورة وأهدافها ومطالبها ويعبىء الجموع حوله .

ولم يستخلص « شريف » العظة الصحيحة وإن هناك قوة صاعدة وحاسمة يستطيع أن يستند إليها ولكن تغلبت « غرائز الطبقة » وازداد تزمتاً وقلقاً ..

وكان الاتفاق قد تم على أن تجرى الانتخابات فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ ، وفوجىء الجميع بأن شريف يريد اجراءها وفق قانون الانتخاب القديم الذى صدر سنة ١٨٦٦ ، والذى اصدره الخديوى اسماعيل لدى أول قيام الحكم الدستورى ، وطالب العسكريون والسياسيون معا بألا يطبق هذا القانون ، وأن يطبق آخر قانون صدر سنة ١٨٧٩ والذى اعده شريف نفسه فى آخر حكم اسماعيل ، وانتقدوا شريف نقداً شديداً . ولكنه أصر وكما قال لأحد حلفائه « أنه لا يريد التوسع فى الحرية » واشتكى الناس إلى عرابى ولكنه اعتذر بأنه تعهد بكفالة الحرية كاملة لشريف باشا .

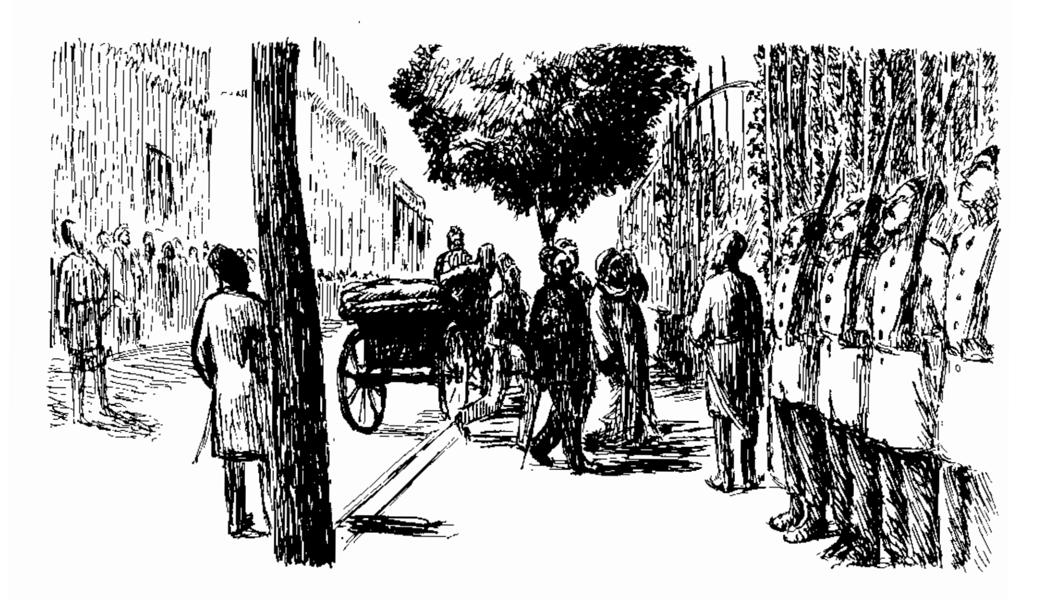
ومع هذا أجريت الانتخابات وكانت أول انتخابات حرة حرية تامة تجرى فى



مصر ، واصدرت الوزارة منشوراً وزع فى كل انحاء البلاد « يتنبه فيه على كل المديرين والمأمير بترك الانتخابات حرة تمام الحرية » وقامت الصحافة بحملة توعية واسعة النطاق ودعت الناس إلى أن لا ينتخبوا الا من عهدوا فيه الصدق وعرف فيما بينهم بالفطانة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب الوطن والبلاد « وكانت النتيجة عند حسن ظن الناس وكان النواب الجدد صفوة من أفضل أبناء الأمة وعناصرها الوطنية » وتقرر أن يفتتح البرلمان الجديد يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ .

وكان يوم الافتتاح أحد الأيام المشهورة والأحداث المثيرة التى تتابعت على مصر ، وقد بدا وكأن مصر كلها تجمعت من أدناها إلى أقصاها ، احتفالا « **بالديمقراطية** » واصطفت قوات الجيش تنظم الحشود والجموع .. ووقف محمد عبيد بطل أحداث فبراير وأحد قادة الثورة الكبار ، ومعه ضباطه وجنوده على أبواب مجلس النواب ، رمزا للعسكريين يحرسون الديمقراطية ، وتوافد النواب يفيضون بشرا وحماسا تستقبلهم الجموع بالهتاف والتصفيق ..

وقررت الجموع أن تشترك فى جلسة الافتتاح رغم أنها لم تكن علنية ، ولم يستطع الجنود أو الحراس منعهم والوقوف فى وجههم واقتحم عدد كبير منهم دار



المجلس لكى يشهدوا الحدث الأول من نوعه ، وانعقاد برلمان انتخب بحرية تامة ليعبر عنهم تعبيراً صحيحاً ، بأرقى موازين العصر .

ولم يستمر التفاؤل طـــويلاً .

وتقدم شريف باشا إلى المجلس فى يناير سنة ١٨٨٢ بمشروع الدستور الجديد .. والذى انتظره النواب وانتظرته البلاد قاطبة وثارت من أجله كل الأحداث الكبار ، وفوجىء النواب بدستور مبتور يحرم النواب من الحق الاساسى الذى تكفله كل الدساتير بل أول ما تكفله وهو حق مناقشة ميزانية البلاد والتصديق عليها ، وكان هذا الحق هو محور المعركة الوطنية والديمقراطية فى مصر ، ومن أجله ، اقيلت وزارة نوبار ثم وزارة توفيق ، وأقيل الوزيران الأوروبيان فى الحكومة ، وتم انقلاب ٧ ابريل سنة ١٨٩٧ آخر ما قام به اسماعيل وعزل بسببه .

وكان شريف نفسه هو الذى تولى الوزارة حينئذ ، وقام باعداد دستور يكفل للنواب هذا الحق لأنه اذا لم يكن لممثلى الشعب حق النظر فى مالية البلاد واقتصادها فماذا يبقى لهم ؟

وكانت خيبة أمل كبيرة فى بطل الوطنية والدستور ، ولم يجد ما يبرره به الا أن يعلن « **التزامنا بوجوب احترام تعهدات مصر الدولية حتى يأتى اليوم الذى نستطيع فيه أن نعيد بناء الحكومة وأن نحصل على ثقة الدول . وحتى يحين ذلك لا يكون للمجلس حق اقرار الميزانية أو سن القوانين الخاصة بمالية البلاد أو مناقشة الخراج الذى يدفع للباب العالى .. وان الحالة المالية التى**

عليها مصر قد اوجبت عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها ونشأ عن ذلك ترتيب مصالح وتعهد بالتزامات » .

وكان ذلك يعنى انزلاق شريف خطوة أبعد عن « الحلف » الوطنى .. وانحداره الذى اضطرد إلى الصف الآخر .

وقد شنت الدول خاصة بريطانيا وفرنسا ، حربا دبلوماسية و« نفسية » اشتركت فيها بنفس الحماس تركيا على المجلس الجديد قبل أن ينتخب ، وأعلنت الدول الثلاث أنها ضد توسيع اختصاص مجلس النواب الجديد ، وأن يكون له أى حق فى نظر ميزانية الدولة .

وأعلن المراقبان الماليان أن حكومتيهما سوف تقاومان أى « دستور » ينص على حق البرلمان فى نظر أو اقرار الميزانية .

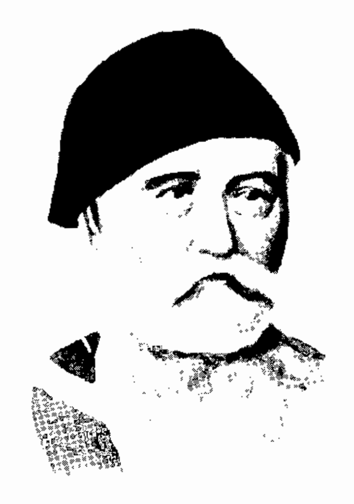
وأعلن المراقب المالى البريطانى « كولفن » بصراحة لا تحتمل الشك أن مجلس النواب المصرى عليه أن لا يمس كل ما له علاقة بالشئون المالية أو الادارات الأوروبية وذلك لأن كل ادارة منها رغما عن أى نقص فيها عبارة عن مركز اصلاح ، وهذه الادارات بعينها هى اقسام الدائرة التى تمثل الميزانية .

وقد فجع النواب وذهلوا أن يتقدم شريف بذلك الدستور ، وأن يكون هذا موقفه ، ورفضوا الدستور رفضاً باتاً .

وتكونت على الفور لجنة من النواب لتقوم بوضع مشروع دستور آخر يكفل للمجلس كل حقوقه الدستورية وأولها حق مناقشة واقرار الميزانية ، وأصدار كل القوانين المتعلقة بها ، ويلغى قوانين ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ وقانون ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ اللذان تكونت بهما المراقبة المالية الثنائية الأوربية واكتسبت امتيازاتها وحقها فى اعداد الميزانية مع مجلس الوزراء والذى انتهى إلى استئثارها بالولاية على مالية واقتصاد البلاد .

وعقد مجلس النواب اجتماعا طارئا ، أعلن فيه أعضاء المجلس بالاجماع موافقتهم على مشروع الدستور الجديد والذى قدمته اللجنة ورفض أى تعديل فيه ، وأكدوا أن التدخل الأجنبى فى موضوع الدستور هو تحد بالغ لكرامة مصر وحقوقها .

وقام شريف بمحاولة للتوفيق « وسعى لدى قنصلى بريطانيا وفرنسا بأن يكون اختصاص مجلس النواب استشاريا فيما يتعلق بالقسم الخاص بالديون وقطعيا



محمد شريف باشا





سير إدوار ماليث

فيما عدا ذلك ولكن جاء الرد من وزارة الخارجية الريطانية رأسا بالرفض البات والاصرار على تجريد المجلس من حق نظر الميزانية » .

وكانت المحاولة الأخيرة طريفة ، فقد طلب القنصل البريطانى « ماليت » والمراقب المالى البريطانى « كولفن » مـــن « ويلفريد سكاوين بلنت » صديق العرابيين الحميم اقناع النواب بأن هذه المسألة خارجة عن سلطانهم ويروى القصة قائلاً : « التقيت بهم بحضور محمد عبده ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت أنهم متشبثون برأيهم ولا جدوى .. بل وقد اقتنعت أنا نفسى ولم يسعنى إلا الاعتراف بأنهم على حق تماما فى أن تكون لهم السلطة على الميزانية وذلك ، اذا ما كان الحكم النيابى حقيقة لا زيفا » .

وعلق بريطانى آخر من الأحرار سيموركى قائلا « **إن الدولة الديمقراطية الأم .. ترغم أمة ديمقراطية ناشئة على حرمان نوابها من حقهم فى مناقشة ميزانية بلادهم .. يا له من منظر .. ويا له من موقف** » .

ولم تكترث الحكومتان لأى احتجاج أو معارضة بل وتقدم القنصلان بما يشبه الانذار .

« **إن الدولتين تريان أن المواثيق المتعلقة بالمالية لا تجيز للحكومة اعطاء مجلس النواب حق تقرير الميزانية قطعيا** » .

ورد المجلس بعنف مماثل قائلاً : « **لا حق للقنصلين فى معارضة ما هو من شئون مصرالداخلية** » .

وطلب المجلس إلى شريف أن يتقدم بالدستور الجديد للتصديق عليه ولكنه رفض الا اذا وافقت الدولتان على ذلك ..

وعقدت جلسة حاسمة بينه وبين النواب :

« قالوا له : إن التصديق على جميع بنود اللائحة « **الدستور** » **هو مما تطالبك به الأمة ومن اللازم المبادرة إلى اجابتها وأما الدولتان المذكورتان فلا داعى إلى توقفهما فى ذلك لأن هذه المسألة لا تمس مصالحهما . ونحن نتأسف اذا أحوجتنا إلى أحد سواك يصدق عليها** » ونهضوا فى الحال ، وكان ملف الدستور على المائدة أمام دولته فقال لهم « **دعوها لننظر فى أمورها** » **وقالوا** : « **لا لزوم لذلك** » **وخرجوا قاصدين المعية وقال لهم الخديوى اذا كانت الوزارة متوقفة فما العمل وقالوا تستعفي** » .

وبلغت الأزمة ذروتها حين قام القنصل الفرنسى ممثلاً لحكومتى بريطانيا وفرنسا بتسليم مذكرة إلى الخديوى تقول :

« **كلفناكم أكثر من مرة أن تخبروا الجناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومة فرنسا وانجلترا فى مساعدته ومساعدة حكومته فى التغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى ولهذا فإن الدولتين على وفاق وطيد واتحاد عام فيما يتعلق بمصر** » .

ولاسيما بعد حدوث الاحداث الأخيرة وأخصها صدور الأمر الخديوى يجمع مجلس شورى النواب مما اوجب المخابرة بين الدولتين وإعادة النظر فى شئون اتفاقهما المذكور وبناء على ذلك نرجوكم أن تصرحوا للجناب الخديوى أن حكومتى فرنسا وبريطانيا تريان وجوب تثبيته على الاريكة الخديوية وفقاً للاحكام المقررة فى الفرمانات السلطانية التى قبلتها الدولتان ، وإن الحكومتين متفقتان كل الاتفاق على منع ما من شأنه أحداث ارتبكات داخلية أو خارجية تهدد النظام القائم فى مصر ولا ريب عندهما أن هذا التصريح العلنى يمنع حدوث ما عساه قد يطرأ من الاخطار على حكومة الجناب الخديوى وأن حدث فإن الحكومتين لا تترددان فى دفعه ولا يخالجهما شك فى أن الخديوى سيجد فى هذا التصريح الثقة والقوة اللتين يحتاج إليهما فى إدارة شئون مصر وشعبها » .

ووقعت المذكرة التى اشتهرت فى تاريخ مصر باسم « مذكرة يناير المشتركة » كالصاعقة ، واستخلص الوطنيون مغزاها ـ كانت تحريضاً صريحاً للخديوى للبطش بهم وبالدستور وللعودة للحكم المطلق بتأييد الدولتين .

كانت « إعلان حرب » وتصميما على التدخل لفرض حكم اجنبى ، وأثارت

المذكرة الشعور الوطنى واستفزت البلاد جمعاء . بل واوقعت شريف نفسه فى اشد الحرج ، حتى لم يملك إلا الاحتجاج لأن « **المذكرة تعمل علانية على الايقاع بين الخديوى والنواب ، وتدعوا الحكومة إلى القضاء على سلطة المجلس النيابى وإلى العودة إلى نظام الحكم القائم على الاستبداد** » .

وقد كانت فرنسا ، ورئيس وزرائها جمبتا صاحبة المبادرة فى المذكرة .. بمباركة بريطانيا ، وكان جمبتا يهودياً استعمارياً متعصباً ، وكان وثيق الصلة « بآل روتشيلد » وهم من كبار دائنى مصر . وقد افزعت احداث ٩ سبتمبر جمبتا ، ورأى فيها بداية ثورة فى العالم الإسلامى . تهدد نفوذ اوربا واقترح القضاء عليها فوراً . بل « واعد قوة فرنسية من ستة آلاف جندى للتدخل العسكرى وقمع الحركة فى المهد ..

لم تهتز أعصاب الوطنين أو تتزعزع ارادتهم بل على العكس زادهم ذلك صلابة وإصرارا ، وأصبح الجهد كله موجها للإستعداد لمواجهة التدخل ، الذى أصبح محتوما ..

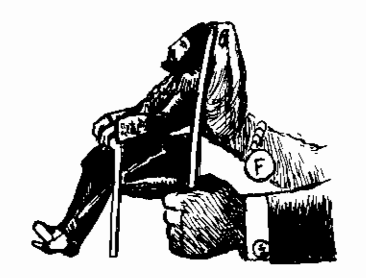
ولم يعد شريف باشا هو رجل الموقف ، ولم يكن هاك مناص من أن يستقبل .

« **وكان شريف على نزاهته ضعيف الخلق وكان من المعتدلين الذين يسلمون بالأمر الواقع ويعملون على الاستفادة منه جهد الطاقة حرصا على مصالح البلاد وقد تغير حال الثورة وبالغ فى اعتداله فالتبست مقاصده وانفصل عنه الوطنين** »

· وقد كشف شريف عن نفسه فى حديث له مع بلنت إذ قال :

« إن المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الأطفال وقد قدمت لهم الدستوروان لم يرضوا فعليهم أن يعملوا بدونه وأنا الذى خلقت الحزب الوطنى وهم لن يستطيعوا العمل بدونى . وهؤلاء الفلاحون فى حاجة دائما إلى توجيه » .

وتخلى شريف عن « الفلاحين » وعن ماض وطنى طويل .. وعبر إلى الصف الآخر وليستعملوه حينا ثم يقذفوا به كقشرة البرتقالة .. وازاء المواجهة لم يعد هناك مناص أن تتولى الثورة كل السلطة .





الصـــــــدام

جاءت وزارة محمود سامى البارودى ، بارادة الشعب ، الخالصة المطلقة .. وكانت الوزارة الأولى من نوعها فى تاريخ مصر .

وفى الاجتماع الذى عقد بين توفيق والنواب للفصل فى مصير شريف باشا سألهم الخديوى عمن يرشحونه خلفا لشريف « واختاروا جميعا من كانت العين واقعة عليه وهو محمود سامى البارودى » وكانت شخصيته وهيبته وسجله السياسى يجعل منه المرشح الأول .

وكان محمود سامى البارودى من أبناء الارستقراطية التركية الشركسية . ومن أقدم عائلاتها وأعرقها ، وكان « فارســـــا » شجاعا كما كان أديبا شاعراً ، وكان أكثر العرابيين ثقافة وعلما « كان أنبه العرابيين وأكثرهم جاها وتأدبا وأعلاهم فطنة وسياسة وأصالة رأى » ولهذا كان موضع احترام الجميع أنصاره وخصومه بل وكثير من الأوربيين ، ولم يكن يحقد عليه حقدا خاصا سوى الخديوى وحاشيته .

وكان محمود سامى البارودى جمهوريا متحمسا ، يرى أن الحل الصحيح هو الحل الحاسم أي خلع أسرة محمد على وإعلان الجمهورية ، وكان هذا رأيه منذ أنضم إلى التنظيم العسكرى فى عصر اسماعيل ولم يغيره ، وقد طالب بتنفيذه بعد أحداث ٩ سبتمبر مباشرة ، ودعا اليه فى كل الاجتماعات التى كانت تنعقد بكثرة فى « منتديات » وصالونات السياسيين والأعيان والضباط فى القاهرة ، وأكد رأيه بتصريح لأحد المراسلين قال فيه :

« منذ بداية حركتنا وهدفنا تحويل مصر إلى جمهورية صغيرة مثل سويسرة ، تقوم وتنضم إليها سوريا وتتبعها الحجاز ولكننا وجدنا بعض العلماء لم يتقبلوا ذلك لأنهم متأخرون عنا لكننا سنجعل مصر جمهورية قبل أن نموت ولنا كل الأمل فى ذلك »..

وكان حلم العرابيين « الدفين » هو جمهورية يرأسها عرابى « الفلاح » ويحكمها سامى البارودى « الارستقراطى » رمزا لوحدة الأمة وأصالة الثورة فى دولة بلا حاكم من أسرة أجنبية ولا أتراك مستوردين ولا أجانب مسيطرين وإنما حاكم فلاح عربى وحكومة قومية تمتد إلى الشام والحجاز وترفع لواء العروبة كما كانت قبل الحكم العثمانى .

وكان الخديوى يعرف مبادىء البارودى جيدا ، وكان القناصل أيضا ، على علم بها ، ولكن لم يكن لهم أى خيار .. انتقلت السلطة إلى الشعب !

وكان محمود سامى البارودى مع هذا « رجل دولة » يدرك تماما حرج الموقف وتعقيده ، وأنه يحتاج إلى الجرأة بقدر ما يحتاج الى الحكمة .. وأنه لابد من تسكين الأعداء المتربصين ، ومن تهيئة المناخ للتغيير الذى يتطلبه اعداد البلاد لكل الاحتمالات .

كان يريد أن يتجنب « الشطط » وأن يسد على الخديوى أو على القناصل أى ذريعة لدفع الأمور إلى « الهاوية »

كان يدرك أن حكومته فى سباق حاد مع الزمن ، ولابد أن يكسبه .

وقد اشترك عرابى فى وزارة البارودى كوزير « للجهادية والبحرية » وكان يفضل أن يبقى خارج الحكم ، وكرئيس للحزب الوطنى ، وزعيم للأمة ولكن ألح عليه الجميع أن يقبل المنصب وإذا كان هدف الحكومة الوطنية هو الإعداد لمواجهة التدخل المحتمل ، ولا أحد يستطيع أن يغير الجيش ويعيد بناءه وأن يصفى أوكار الفساد والتآمر فيه سوى عرابى .. الذى قبل المهمة .

وأعلنت الحكومة أن برنامجها هو برنامج الحزب الوطنى ، وأن مهمتها هى ترجمته إلى واقع .

وكان برنامج الحزب الوطنى يقضى « بأن تكون مصر للمصريين مع الحرية والسلام لكل الأجانب الذين يجب أن يخضعوا للقوانين وأن يدفعوا الضرائب وألا يكون للدول ووكلائها أي تدخل فى شئون مصر .

ويقضى « بأن تكون حكومة مصر نيابية دستورية يتولى السلطة التشريعية برلمان ينتخب على أساس الحرية وتتولى السلطة التنفيذية وزارة مسئولة مسئولية كاملة أمامه ، ويتولى العرش خديوى ، يملك ولا يحكم على غرار الدساتير الأوربية »

وبالنسبة للادارة « يجب أن يقوم نظام ادارى عادل يجعل عمد ومشايخ القرى منتخبين بمعرفة الأهالى ومن الذين اشتهروا بالعفاف وحسن المعاملة ، وأن توضع قواعد عادلة لتحصيل الضرائب وأن تلغى الضرائب الجائرة على الفقراء وأن تبطل السخرة » .

وبالنسبة للاقتصاد « أن ينشأ بنك مصرى وطنى برأسمال مصرى موزع بين الوقف والتركات وكبار الملاك . لانقاذ مصر من المرابين الذين يندفعون على الفلاحين يأكلون أكبادهم ويدفعون لهم المائة ليأخذوا المائتين فى شهور ، وأن تسدد الحكومة ديون الفلاحين وتستوفيها على أقساط مناسبة لحل المديونية »

وبالنسبة لمشكلة المشاكل وهى الديون « أن يتم توحيد ديون مصر الخارجية وأن يخفض سعر الفائدة . وذلك بدون مراقبة مالية أجنبية تحولها إلى قضية سياسية ودون موظفين أجانب فى كل وزارة يتناولون المرتبات الضخمة بلا مبرر »

وبالنسبة للسلطة القضائية « أن يصلح حال القضاء وأن تنشأ محاكم مديريات متخصصة ومحاكم أهلية خالصة ومحاكم استئناف وأن تلغى المحاكم المختلطة التى أضرت بالمصريين أكبر الضرر » .

وبالنسبة للمرافق والخدمات كان البرنامج يطالب « بأن تقوم الحكومة . وأن يبذل الأغنياء أموالهم لأنشاء المدارس وترويج العلوم وأحياء الصناعات » .

وأعلنت الحكومة أيضا عزمها على ألغاء الرقيق وكان قضية دولية كبرى أثارتها بريطانيا ثم أوروبا مجتمعه ، وكانت تخفى الذريعة للتغلغل فى أفريقيا ، وأعلنت الحكومة « **أنه ما من أحد من المصريين يرغب أن يكون له عبيد سوى أمراء الأسرة المالكة والباشوات الأغنياء وأن المبادىء الحرة للاصلاح تجعل الناس سواسية مهما اختلفت فى الجنس واللون والدين** » .

وانهمكت الحكومة وشددت التعليمات، على كل المصالح والادارات للعمل بهمة ونزاهة فى تنفيذ هذا البرنامج ..

وكانت القضية المعلقة التى تتقدم كل ما عداها والتى يدور حولها كل الصراع والخلاف هى قضية الدستور ، وحقوق النواب وأولها حق مناقشة واقرار ميزانية الدولة ، ورأت الحكومة الوطنية أنه لابد من تنازلات متبادلة ومتكافئة ، وذلك حتى لاينهار الموقف ، أو يدور فى حلقة مفرغة تنتهى بالتدخل فى لحظة غير مواتية .

وقررت الحكومة أن تطبق التسوية التى كان شريف قد اقترحها ورفضتها الدول وهى أن تقسم الميزانية إلى قسمين احدهما ميزانية مصروفات وايرادات الدولة وهذه لا تنازل فيها ، ومن حق المجلس أن يناقشها ويقرها ، والنصف الآخر هو ميزانية الديون ، ومايتعلق بها وهذه تخرج عن اختصاص المجلس .. أى « أن **تقدم ميزانية مصروفات وايرادات الحكومة السنوية للنواب وأيضا ميزانية عموم الايرادات وأن ترسل الميزانية إلى المجلس لينظرها ويبحث فيها وأما الدين العمومى وما قررته التصفية والمعاهدات بشأن الدين فليس للمجلس أمر فيه** » ..

ووضعت الحكومة الخديوى والدول أمام الأمر الواقع وتولى محمود سامى البارودى تقديم الدستور الجديد إلى النواب مؤكدا أن المهم فى الدستور هو المحافظة على روحه .. ثم الحرص على تطبيقه وقال فى خطاب تقديمه ..
« أيها السادة النواب ..

أننى سعيد الطالع بالحضور بينكم حاملا إلى حضراتكم القانون الأساسى إلا أننى أعلم كما تعلمون أن مجرد وضع القانون على أصول الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا إلى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لابد أن يضم إلى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الأعمال والأفكار منحصرة فى دوائرها وقد قال عقلاء السياسيين إن الوصول إلى هذا النوع من الكمال أعنى حصر جزئيات الأعمال وكيانها فى دائرة القانون إنما ينال بعد العناء وطول التجارب ولكنى لا أعد هذا صعبا عليكم وآخر ما نتواصى به أن لا نجعل للتعصب المشربى دخلا فى الأعمال الوطنية التى كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها ، وأن تكون الوطنية الحقيقية هى الباعث القوى على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل » ..

وصدر دستور سنة ١٨٨٢ بالإجماع بارداة الأمة من الشعب وللشعب وبالشعب وقام قادة الثورة بحمله لتعبئة البلاد حوله . وقامت الصحافة بحمله توعية واسعة النطاق داعية إلى حماية الدستور بالتمسك بنصوصه وذلك مع الحكمة والاعتدال حتى يصل الساعون إلى الغاية القاصية تدريجياً .

وبدا أن فترة من الاستقرار ومن الانجاز قد بدأت ، وأنهمك الوزراء والنواب فى



مسيو دى فريسنيه

العمل وتوزع المجلس إلى لجان تعمل على علاج كل اختلال فى الإدارة والشئون العامة وعينوا لجانا خاصة لتحقيق أسباب عجز ميزانية الجمارك فى الخمسة أعوام الأخيرة واختلال مصلحة المساحة فى عهد الموظفين الأجانب .. وفساد ادارة « روتشيلد » لاملاك الخديوى السابق .. وكان كل فكر وهم العرابيين منصبا على الاصلاح ..

وانتزعت الوزارة تقدير أحد الخصمين الكبيرين وقال رئيس وزراء فرنسا « دى فريسنيه » الذى خلف جمبتا وكان معارضا لسياساته « فى استطاعة أوروبا أن تضع يدها فى يد وزارة محمود سامى » ..

ولكن أوروبا .. وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا . لم تكن تريد الاصلاح والاستقرار ، بل على العكس تماما ، ولهذا أعلن المراقب المالى البريطانى صراحة أنه لن يتعاون مع هذه الوزارة ، وقدم المراقب المالى الفرنسى استقالته احتجاجا ..

وردت الوزارة بحزم أنها ترفض أى تدخل للممثلين السياسيين الأجانب فى الادارة المصرية وأن اختصاصات المراقبين الماليين الانجليزى والفرنسى لم يحدث فيها أى تعديل لأنهما طبقا للاتفاقات المعقودة لا يملكان سوى صوت استشارى حول أمور الميزانية ..

ورفض قنصلا الدولتين هذا التفسير المطابق للقانون « لأن الأمر الواقع قبل ذلك كان يقضى بأن الوزارة لا تصدق على الميزانية أن لم يوافق عليها المراقبان ، وكان رأيهما هو المتبع بشأن احتياجات الحكومة » انتزع المراقبان ، سلطات غير قانونية أرادا تحويلها إلى حق مكتسب .

ورفضت الدول .. حق مجلس الوزراء وحق مجلس النواب ، فى اعداد واقرار

نصف ميزانية البلاد .. ولم تقبل أى مساومة .. وروى بلنت أن وزير خارجية بريطانيا جرانفيل سأله فى وقت مبكر، وبعدم اكتراث « **هل سيعدل أصحابك عن طلبهم بحق التصويت على الميزانية ، وقلت له أننى أخشى أنه لا أمل فى ذلك لأن هناك اجماعا تاما حول هذا الموضوع . ورد بنفس عدم الاكتراث إذن هذه قضية يائسة فى رأيى ، ولابد أن تنتهى بقمعهم بالقوة** » ..

ولم تعبأ الحكومة ومضت فى تنفيذ سياساتها ، وقد فجرت حولها من الحماس والتأييد ما كان يمنحها الثقة فى مواجهة كل التحديات كانت الحكومة « **بتاعتنا** » كما قالت الجماهير ، وكان عرابى « **الباشا بتاعتنا** » الذى أصبح رجل الساعة « والزعيم الوحيد » وتجاوب العالم كله باسمه .. ومن الشرق جاءت الرسائل والوفود لتحيى زعيما قام لتحرير الشرق والاسلام ، وفى الغرب أطلقت عليه صحف الأحرار « **غريبا لدى مصر** » .

وكانت الحكومة « **هى الوزارة الوطنية الحرة التى انتخبت من رجال لنا بهم تمام الثقة متوسلين نجاح المقاصد والمشروعات وفوز آراء وأفكار مجلس النواب** » ..

وأما مجلس النواب فهو « **الذى لم يفرط منه النواب فى شىء من تقديم التقارير لاصلاح الرى وتسهيله وتقسيم المياه بالعدل ودفع أذى الطغيان ورفع كل أضرار الشرور** » .

ولم يكن ينقطع سيل الوفود والتلغرافات والعرائض من كل أنحاء البلاد وأرسل أهالى دمياط عريضة جاء فيها .. لقد زاد فرح عموم أهل القطر بما دلهم على الوصول إلى درجات التقدم الأولى التى أصبح المجلس كفيلا بالترقى إليها وذلك بسبب حسن النيات ودوام العدل والحرية التى يحبها كل وطنى وأن أهل القطر مع المجلس كلمة واحدة وأننا أهل دمياط مع بقية أرباب القطر واثقون بأرباب المجلس أنهم منا ونحن منهم ويدنا واحدة وقولنا واحد فى اتباع الحق .

وأرسل مدير قنا عريضة قال فيها :

« **إن التصديق على تأليف الوزارة البارودية ولائحة النواب أدخلا السرور على الوطنيين عموما فقد تواردت عمد الهوارة وأعيانهم إلى ديوان المديرية وجاءوا منزلنا مع جميع الموظفين وأعيان البندر ووجوه التجار وخطب**

الجميع بأننا نريد أن نجعل هذا اليوم تذكارا للحرية »

« ولم يحدث أن اكتسبت حكومة فى مصر مثل الثقة والحماس الذى اكتسبته حكومة البارودى وربما لأول مرة لم تصبح الحكومة هى العدو التقليدى للمواطن » .

واعترف وزير خارجية بريطانيا جرانفيل فى لحظة صدق . لم تتكرر « اثبتت تصرفات الحكومة ومناقشات المجلس أن الحركة فى مصر وطنية مشروعة ولا تريد سوى استرداد حقوق المصريين فى السيادة على بلدهم » .. ولم يمنعه ذلك أن يكون من « مهندسى » الاطاحة بها .

وقد أصبحت حكومة البارودى « **معادلة صعبة** » بالنسبة للقناصل ، إن الاطاحة بها قد تعنى بديلا أكثر تطرفا ، وبقاءها يعنى أن تتحول مصر باضطراد إلى نواة صلبة ولم ينقطع البحث عن حل ..

وكان الجيش هو القضية الأخرى بعد الدستور ، وقد بدأ « عرابى » العمل بلا كلل ، لخلق الجيش من جديد ، ولرد اعتباره وتصحيح دوره .. كان يؤمن أن الديمقراطية لن تستقر بغير الجيش القوى ، وأن الجيش لن يقوم إلا فى ظل حكم وطنى ديمقراطى .

وكان الجيش هو كل عدة وأمل الخديوى والقناصل ، وإذا ما استولت الثورة على الجيش فقد جردتهم من آخر خيط أمل يبقى لهم وقد استمات الخديوى منذ قيام الحكومة فى تعبئة القوى الموالية له فى داخل الجيش للتآمر ضد الثورة والحكومة ، ولم يتورع الخديوى عن شىء وحاول عن طريق ضابط شركسى صغير أن يدس السم لعبد العال حلمى فى الطعام ، ودبر مؤامرة لا غتيال عرابى أمام منزله وحاول رشوه وإغراء عدد من الضباط الفلاحين فى صفوف الثورة .

وقد تغاضى عرابى عن هذه « **الصغائر** » حتى يتمكن من تنفيذ الاصلاحات والتغيرات التى كان قد أعدها ، وليتسنى له بعدها أن يواجه الخديوى وقناصله . وأعد حركة تنقلات واسعة شملت الجيش كله ، وقررت الاستغناء عن ما يقرب من ستمائة ضابط أحيلوا إلى الاستيداع أو المعاش ، وكانوا كل الضباط غير الأكفاء أو المتآمرين سواء من الأتراك الشراكسة أو من « الفلاحين » وقد نقل مائة ضابط منهم إلى السودان كان من بينهم ستة من الشراكسة وثلاثة من الأتراك فقط » .

وثارت ضجة صاخبة ، وأتهم عرابى واتهمت الحكومة بالتعصب « للفلاحين »

بنى جنسهم ، وحملة « المقاطف » كما كانوا يسمونهم ، ورفعوا العرائض إلى الخديوى ولقوا عطفا كبيرا من « الجناب الخديوى » ولكن لم يمنع تنفيذ الحركة ..

وكانت ضربة قاصمة لا يمكن أن تمر ، ولابد من معركة أخيرة وفاصلة وتكاتفت قوى الحلف والذى يتكون من الخديوى والقنصلين البريطانى والفرنسى وأنضم إليهم بحماس ودهاء السلطان العثمانى « عبد الحميد » وكان قد قضى على الحركة الاصلاحية التركية بقيادة « مدحت باشا » وقام بتصفيتها بأساليب اشتهر بها تجمع بين الدهاء والدموية ولم يكن لبتقبل بأى حال حركة « ثورية » فى مصر . تريد الاستقلال ، والديمقراطية والدولة العربية الاسلامية « الجمهورية » .

ودبر انقلاب « **مضاد** » بقيادة خصم الثوار « **العنيد** » والذى كان عليه منذ البداية مهمة القضاء عليهم وهو « عثمان رفقى » وضمت كل الضباط « **الأتراك الشراكسة** » الموالين الذين سرحوا أو الذين بقوا فى الجيش ، وقرروا أن تكون وقفتهم الحاسمة ، وكان هدف المؤامرة اغتيال عرابى والبارودى ، وكل قادة الثورة فى ليلة واحدة « وحمل رؤوسهم » إلى الجناب الخديوى الذى تعاد إليه السلطة مطلقة ، ويتم بعدها تصفية كل الآثار والجيوب الباقية حتى يقضى نهائيا على « هوجة » الفلاحين .

ورفض أحد الضباط الشراكسة الوطنيين « رشيد أنور » الاشتراك فى المؤامرة ، وأحاط عرابى علما بها . وتم القاء القبض على أعضائها جميعا وهم على أهبة التنفيذ .

ولم يعد هناك مناص من محاكمتهم ، وأن تكون المحاكمة « عبرة وعظة » .

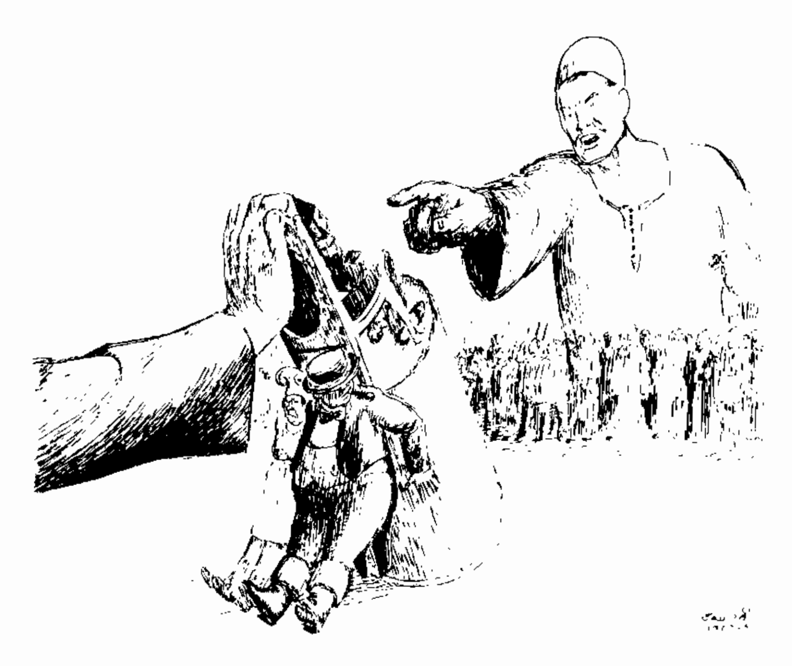
وتمت المحاكمة أمام محكمة عسكرية ، يرأسها ضابط شركسى وطنى كبير هو « راشد باشا حسنى » أبو شنب فضة ، وحكم على ثلاثة وأربعين بالنفى المؤبد والتجريد من الرتب والنياشين وأن يكون نفيهم إلى البلاد التى يرسلون إليها متفرقين وكان انتصاراً آخر « **مدويا** » كسبت به الثورة معركة الجيش بعد معركة الدستور .

ورفعت الأحكام إلى الخديوى ليصدق عليها . وقامت قيامة القناصل ، وطلبوا إليه أن يرفض التصديق ، وحرضه السلطان وأيده فى الرفض ، أن الأحكام على « الرتب الكبيرة » لابد أن يصدق عليها السلطان .. وأعلن الخديوى أن « التحقيقات مغشوشة والأحكام غادرة » وأنه لن يصدق عليها وتشبث بموقفه ، وثارت أزمة حادة عنيفة .

وقررت الحكومة دعوة البرلمان إلى جلسة طارئة لكى يفصل فى الأمر . وحينما رفض الخديوى اقرار الدعوة تجاوزته الحكومة ، ودعت المجلس إلى الانعقاد .. وشاعت فى البلاد مواقف الخديوى وضلوعه فى المؤامرة ثم رفضه التصديق على أحكامها ، واستناده إلى القناصل وإلى السلطان وحضر النواب من كل أرجاء مصر يحملون مشاعر البلاد المشتعلة وعقدت جلسة حامية أجمع فيها النواب على أن هذه « **خيانة خديوية** » وأن لم يعد هناك بقاء للخديوي ولابد من خلعه ومن نفى كل أسرة محمد على أن تقوم حكومة ثورية مؤقتة يرأسها البارودي حتى تستتب الأمور ويعاد تنظيم شئون البلاد .

وسرت أنباء النية فى خلع الخديوى وإعلان الجمهورية وتفجر الحماس وفاض وانهال التأييد ، وأفتى رجال الدين وعلى رأسهم شيخ الأزهر اشيخ عليش بخيانة الخديوى وضرورة خلعه وأعلن الشيخ محمد عبده أن البلاد جميعها مع عرابى والوزير سامى والعلماء متحدون وليس بيننا غير واحد فقط ضد حرية مصر » ..

وهدد القناصل بالتدخل المباشر ، وأن الوقت قد حان لذلك . وكانت سياسة الثوار أن يؤجلوا ذلك حتى تستكمل البلاد أهبتها وحتى لا تفرض معركة فى غير وقتها .. وتقرر فى النهاية التنازل .. والمهادنة المؤقتة وتقرر تخفيف الأحكام وأن تستبدل بالنفى البسيط خارج البلاد ، وبدون أى تجريد من الرتب والنياشين .



بدايـــة النهايـــة

ولم ير الخديوى فى ذلك تتنازلا يقابله بالجميل ، وأن الثورة لم تفضحه ولم تتهمه ولم تخلعه ، ولكنه رأى فيه تراجعا ، بل وهزيمة للثوار ، لابد أن يدفعها إلى مدى أقصى ، ولهذا استأسد وطلب استقالة الوزارة .. كانت أول خطوة كبيرة إلى الوراء اتخذتها الثورة ، ولم ير الخديوى ومستشاروه أن تقف عند هذا الحد .. ولابد من تحويلها إلى بداية النهاية ..

وكان طلبا بالغ الجرأة والقحة رفضته الوزارة بعنف وردت الصفعة بأن قطعت كل علاقة بالخديوى وأسقطت وجوده من حسابها حتى أصبح هناك سلطتان منفصلتان تماما .. الوزارة ومعها الشعب كله ، والخديوى والقناصل والسلطان العثمانى ..

واستعدت الحركة «الشعبية » لخلع « الخيانة الخديوية » وعم الحماس جميع الطبقات ، ومرة أخرى ، توافدت الوفود ، وانهالت العرائض والبرقيات تلعن الخديوي وتطالب بخلعه وتؤكد « شدة الوقوف التام مع الثورة » وبدت الأمة ، وكأنها تفرض ارادتها على القيادة .. وكانت صور الثورة الفرنسية ماثلة تماما أمام هؤلاء خلع الملك واعلان الجمهورية واعلان حقوق الانسان .. وكانت النموذج ومصدر الالهام ..

وتملك الفزع « الخديوى » واستنجد بالدولتين ، وأكد لهما أن هذه هى ساعة التدخل المباشر التى ينتظراها ، وأنها إذا لم تتم الآن فسوف يفوت الوقت كل شيء .. وإذا لم تنفذه الدولتان فسوف تقرر الثورة مصيره .

واتفق رأى الدولتين وكان خلع الخديوى واعلان الجمهورية « الثورية » لا يعنى نهاية « رجلهم » فى مصر ، وخروج مصر من فلكهم ، ولكن تعنى هزيمة ساحقة

لأوروبا وتعنى امتداد شرارة الثورة إلى شمال وغرب أفريقيا ، المجال الحيوي للامبراطورية الفرنسية ، وإلى كل أفريقيا ، ثم إلى ذلك العالم الذى كان يثير الفزع والقلق الدائم فى أوروبا منذ الحروب الصليبية وهو العالم الاسلامى .. كان « عرابى » خطرا أعمق وأبعد مدى .. من كل من سبقه ولابد من سحقه ..

واستجابت الدولتان لاستغاثة الخديوي ، وصدر يوم ١٤ مايو سنة ١٨٨٢ ، بيان مشترك من بريطانيا وفرنسا ، بأنه تقرر ارسال « **الأسطول** » وقوة بحرية مشتركة من الدولتين إلى ميناء الاسكندرية ، وأن ترسو هناك ، ويكون لها حق استعمال القوة حسب تقدير قنصلى الدولتين للظروف .

ولم تكن هذه المرة الأولى التى تأتى فيها الأساطيل إلى مصر ، فقد جاء نابليون بالأسطول الفرنسى ، وجاء نلسون خلفه ليقضى عليه ، وجاء الاسطول البريطانى ، مرة أخرى . بعد ذلك بأربعين عاما ليقضى على محمد على .. بل وجاء منذ أقل من عام . حينئذ .. وذلك حينما قررت الدولتان خلال أحداث سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وبعد المواجهة فى عابدين ، ارسال قطعتين إحداهما بريطانية والأخرى فرنسية ولكن ضاع مجيئهما فى زحمة الأحداث ، وجرفهما المد الوطنى حينذاك .

وقررت الدولتان أن يذهب الأسطوال هذه المرة ليبقى ..

سأل بلنت صديقه عرابى بعد وصول مذكرة يناير عن موقفه إذا ما تدخلت الدولتان .. وأجابه عرابى « **قال فى هدوء وثقة .. دعهم يحضرون .. إن كل رجل وطفل فى مصر سوف يحارب ، وربما ليس من طبيعتنا أن نبدأ العدوان .. ولكننا نعرف تماما كيف نرد عليه** ».

وقد ذهب القنصل البريطانى بعد وصول الاساطيل ليقابل عرابى ، ويطلب إليه عدم دفع الأمور وأن تستقيل الوزارة ، ويعتزل هو السياسة ويترك الجميع لمصر ، « وقوبل بالزراية والاستخفاف » .

لم تستطع دبلوماسية الأساطيل أن تزعزع ارادة الثوار .. وتقدمت الدولتان فى ٢٥ مايو ، بمذكرة إلى الخديوى والوزارة ، وهى أول مذكرة من نوعها فى تاريخ العلاقات الدولية ، وقد طلبت بصراحة أن تستقيل وزارة محمود سامى البارودى فورا ، وأن يغادر عرابى باشا مصر ، إلى أى بلد آخر ، على أن يحتفظ براتبه وبرتبته العسكرية ، وأن يغادر عبد العال حلمى وعلى فهمى القاهرة على أن يحتفظا بمرتبهما ورتبهما .. وإذا لم يتم تنفيذ ذلك فسوف يتحملون جميع العواقب .

وعرض روتشيلد التكفل بنفقات عرابى فى الخارج وعرضت حكومة فرنسا أن تكفل له اقامة مريحة فى باريس ..

ولم يسبق أن نزعت أوروبا الأقنعة بمثل هذا « الوضوح » كما قال : « جون نبنيه » رجل أعمال سويسرى أقام فى مصر أربعين عاما وأنضم للوطنيين .

وقد سعد الخديوى بحضور الأساطيل ثم بالمذكرة ، وكان عارفا وضالعا تماما فى الحدثين ، وأعلن رسميا ترحيبه بالأسطول ، وضرورة استقالة الوزارة .. وتنفيذ مطالب الانذار ، ولم يبق هناك مالم يسفر عنه ..

وقررت الوزارة أن تقدم استقالتها يوم ٢٧ مايو ، وذلك حتى تتحلل من كل التزام نحو الخديوي ، وتعلن عدم شرعية حكمه ، وتعبىء البلاد للمقاومة ..

وبمجرد اعلان استقالة الوزارة .. « **انتفضت مصر كلها يوم ٢٨ مايو ، والتفت باجمعها حول عرابى** »

وكان الخديوى قد أصدر بيانا إلى الجيش والحكومة وإلى كل المديرين بأن حضور المراكب إلى مصر كان ضروريا ومؤقتا لحفظ الأمن ، وأن عليهم جميعا أن يتلقوا أو أمرهم وتعليماتهم منهم ، وطلب إلى الضباط والمديرين ايقاف كل الأعمال والتجهيزات التى بدأتها الوزارة « **المستقيلة** » للحرب .

ورد ضباط الجيش جميعا برفض قرارات الخديوى ، وتأييد عرابى تأييدا تاما .. بل وطالبوا باعتقال الخديوي ومحاكمته .

ورد البوليس والادارة بنفس الرد ، وأعلن ١١ مديرا من بين ١٤ مديرا وقوفهم مع عرابى ، ولم يقف موقفا مذبذبا مع الخديوى سوى ثلاثة فقط » ..

وكان تأييد مجلس النواب معروفا ، ولم يتردد ويتارجح فى موقفه سوى ستة نواب .

وتقرر عقد اجتماع وطنى شامل لكل القادة والأقطاب ، وعقد فى بيت سلطان باشا ، وحضره كل العسكريين والسياسيين والنواب والأعيان والتجار كما حضره العلماء والرؤساء الروحانيين بطريرك الأقباط وحاخام اليهود .. وقام عرابى وألقى خطابا حماسيا ضافيا شرح فيه الأزمة وكل قضية مصر وانتهى إلى طلب عزل الخديوى رأس الأفعى .. ونفى كل أسرة محمد على سبب بلاء مصر والمصريين .. ووافقه الجميع بأغلبية ساحقة ، ولم يشذ يومئذ سوى سلطان باشا رئيس المجلس

الذى نصح « بأنه لا ينبغى التكلم بخلع الخديوى حيث أنه تولى الأمر بفرمان من الدولة العلية بالاتفاق مع الدول الأخرى » واعتبره الجميع محاولة للتهدئة او الاعتدال أو مجرد راى .. ولم يدرك أحد أن ذلك كان بداية الشرخ الكبير فى الثورة ..

وتفاقم السخط واشتد الحماس واصبح الصدام متوقعا بين لحظة واخرى بلا حدود للنتائج .

وذهب وفد جامع برئاسة الشيخ البكرى إلى الخديوى يطلبوا إليه ، اعادة عرابى إلى منصبه « وزيرا للجهادية والبحرية » حتى يأمن كل أهل مصر على حياتهم ومعاشهم » وقبل ورضخ على الفور وتسلم الشيخ البكرى مرسوم التعيين قبل خروجه .

وخرج الشيخ إلى منزل عرابى فورا « **ووجدناه غاص بضباط الجهادية وسالنا عنه فدلونا على أوضة فدخلناها ووجدناها ملآنة البعض طلبة علم والبعض من العلماء والبعض من التجار فسلمناه الأمر الكريم** » .

وعاد عرابى وزيرا ، وكانت مصر بلا وزارة سوى وزارة الجهادية والبحرية فقط . واصبح عرابى باشا هو كل شىء والحاكم المطلق بارادة الشعب ، وكان يستطيع أن يأمر وينهى كما يريد ، فى ذروة قوته واعظم لحظات حياته ..

كان يحمل تفويضا كاملا من الأمة بتأمين الثورة وتأمين مستقبل مصر ، وذلك بعزل الخديوى وتصفية كل أعداء الثورة .. وهى مهمة تتقدم كل المهام .. ولكن عرابى لم يفعل وارتكب الخطأ القاتل فى تاريخ الثورة ، وكان عرابى فلاحا مصريا شجاعا أمينا طيب القلب ، لا يدرك مدى نفاق أوروبا ودمويتها ولا يدرك ضعة السلطان العثمانى او الخديوى وتبددت اللحظة الحاسمة .

كان كل شىء مهيئا لاتخاذ القرارات المصيرية ولكن لم يفعل أكثر من أن يتقدم بمذكرة إلى القناصل يطلب سحب الانذار وانسحاب الأسطول ، كما يطلب اعادة النظر فى سلطات الخديوى واختصاصاته ، وإعادة النظر فى علاقات مصر مع الدول الأوروبية ومع الدول العثمانية .

ولم يتلق ردا ، ولم يتخذ اى إجراء طبعا بحجة موقفه الدستورى الفريد ، وكان حكومة وسلطة كاملة من وزير واحد هو « **وزير الجهادية والبحرية** » ..

وكان الرد هو « **الجحود** » وهو العمل والتفكير المتصل والمحموم ، لصيغة أخرى وتدبير عاجل ، وافتعال أزمة أشد وأعنف ، تحتم التدخل ، ولا تبقى مانعا أمامه .. لم يكن محتملا ، ان يظل عرابى ، سيد الموقف ، وحامى المصريين والأوروبيين ، وحامى مصر من الانهيار والانفجار ، وبنفوذ لم يتمتع به أحد من قبل فى تاريخ مصر الحديث .

كان السير « ادوارد ماليت » القنصل البريطانى ، عدوا لدودا .. لا يخفى أن مهمته هى اسقاط عرابى ، وقد خلف اللورد فيفيان القنصل السابق ، لأن رسائله أصبح يشم منها رائحة « **العطف** » على المصريين ، ولهذا لم يترك السير ادوارد اى شبهة تؤخذ عليه فى كتاباته أو تصرفاته .. وكانت مهمته المكلف بها هى دفع الأمور إلى حافة الهاوية ، ليتسنى التدخل وضم « درة » جديدة للتاج .

وكان السير « أوكلاند كولفن » المراقب المالى ، يتفوق عليه ، وكان البريطانى الأول .. و «**النموذجى** » فى مصر ، وقد أثبت مزاياه فى الهند وكان عليه أن ينقلها ويثبتها فى مصر ..

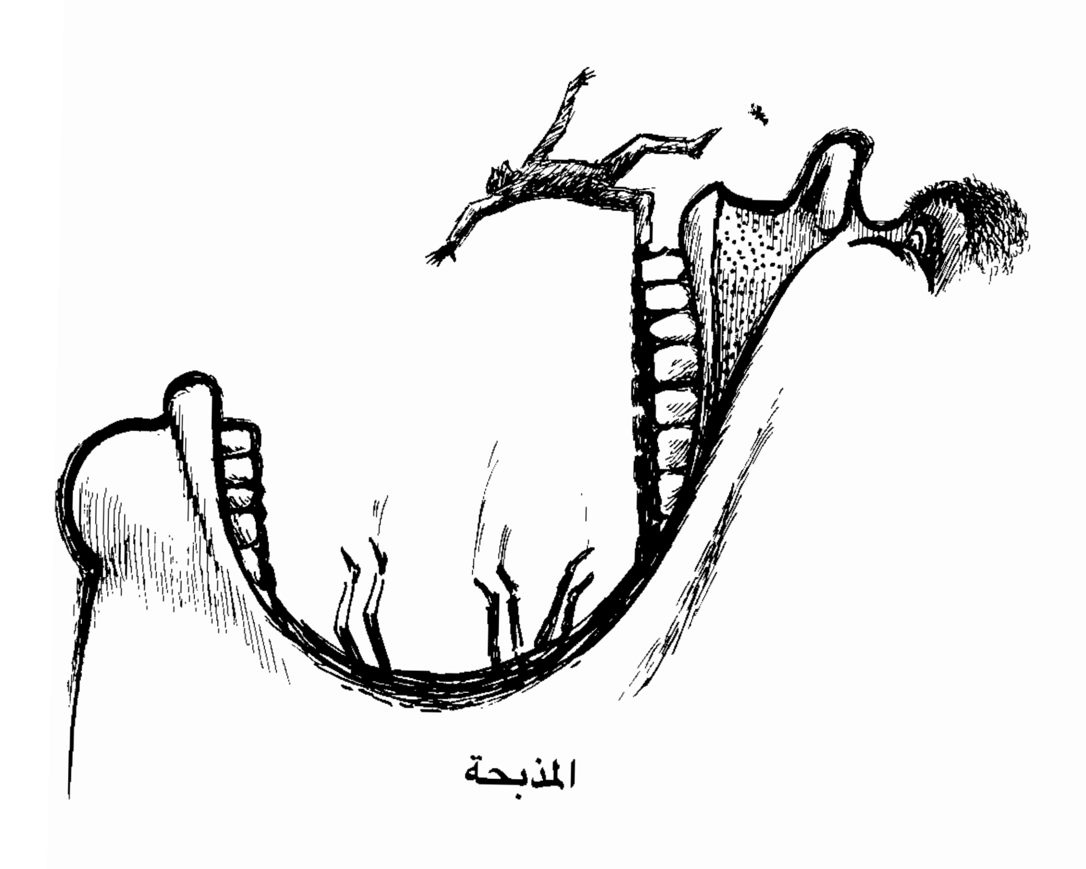
وكانت مهمته أن يحمى اقتصاد مصر وماليتها من « **الوطنيين** » وأن يحافظ عليه حتى نتأثر به بريطانيا ، وقد استمات فى تنفيذ مهمته وكان على يقين أن لا سبيل فى النهاية سوى سحق المتمردين ومحوهم تماما من على المسرح السياسى المصرى ، وكان السير « أوكلاند كولفن » هو الذى أشار على الخديوى توفيق ، بأن يطلق الرصاص على عرابى فى الميدان يوم ٩ سبتمبر .. وبذلك تنتهى المشكلة .

لم يكن لهذين السيدين ، اللذين كانت تتطلع إليهما « الامبراطورية » وتعتمد عليهما أن يسلما « **بروح رياضية** » بالهزيمة أمام حفنة عصاة .. يتزعمهم « **فلاح** »

وكان ماليت قد كتب إلى وزير الخارجية جرانفيل قبل وصول الاساطيل يقول :

« لابد من تعقيد الأمور والوصول بها إلى ازمة حادة عنيفة ، والتعجيل بهذا ، بلا تأخير ، وذلك حتى يتسنى حل المشكلة المصرية الحل المرضى » وافتعلت أزمة المؤامرة الشركسية لكى تفد الأساطيل ، ولابد من أزمة أشد ، وحدث مروع لكى تنطلق القنابل .

وتضافر القنصل والخديوى والمندوب السلطانى ، على تدبير الحدث ، واختيرت الاسكندرية لتكون مسرحا له ..



المذبحة

أرسل الخديوى برقية بالشفرة إلى محافظ الاسكندرية عمر باشا لطفى تقول :

« **يضمن عرابى الآن الأمن والنظام فى البلاد ، وأعلنت هذا كل الصحف . وأصبح مسئولا وحده أمام القناصل . وإذا ما تم له النجاح سوف تمنحه الدول كل ثقتها ولا يبقى لنا بعد هذا قيمة أو أعتبار . وقد وصلت الأساطيل إلى الاسكندرية ، ولابد أثارت نفوس الناس أهالى وأجانب ، ولم تعد الصدامات مستبعدة بين الأوربيين والمصريين . ولهذا أصبح عليك أن تختار لنفسك أما أن تخدم عرابى وتعزز مركزه أو أن تخدمنا** »..

وكان المحافظ قد اختار منذ تسلم منصبه ـ كان أحد مؤسسى الحزب الوطنى فى حلوان . ولكنه تهاوى مع تتابع سقوط الباشوات « شريف .. وسلطان وغيرهما .. الذين أقلقهم تصاعد الثورة وأفزعهم وصول الأساطيل وارادوا ضمان المستقبل .

وقد عينه الخديوى محافظاً للاسكندرية قبل أشهر واعترض بعض القادة الوطنيين ، لأن الشكوك بدأت تحيط « **بالباشا** » وطلبوا إلى عرابى الاعتراض ، ولكن لم يجد الزعيم سبباً وجيهاً ، كانت مواقع السلطة الرئيسية فى أيديهم ويمكن التسامح فى منصب « **محافظ** » .

وكانت قدرة عرابى وحده على ضمان الأمن ، وحماية الأوربيين والمسيحيين ، هى أكبر تحدى للسلطان والخديوى والقنصل معاً .. وهى تعنى أنه السلطة الحقيقية والشرعية وهى تبطل كل الصور المخيفة التى رسمتها له الصحافة البريطانية خاصة وتفسد كل الحجج والذرائع التى أعدت لتبرير التدخل

وكانت القاهرة مغلقة لوجود عرابى ، ولم تكن هناك ثغرة تتيح التآمر ، ولكن بقيت الاسكندرية !

كانت العاصمة الثانية ، وتزخر بالأجانب ، أكبر عدد منهم فى مصر . وتتركز فيها الجاليات الأجنبية والمصالح الكبيرة ، وكان مجتمعها ينقسم إلى عالمين منفصلين متعاديين هما « **الأفرنج** » السادة ثم « أولاد العرب » أى المصريين المتخلفين المتعصبين .

وكانت العلاقات متوترة دائماً واشتد التوتر بتوالى الأحداث ، وبلغ ذروته منذ وصول الأساطيل .

ومنذ وصلت أثارت أشد الجدل والنقاش وسط الأجانب وبين « **الأهالى** » خاصة وقد بدأ الحزب الوطنى حملة توعية وتعبئة فى المدينة ليعد الناس للاحتمالات المتوقعة وكلها تنبىء بالخطر .

وكان قائد الأسطول البريطانى « الأميرال بوشامب سيمور » متعجرفاً مستفزاً ، من « أكلة النار » وفق وصف انجليزى . ولم يكف منذ وصلت مراكبة عن الايحاء بأنه لم يأت للزيارة أو لمجرد التهديد ثم العودة ، ولكن لاقامة طويلة ولعمل كبير « **مدوى** » .

وطلب الأسطول لدى وصوله متعهدين لتوريد حاجاته لمدة ثلاثة أشهر على الأقل ، ودعا أهالى الاسكندرية لزيارة المراكب الراسية والتأكد من عظمة « بريطانيا » ووجه الأميرال دعوات لأعيان المدينة من الأجانب والمصريين لتناول الطعام على مائدته وفى مركب القيادة وكان اسمها « الانفنسنيل » أى التى لا تقهر .

وتقوى الأجانب بوجود الأساطيل وازداد تحرشهم بالمصريين واستفزازهم وتعددت المواجهات والمصادمات لأن « **الأهالى** » لم يعودوا يتقبلون الأهانة أو يخافون « الامتيازات » وكانوا يردون الصاع صاعين .

وكان « رجل الأحداث » على البر هو القنصل البريطانى فى الاسكندرية

« كوكس » وكان من غلاة الاستعماريين ومن دعاة التدخل منذ البداية وكان شاهداً فى مظاهرة عابدين التاريخية ، وممن دعوا الخديوى أن يستدرج عرابى ويطلق عليه الرصاص ، وينهى كل شيء .

وأصبح عليه أن يدبر « **الحدث** » الذى يفجر أزمة ويسيل دماء ، ويبرر التدخل لحقن الدماء وانقاذ الأوروبيين والمسيحيين وذلك كما دعا القنصل العام ماليت فى برقيته إلى وزارة الخارجية قبل شهر واحد .

وبدأ يعد المناخ الملائم ، بنشر الاشاعات وترويج القصص المفتعلة ، وتعميق الهوة بين السكان . .

وقام بالتعاون مع ضباط « **مخابرات** » الأسطول بتكوين « **مكتب للمعلومات** » فى المدينة حشد فيه أجانب وأتراك وشراكسة ، ونفاية المصريين ، وذلك لجمع كل المعلومات والأسرار التى تهم « الأسطول » عن المدينة وعن الثورة عامة واستدعى مستشرقاً كبيراً من لندن « بالمر » أرسلته الأميرالية هناك ، ومعه عدد من الضباط والخبراء .. للاعداد لليوم الكبير .

وذات يوم عقد القنصل اجتماعاً لعدد كبير من الأجانب فى المدينة لمناقشة الموقف ، وسأله أحد أقطاب الاجتماع بعد أن فرغ من الحديث : .

ـ أننا الآن ندرك أن الأسطول قد جاء لعمل كبير . ولكن ماذا يجب أن يكون موقفنا ، وماذا يبقى علينا أن نقوم به .

ورد القنصل بلا تردد : .

ـ إذا كنتم قد اقتنعتم أن الأسطول قد جاء لحمايتكم فإن أهم ما عليكم أن تقوموا به هو أن تتسلحوا وبكل سلاح ممكن ، لابد أن نكون مستعدين ، وفى استطاعتكم فى لحظة ما أن تعتمدوا على أنفسكم .

وكانت الدعوة بين الأجانب إلى التسلح قد نشطت منذ وصول الأساطيل ، ولكنها نشطت وعمت منذ أحاديث القنصل .

وقدم بعض موظفى الجمارك من المصريين والأوربيين تقارير رسمية عن صناديق من السلاح والذخيرة تتسرب يومياً وبكثرة من مراكب الأسطول وتنقل إلى القنصلية البريطانية وإلى مقر شركة « رويتر » للأنباء حتى أصبحتا ترسانتين للسلاح .

وقدمت جهات الأمن تقارير عن عصابات من اليونانيين تكونت لاستيراد وتهريب الأسلحة وتقيم سوقاً رائجة لتجارة الأسلحة بين الأجانب .

وكان اليونانيون فى الاسكندرية من أشد الجاليات عداء للمصريين ، وولاء للبريطانيين ، ولم يكن يفوقهم سوى المالطيين ، وكان « رياض باشا » قد ألف عصابة منهم تقوم بإغتيال كل قادة الثورة بلا إستثناء .. وانكشفت المؤامرة وقبض على بعضهم ، ولكن عرابى « **المتسامح** » دائماً ، لم يتخذ اجراء حاسماً ، يقضى على الشر فى المهد ، كما طلبت سلطات الأمن .

واحتجت الحكومة لدى القنصل اليونانى « رانحيو » على تصرفات مواطنيه « **ولم يستطع أن ينفيها ولكنه لم يستجب لأى طلب من الحكومة ، ولم يكن هناك شك أنه من أول المتواطئين** .

وصحب وصول الأساطيل حضور عدد كبير من مراسلى الصحف البريطانية والأوربية وقام هؤلاء بحملة عنيفة على الأوضاع المنهارة فى مصر ، وضد الفزع والرعب المتصل الذى يعيش فى ظله الأجانب « **والمسيحيون** » فى مصر .

وكانت « الأجبشيان جازيت » جريدة الجالية البريطانية فى مصر وكانت تصدر باللغة الفرنسية أيضاً ، وقد فاقت الجميع فى حملة محمومة على الثورة وعلى عرابى فى داخل مصر .. وبدت وكأنها تتمتع بسلطة أقوى من الثورة .

وأدلى عرابى بتصريح جاد قال فيه : .

« **لا أدرى كيف يطلب إلى أن أحافظ على الأمن ، وأضمن سلامة الأوربيين ، وسط كل هذه الاستفزازات والافتراءات وهى تتم علناً فى وضح النهار ، وعلى مرأى ومسمع من حضرات القناصل** » .

ولم يشفع عرابى هذا بأى اجراء مضاد ، سوى أن يطلب إلى « عموم الأهالى » ضبط النفس وحماية وطنهم ودينهم .

وربما كان عرابى مطمئناً إلى أن رجالة يمسكون بزمام الأمور فى المدينة كان « السيد بك قنديل » مدير الضبطية « **الأمن** » من الوطنيين المتفانين وكذلك كان نائب المحافظ « حسن بك صادق » وكان قائد حامية المدينة « سليمان بك سامى » من الثوار الشجعان المتفانين ، وفى قبضة هؤلاء لن يفلت الموقف أو ينهار رغم الأساطيل .

وجرت الأمور كما لا يشتهى أحد وبعد أسبوع واحد من برقية الخديوى إلى المحافظ .

كان يوم ١١ يونيه ١٨٨٢ يوم أحد والعطلة الأسبوعية فى المدينة ، وفيه تزدحم المقاهى والحانات والملاهى التى كانت تزخر بها الاسكندرية فى حماية « **الامتيازات** » .

وأستأجر مالطى مخمور حماراً لينقله حتى مقهى « **القزاز** » فى حى اللبان ، وحينما وصل نزل عن الحمار ودخل إلى محل بقال يونانى ، وقذف بنصف قرش إلى صاحب الحمار « **أحمد العجان** » ولما لم يكترث به « **الخواجة** » تبعه إلى داخل المحل ولكنه شتمه وسبه ، وحينما رد عليه استل سكيناً كبيراً وطعنه طعنة قاتلة فى بطنه ، وخرج الحمار « يصرخ » والدم يسيل غزيراً منه ، وارتمى جثة هامدة فى الشارع ، وأسرع الناس من المقاهى المجاورة ، وتجمعوا حوله ، وجرى البعض فى كل مكان يستصرخون الناس للبحث عن الجانى ، وحينما تكاثر الجمع فوجئوا بعدد من اليونانيين والمالطيين يقتحمون صفوفهم وهم يطلقون النار من مسدساتهم أو ينهالون طعناً بالسكاكين حتى تفرقوا فى كل اتجاه .

وجرى الناس فى الشوارع يصرخون ، جاى يا مسلمين ، الخواجات بيقتلونا ، ويقتلوا أخوانكم ، وتدفقت جموع الناس من كل صوب يحملون « النبابيت » أو العصى .. أو كل ما وقع تحت أيديهم وتحول الميدان فى لحظات إلى ساحة قتال .. وفوجىء الناس ، بالرصاص ينهمر من النوافذ فى العمارات التى يسكنها الأجانب ويحصدهم بالعشرات .

وإستغاث الناس بالبوليس ، ولكن لم يغثهم أحد ، وبعد نصف ساعة على الأقل حضرت قوة صغيرة على رأسها « شاويش » لم تكد تقترب من المذبحة حتى فاجأته رصاصة .. وسقط ميتاً ، وحينما اشتدت الاستغاثة ، وجرى البعض إلى البوليس جاءت قوة أخرى أقل لم تستطع أن تفعل شيئاً وجرى أفرادها هاربين .

وامتد العنف حتى شمل كل المدينة .. أعطيت الاشارة لبدء « الحدث » الذى أراده ماليت .. ولحسن الحظ كان هناك شاهد أجنبى عيان ، شهد كل الأحداث وترك روايته للتاريخ هو « جون نينيه » .

« **لم أحتمل أن أبقى فى منزلى ، استمع إلى الصرخات المذعورة المحمومة وإلى ولولة النساء ، وأتصور المدينة وهى تدمر فى بحر من الدماء ، وصممت**

على النزول لأرى المأساة ، وتسللت من الشوارع الخلفية والحارات التى أعرفها جيداً .

واستطعت فى مخاطرة شديدة أن أصل إلى ميدان محمد على ونظرت إلى عينيه لأرى ماذا يكون انفعاله .

ورأيت على بعد خطوات القنصل كوكش ينزل من أحدى العمارات التى يسكنها المالطيين ، ومعه قواص القنصلية ، وحينما رأته الجموع جروا إليه وهوى أحدهم « بالنبوت » الذى أصابه فى كتفه ولكنه أسرع إلى عربته التى كانت تنتظر فى ركن قريب ، وفرت به من الشوارع الخلفية ، وتعجبت أن ينزل فى مثل هذا اليوم ويصل حتى هذا المكان ولكن خفت الدهشة حينما عرفت أن المالطى الذى بدأ المذبحة شقيق خادمه الخاص .. ولا ريب أنه عاد إلى القنصلية سعيداً بما حققه من انجاز !! .

وأخذت ألف وأدور فى الشوارع الصغيرة حتى وصلت إلى قرب حى اللبان .. وفوجئتِ فى ركن منزو يقف فيه المحافظ عمر لطفى متخفياً فى سترة عادية يشهد ما يجرى من بعد .



واندفعت نحوه ، يفتك بى الغيظ والغضب ، وبلا مقدمة أو تحية صحت فيه : .

ـ كيف يمكن أن تقف هنا ، وعلى بعد خطوات منك تدور مذبحة تتساقط فيها الرءوس أين قواتك .. أين الحكومة ؟ .

وبلا أكتراث أو انفعال رد قائلاً : .

ليس هذا من اختصاصى .. ليس عندى قوات ، ولست مسئولاً عن شىء .

وتلاقى نظراتى المحمومة إليه وصحت : .

- إذا لم يكن عندك قوات ، فلماذا لا ترتدى سترتك العسكرية وتمتطى جوادك ، وتصحب خمسين أو ستين عسكرياً من أى قوة ، وتقتحمون رافعى السيوف صفوف الجماهير وتخمدون هذا الجحيم فى دقائق .

واشتد ضيقه بى فصرخ فى :

- أمشى .. أمشى من هنا .. « ده مش شغلك » هل حملك أحد مسئولية الأمن .. هل أنت مسئول عن الأمن فى الاسكندرية .

ولم استطع سوى أن أتركه .. وأسير كالمجنون ، وأخذت أبحث عن طريق لأصل إلى بيت أسرة أجنبية يهمنى أمرها ، وأريد أن أطمئن عليها .

ووصلت إلى قنصلية فرنسا ، ووجدت أمامها حشدا مذعورا أشد الذعر من رجال وأطفال ونساء يريدون الاحتماء بها ، ولقيت هناك أحد الضباط المصريين الوطنيين يحاول حمايتهم وطمأنتهم وأمسكت به وسألته :

- أين سيد بك قنديل مدير الضبطية أين قواته ؟ وقال لى مهموماً :

- للأسف سيد بك مريض بالحمى منذ يومين ، ويرقد فى منزله ، وبمجرد أن عرف بالأحداث ، أرسل للمحافظ يطلب إليه انزال كل القوات ولكن لم يستجب له المحافظ .. ثم أتصل بسليمان بك سامى ، قائد الحامية فقال له أنه مستعد تماماً وقادر على تحمل مسئولية الأمن لو تلقى الأمر من وزير الحربية .

- ولماذا لم يبرق أحد لوزير الحربية .

- إن كل شىء فى يد المحافظ ، وهو على اتصال تليغراف بالقاهرة منذ الصباح ولكن لم يصدر أى تعليمات ولم يبلغ بأى أوامر .

وتركته فى موقفه العصيب أبحث عن طريق يمكن أن أصل به إلى بيت أصدقائى .. ولقيت حسن بك صادق « نائب المحافظ » كان يسير وحده تائهاً مثلى .. وزعقت فيه :

- ما هذا الذى يحدث ؟

وقال لى :

إن عمر لطفى قد تولى كل السلطات ولكنه لم ينفذ أى شىء مما أشار به سيد بك قنديل بل على العكس تماماً وتركنى وسار .



عمر لطفي باشا

واستطعت في النهاية أن أصل إلى المنزل الذي أقصده .. وبالقرب منه التقيت بضابط جيش شاب من المشاة ، كان يحاول أن يفعل شيئاً ، وما أن رآني حتى أسرع إلى وقال :

ـ ماذا تفعل هنا .. اختبيء بسرعة في أي مكان ، لقد صدرت أوامر عرابي ، وستنزل قوات الجيش فوراً .

وصعدت فوراً إلى المنزل وهرعت إلى شرفته ورأيت طوابير الخيالة وهي تندفع .. في كل اتجاه .. وفي أقل من نصف ساعة .. كانت قد سيطرت على الموقف تماماً .. واستطاع سليمان سامي أن يعيد الأمن كاملاً ويخمد الفتنة .. وكان يمكن ذلك منذ اللحظات الأولى .. وقبل أن تترك أربع ساعات لتدمر كل شيء .

ونزلت أتجول في المدينة الهادئة .. وقصدت إلى قنصل روسيا ليكس .. وكان متعاطفاً مع الثورة ، وقال لي أنه حاول منذ البداية أن يتصل بعرابي وبالخديوي ودرويش باشا مندوب السلطان .. ولكنه لم يستطع ذلك إلا في الساعة الرابعة والربع .

وتكشفت حقائق مروعة .. لم يبلغ عرابي بأي خبر عن أحداث الاسكندرية إلا بعد ثلاثة ساعات وثلاثة أرباع الساعة أي في الساعة الخامسة إلا ربعاً ، ويصدر أمره على الفور بنزول الجيش .

وعرف أن بكباشي من الجيش ذهب إلى مكتب التليغراف لكي يرسل برقية إلى وزير الحربية « عرابي » في القاهرة ، عن الأحداث ، ولكن اعتذر مسئول المكتب بأن الخطوط معطلة ، بينما كان المحافظ على اتصال مستمر بالقاهرة من نفس المكتب .. ولكن بغير وزير الحربية !! .

وأصدر عرابي بياناً مطولاً ، يعلن فيه أسف الحكومة لما حدث ، ولم يتهم أحداً ، ولكنه أكد سيطرة الحكومة على الموقف واتخاذها كل الضمانات حتى لا يحدث قط ما يمس سلامة المواطنين .

وطلب القناصل تأليف لجنة تحقيق ورحب عرابي بالطلب ، وأن لا يقف عائق عن اظهار الحقيقة وكشف المذنب مهما كان .. ولكن بدا منذ الاجتماعات الأولى أن القنصلين البريطاني والفرنسي ، لا يريدان تحقيقاً أو اظهار حقيقة ، مما دفع

بالقنصل الايطالى ، وممثلى الجالية الايطالية إلى اتهامه علناً ، وتحميل بريطانيا مسئولية الضحايا الذين سقطوا وكان بينهم عدد من الايطاليين .

وتدخل الأميرال البريطانى فى الأحداث ، ولم تكن لتمر بغير أن يسمع له صوت ، ولكنه فاجأ الجميع بأن أعلن أنه ليس لعرابى باشا أو للثورة أى دخل ولا تقع عليها أية مسئولية .. وأن ما حدث هو مجرد صدام « **طائفى** » لا علاقة له بالسياسة .. وسارع المحافظ عمر لطفى ، إلى مقابلته ، وطلب إليه أن لا يدلى بمثل هذه التصريحات التى تضر بمركز سمو الخديو !! .

والأميرال لا يضع سياسة ولكن ينفذها فحسب ، والسياسة ومخططيها كانت المذبحة هى كل ما يريدونه ، وخطواتهم قبل الأخيرة .. ولهذا وقف أحد أقطابهم وعمدائهم اللورد « دوفرين » سفير بريطانيا فى القسطنطينية وأعلن فى المؤتمر الأوروبى الذى عقد على عجل ، لبحث المشكلة المصرية ، ولتلافى أى تدخل فيها من أى دولة وأعلن فى خطاب طويل .

« لقد وصلت الأحوال فى مصر إلى القاع وأصبحت حياة الأوروبيين ، وأى أوروبى بلا استثناء ، مهددة وفى خطر دائم داهم ، ولم يعد يعوزنا فى ذلك دليل وليس هناك أقطع من ذلك الحدث الأليم المفجع ، والذى لم يعد بعده شك فى مدى الفزع المروع الذى يعيش فيه الأوربيون شهدت مصر مذبحة وحشية بربرية قام فيها رعاع وغوغاء متعصبون بالاعتداء على الأجانب الأبرياء العزل فى الاسكندرية .. سقط فيها عدد كبير من الضحايا وقرر بعدها الأوروبيون فى مصر الهجرة .. والمغادرة .. وهو ما يعنى خسارة للجميع وخرابا وافلاساً للأغلبية ، إن آلافا من مواطنينا يعيشون فى خطر يتزايد كل يوم .. ولابد ازاء حالة كهذه من علاج حاسم وعاجل » .

وبعد يومين فقط من المذبحة فى ١٢ يونيه سنة ١٨٨٢ قرر سمو الخديو الانتقال إلى مصيفه فى مدينة الاسكندرية وإن يصحب معه درويش باشا مندوب السلطان ، وطلب معظم القادة من عرابى ، أن يستبقى الخديو فى القاهرة . بطريقة أو أخرى ، بل وأن يمنعه من السفر إلى الاسكندرية لو لزم الأمر ، وكان هناك أكثر من سبب أو مبرر لهذا ، وكانت كل الأخطار محتملة ومتوقعة لوجوده قرب الأسطول ووسط الأجانب المتآمرين .. ولكن تغلب تسامح عرابى المعهود وسافر الخديوى .. وبعدها البعض غلطة كبرى من أكبر الأخطاء ...

وفى الاسكندرية قرر الخديوى أن الوقت قد حان لتأليف وزارة جديدة من المحايدين برئاسة راغب باشا ، على أن يبقى عرابى باشا وزيراً للحربية .

وانضم عرابى إلى الوزارة الجديدة فى العاصمة الثانية ، وطلب إليه الخديوى ودرويش باشا مندوب السلطان أن يصب كل جهده فى تجديد الطوابى وتعبئة القوات لمواجهة « الخطر » الذى تمثله الأساطيل والذى يبدو أنه أصبح محتوماً .. كانت تلك آخر حلقات الخداع !! .

وبين الخديوى والقنصل والمندوب السلطانى والأميرال لم يعد صعباً ، بدء « **العلاج العاجل الحاسم** »!!



استراتيجية الذئب والحمل !
من الاسكندرية إلى التل الكبير

كانت معركة مصر أول مواجهة فى القرن الماضى بين ثورة وطنية ديموقراطية وبين الامبراطورية البريطانية ، وكانت معاركها الاستعمارية دائما ضد امبراطوريات أو نظم اقطاعية أو قبلية متداعية .. وهذه المرة كانت المقاومة مستميتة ومختلفة .

لم تحقق مذبحة الاسكندرية أهم نتائجها ، ومهما كانت وطأة الضرر الذى وقع ، إلا أنها لم تؤد إلى الانهيار العام ، ولم تسد الفوضى أو تتدفق أنهار الدماء ، ولا تقف حتى يتدخل الاسطول « مضطرا » ويعيد الامور إلى نصابها !

وشفع عرابى ، وكان كل الحكومة والسلطة الاجراءات الحازمة التى أعدها بارسال نائبه يعقوب باشا سامى وكيل وزارة الحربية ، على رأس قوة كافية من الجيش إلى الاسكندرية ، وأصبح مكلفا بتولى كل السلطات ، وبحماية المدينة ، « **وقمع أى شغب من الداخل أو عدوان من الخارج** » وكان عليه أيضا الاشراف على التحقيق فى احداث المذبحة « **وأن لا يدخر أى جهد وأن يسلك كل سبيل حتى يصل الجناة إلى يد العدالة** » .

وتعثر التدبير الدقيق المحكم ، وكل ما بذل الخديوى والمحافظ والقنصل من جهد ومال وسقطت الذريعة التى أعدت لتحسم الامور .

وبعد أن فرغت كل الحجج لم يبق سوى العمل السافر المباشر ، واستمدت بريطانيا خطوتها الأولى من خرافة « **الذئب والحمل** » فى كتب الأطفال .

وفى يوم ٤ يوليو سنة ١٨٨٢ تلقت الحكومة خطابا من الاميرال الانجليزى سيمور يقول :

ياصاحب السعادة .

وصل إلى علمى من مصادر أثق فى أخبارها أن هناك اجراءات تتخذ لسد مدخل بوغاز الاسكندرية ، وانني أعتبر هذا عملا معاديا وسوف أتصرف على هذا الأساس .

ولى الشرف أن أظل خادمكم المطيع .

ولم تكن هناك حقيقة صغيرة أو كبيرة حول الطوابى أو المدافع أو عن المدينة عامة ، لم يتلقاها الاميرال . وكانت مصادره كفيلة بأن تمده بكل المعلومات ولم يكن هناك أى نصيب من الصحة لما جاء فى خطاب الاميرال .

وكانت الحكومة المصرية منذ تولت وزارة سامي البارودي ، وأصبح عرابى وزيرا للحربية ، قد وضعت فى برنامجها إعادة بناء القوات المسلحة المصرية وبالطبع القوات البحرية . وحينما توافدت الاساطيل زاد الاهتمام بالقوات والتحصينات البحرية ، وما أن بدأ العمل حتى طلب الخديوى بناء على تعليمات مشددة من السلطان فى اسطنبول إيقاف أى أصلاح أو تجديد وذلك لأن السفير البريطانى هناك ، أبلغه أن الحكومة البريطانية تشعر بالقلق على أسطولها الراسى فى ميناء الاسكندرية من هذه الاجراءات .

وكانت الطوابى والمدافع قديمة لم يطرأ عليها أى تغير أو تطولا منذ عصر محمد على ، « ولم ير أحد السلطان أو الخديوى أو الدولة العظمى أى حرج فى طلب الكف عن اجراءات دفاعية وقائية تتخذها دولة صغيرة ازاء اساطيل دول عظمى ترسو فى مياهها الاقليمية » كما قال عرابى .

وارسلت الحكومة المصرية ردا على خطاب الإميرال وطلبت إليه انتداب أحد ضباطه ليتحقق بنفسه من عدم صحة المعلومات التى تصله من مصادره الموثوقة .

ولم يقتنع الاميرال أو يستجب ولم يثنه هذا عن أن يرسل خطابه التالى فى لهجة أشد بعد يومين فقط وتلقت الحكومة المصرية فى ٦ يوليو سنة ١٨٨٢ انذارا يقول :

صاحب السعادة .

أتشرف باحاطتكم انه وصل إلى علمى عن طريق رسمى انه قد تم أمس تركيب أكثر من مدفعين فى خطوط الدفاع القائمة على البحر ، وأن هناك تجهيزات عسكرية أخرى تمت فى واجهة الاسكندرية الشمالية ، ولما كان هذا يعد تحديا وتهديدا للاسطول الذى أتشرف بقيادته فاننى أجد نفسى مضطرا أن أطلب اليكم وقف هذه الاعمال فوراً ، وإذا لم تقف أو إذا تجددت فسوف أجد من واجبى أن أتولى ازالتها بالقوة .

ولى الشرف ياصاحب السعادة أن أظل خادمكم المطيع .

وردت الحكومة عن طريق وزار الحربية بلهجة مماثلة :

عزيزى الاميرال .

تسلمت خطابكم المؤرخ ٦ يوليو والذى تقولون فيه انه قد وصل علمكم نبأ تركيب مدافع جديدة واجراء تجهيزات عسكرية على شاطىء البحر ، ونؤكد لكم أن كل ما ورد فى خطابكم لا أساس له من الصحة وهو لا يختلف عما سبق أن وصل إلى علمكم وكتبتم لنا حوله وتحقق كذبه .

هذا ونعتمد على عواطفكم المشبعة بالانسانية فى اثبات الحقيقة .

المخلص ..

واسقط مرة أخرى فى يد الاميرال ، ولكنه كان قد تلقى بالفعل الامر ببدء الضرب ، فى أقرب وقت يجده ملائما ولم يكن ممكنا للحقيقة « والانسانية أن تقف عقبة » .

وبعد مداولات بين الاسكندرية والقاهرة ولندن تلقت الحكومة المصرية الانذار الاخير والحاسم .

ياصاحب السعادة

أتشرف باحاطتكم علما انه نظرا لاستمرار الاستعدادات العسكرية الموجهة ضد الاسطول الذى أتولى قيادته وخاصة فى طوابى السلسلة وقايتباى وطابية صالح ، فاننى أطلب بتسليم هذه القواعد قبل شروق الشمس غدا ١١ يوليو - وذلك لاحتلالها وتجريدها من السلاح .. تأمينا لسلامة الاسطول ، وإذا لم يتم هذا فسأقوم بتنفيذ الاجراء بالقوة فى هذا الموعد .

ولى الشرف ياصاحب السعادة أن أظل ... خادمكم المطيع .

وازاء اللهجة الفظة والتى لم تترك شكا حول نية الاميرال .. تقرر دعوة مجلس الوزراء إلى اجتماع عاجل يتولى مواجهة الموقف العصيب .

وعقد الاجتماع برئاسة الخديوى وبحضور مندوب السلطان درويش باشا ، ودعى اليه عدد من اقطاب البلاد ممن ليسوا اعضاء فى المجلس واستمرت المداولات أربعة ساعات تقريبا .

واستقر الرأى على ارسال وفد من وزيرى الداخلية والمالية بصحبة بحرى كبير ، وأحد كبار الموظفين الملمين باللغة الانجليزية وذلك ليحاولوا أن يثنوا الاميرال عن عزمه وأن يؤكدوا له أن لم يجد شيئايستدعي العدوان ، وليطلبوا اليه أن يرسل بعض ضباطه للطوابى الثلاث ليتحقق من صحة المعلومات .

وتقرر استئناف الاجتماع بعد عودة الوفد ، ولم يستغرق ذلك طويلا ، إذ رفض الاميرال استقبال الوفد ، وصرح لهم ياوره أن المعلومات اكيدة وأن لا تنازل عن الطلبات كما وردت فى الانذار وإذا لم تجاوب فسوف يبدأ الضرب فى الموعد المحدد .

وعقد اجتماع دام ساعتين تقريبا واتفق الجميع على انه من العار والخزى ان تسلم مصر مدفعا واحدا أو شبرا من الأرض ، ولابد من رفض الانذار .
وصدق الجميع على الرد الذى أعده عرابى على الاميرال ، وكان نصه :

لم تقم مصر منذ البداية بأى عمل يبرر ارسال الاساطيل البحرية مجتمعة ولم تقم السلطات المدنية أو السلطات العسكرية بأى عمل يسوغ مطالب الاميرال ، سوى بعض اصلاحات ضرورية فى أبنية قديمة وبقيت الطوابى حتى الآن على الحال التى كانت عليها تماما منذ وصول الاساطيل .

ثم اننا نحن هنا فى بيتنا ووطننا ومن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع العلاقات السلمية التى تقول الحكومة الانجليزية انها باقية بيننا .

ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أى طابية دون أن تكره على ذلك بقوة السلاح ، وهى تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم ، وتلقى مسئولية جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة والتى تنجم عن هجوم الاساطيل واطلاق المدافع على من يطلق القنبلة الأولى ، ويهدم السلام وهذه المدينة الهادئة الاسكندرية ويطأ احكام قانون حقوق الانسان ، وقوانين السلم والحرب .
وحينما تسلم الاميرال الرد انفجر غضبه وصاح :
يريد عرابى أن يقف بينى وبين الاسكندرية .. هذا لن يكون .

كان الرد آخر ما يتوقعه ، وتصور منذ البداية أن خطابه الأول سيخلع قلوب المصريين ويدفعهم للتسليم بلا قتال .
تقررت الحرب ...
وباتت المدينة تنتظر المدافع والهول الاكبر عند الفجر .

« وكان الخديوى أشد المتحمسين ووقف ليعلن انه إذا ما بدأ القتال سوف يحمل سلاحه ويتقدم الصفوف دفاعا عن الدين والوطن ، وقرر أن يبرق للسلطان بنفسه ليشرح الموقف ومبررات القرار » كما وصف عرابى .

لم يفاجأ أحد تماما بهذه النهاية للاحداث كان كل شيء مقررا محتوما لا ينقصه سوى الذرائع والاخراج .

وحينما كتبت جريدة « التايمس » تاريخا رسميا وشاملا للحرب فى مصر بعد بعض الوقت ، قالت :

« كانت مذابح ١١ يونية فى الاسكندرية تحديا كاملا للحضارة الاوربية وبحيث لا تترك لاوربا خيارا سوى التقاط القفاز ومواجهة الاستفزاز .

ومنذ تلك اللحظة لم يعد هناك مناص من القضاء على عرابى « **باشا** » أو القضاء على كل نفوذ أوربا فى مصر .

وقد تأخر الامر بعض الوقت نظرا لما تسببه الصراعات الاوربية من شلل لارادة أوربا . وخطر بريطانيا المعروف من أى حرب لا تفرض عليها فرضا .

وكان ممكنا أن يطول هذا التراخى ، لولا اصرار المتمردين وعنادهم فى إقامة طوابى جديدة وتسليحها بمدافع ثقيلة وذخيرة وفيرة ، للأسف انها كانت كلها انجليزية ، زودتب بها الحكومة البريطانية مصر ، حينما كان آخر ما تتصوره بريطانيا هو أن تشتبك فى حرب مع الجيش المصرى !

ويروى الشاهد الاجنبى الذى عاش المأساة كاملة وحتى الفصل الاخير جون نينيه .

« بعد المذبحة بأيام زارنى « دى ليكس » القنصل الروسى فى الاسكندرية وكان الوحيد المنحاز الى عرابى والوطنيين ، وكنا ازاء سيل الهجرة الاجنبية من مصر . الوحيدان اللذان قررا البقاء فى مصر وان يشهدا الدراما حتى النهاية .. وخلال الحديث قال لى « دى ليكس » :

ياعزيزى سوف ينفذ البريطانيون سياستهم كاملة ، ولن يقف فى طريقهم شيء ولا يداخلك شك ياعزيزى انك ستصحو ذات يوم من الايام القليلة القادمة على دوى المدافع وسوف تجد مدينتك الجميلة هذه شعلة من النيران ، ثم كومة من الانقاض .

ولما ابديت دهشتى نظر إلى دى ليكس طويلا من تحت نظارته وقال :

ـ هل تشك فى كلامى .. هذا الاميرال المتعطش للدماء لن يتورع عن شيء ولا يتردد ان يخوض بحرا من الدماء فى سبيل اللقب ، والاقطاعية والمنصب الذى ينتظره .. ومع هذا السفاح بالسليقة عمر لطفى .. يمكن أن لا يبقى أثر

لهذه المدينة الساحرة .. ولا تستغرب حينما أقول لك أن زميلى قنصل ألمانيا وقنصل النمسا يتفقان معى تماما ، اننا يجب أن لا نتوقع سوى الأسوا ما لم ينتفض الشعب المصرى ويتحد ويقاوم » .

وختم دى ليكس حديثه قائلا :

لقد ضاقت الهند ، بابناء الامبراطورية ويحتاج الامر لضيعة أخرى يمرح فيها أبناء المحافظين والاحرار على السواء .. وبعد قليل سوف تغدو مصر حكرا لبريطانيا خالصا ، ويزاح منها كل ما ليس من صنع بريطانيا !

وكان ويلفريد سكادن بلنت الصديق الحميم بل سفير العرابيين فى بريطانيا فى لندن ، وكانت صلاته الواسعة والوثيقة بكل الاوساط من القصر إلى رئاسة الوزارة فى داوننج ستريت ووزارة الخارجية فى هوايتهول تسمح له بمعرفة أدق الحقائق والاسرار .

وقد كتب فى يومياته حينئذ :

« عرفت عن طريق لورد هارنجتون الذى عرف من الوكيل الدائم للاميرالية « وزارة البحرية » أن ساعة الصفر فى مصر قد تحددت يوم ٤ يوليو حيث يبدأ ضرب الاسكندرية .. وبعد تدمير الطوابى والمقاومة تنزل القوات لاحتلال المدينة ومحاصرة القوات المصرية المحتشدة فى المدينة وابادتها ، وتعززها قوات أخرى تقوم بالزحف إلى القاهرة عن طريق المحمودية ثم امبابة .. « طريق نابليون » وسيكون الطريق مفتوحا امامها .. مجرد نزهة عسكرية .

وقال أيضا : **الوكيل الدائم للاميرالية أن الخطط جاهزة معدة لاحتلال مصر وضمها إلى الامبراطورية البريطانية وتقصى بلنت الحقائق حتى عرف ما هو أكثر خطورة ، وأن اللورد نورثبروك وزير البحرية البريطانى يشرف بنفسه على كل الخطط والتفاصيل . وأن الهجوم من الغرب سوف يكمله أو يحل محله إذا تعثر هجوم من الشرق يبدأ باحتلال قناة السويس ، وتعد قوات من الهند للاشتراك فيها .. مع قوات البحر الأبيض المتوسط » .**

وعرف بلنت ما هو أشد اثارة وهو أن كل شىء قد استبيح فى غزو مصر واحتلالها ، فقد استدعى وزير البحرية البريطانى مستشرقا بريطانيا من جامعة كمبريدج « بالمر » وانتدبه مع بعض ضباط المخابرات البريطانية للقيام بالتمهيد

للغزو من الغرب ، وذلك برشوة البدو والقبائل العربية شرق القناة .. وحمل مبالغ طائلة من المال للمهمة .

ووصل المستشرق بالمر إلى الاسكندرية بعد مذبحة الاسكندرية بقليل وتصادف أن قابل جون نينيه فى الفندق الذى نزل فيه ، واثار اهتمامه اجادته للغة العربية .

« وتصورته في البداية مترجما يعمل فى القنصلية أو يصاحب الاسطول ولكنى وجدته بعد قليل يعرض على العمل معه ، وادركت طبعا ماذا يعنى ، ولما اعتذرت قال لى هذه المدينة سوف تدك بالقنابل عن قريب ، ولن يستطيع اجنبى أن يبقى فيها لان الاهالى سوف يذبحونه » ..

وصحت الاعداد للعدوان حملة تمويه وخداع كبرى ، كان الصراع الاستعمارى من دول أوربا « **العظمى** » على أشده وكان الصراع على مصر يكاد يكون أهم فصول هذا الصراع .

وكانت ألمانيا تريد أن يستغرق الجميع فى الشرق الاوسط ، والمسألة المصرية حتى توطد قوتها وتتم بناء اسطولها لتنزع سيادة البحار .

وأكدت بريطانيا لدول أوربا جميعا انها لا تنوى وليس فى برنامجها قط احتلال مصر أو الاستئثار بها أو ضمها إلى مستعمراتها ، وكل ما تريده إذا ما تحتم التدخل فى مصر أن تقوم بعملية « بوليسية » محدودة ، تقضى فيها على التمرد وتعيد السلطة الشرعية وتؤمن مصالح أوربا ، والمسيحيين فى مصر .. وتحمى « **الحضارة الأوربية المسيحية ضد التخلف والتعصب الإسلامي** .

وطلبت بريطانيا إلى دول أوربا جميعا إذا لم تكن مطمئنة أن تشترك معها فى التدخل .. من أجل الصالح المشترك .. ولكن فى النهاية اتفقت الدول التى لم تكن تثق فى بريطانيا كثيرا على عدم التدخل ورحبت بريطانيا بدعوة فرنسا إلى عقد مؤتمر دولى فى القسطنطينية لبحث المشكلة المصرية .. وهو مؤتمر اعتذرت تركيا عن الاشتراك فيه رغم إنعقاده فى عاصمتها ، ووقعت كل الدول الأوربية المشتركة فى المؤتمر ، ميثاقا سمى بروتوكول النزاهة من الاغراض وينص :

تتعهد الحكومات الموقعة على هذا القرار بانه فى أى اتفاق يتم بشأن تسوية المسألة المصرية لا ترمى إلى احتلال أى جزء من اراضى مصر أو الحصول على امتياز خاص بها أو امتياز تجارى لرعاياها ، دون رعايا الحكومات الاخرى .

وقد صدر البيان يوم ٢٦ يونية سنة ١٨٨٢ والاستعدادات على أشدها للضرب

والغزو والاحتلال .. وضربت الاسكندرية وكان المؤتمر لا زال منعقدا يبحث فى تطبيق الميثاق .

ولم تكن هذه الحقائق غائبة عن « **الثورة** » وزعيمها عرابى ، بل كان أشد الناس ادراكا لها ، ولم يكن يداخله وهم فى أن التدخل شبة محتوم ، وقد ادرك هذا مبكرا جداً فى يناير وبعد المذكرة المشتركة التى بدأ بها التدخل ، وأن بريطانيا ستقف حائلا دون الاصلاح السياسى ، كما وقفت دون الاصلاح الاقتصادى ، وهى لا ريب ستقف بضراوة أشد ضد أى اصلاح عسكرى ، أن أى اصلاح سوف يفسد خطط وذرائع التدخل الجاهزة .

كان عرابى يريد تأجيل التدخل لأطول وقت ممكن ، والتحايل حتى يمكن اعداد مصر لاقصى مدى للمقاومة ، أو استغلال الصراعات الاوربية أو التناقض العثمانى فى هذا الصدد ، ولم يكن ليجهل أن الحرب بين مصر وبريطانيا حرب غير متكافئة وبالغة العناد والوطأة وانه لابد من استنفاد كل السبل إلى السلم .. ولتحميل المعتدى مسئولية العدوان .

ولكنه لم يترك ذرة من الشك أن مصر لن تسلم قط ولن تنهار ارادتها أمام أى ارهاب أو تهديد ، وانه إذا ما أصبحت الحرب محتومة فسوف تحارب مصر ولآخر رجل ، وسوف تمنحها الثورة .. القوة .. لسد ثغرة التكافؤ .

وقد فكر عرابى فى الذهاب مع وفد الزعماء إلى بريطانيا لعرض قضية مصر على الحكومة وعلى الرأى العام البريطانى .

وطلبوا إلى القس صابونجى أن يبحث الأمر مع بلنت فى لندن .. وكان وصول عرابى أو وفد وطنى إلى لندن كفيلا بأن يضع حكومة الاحرار ورئيسها جلادستون فى أشد الحرج ، ويكشف التناقض والنفاق بين تصريحاته وتصرفاته وكان كفيلا بأن يبطل الحملة المحمومة التى كانت الصحافة البريطانية تعد بها الرأى العام .. للاحتلال ولهذا لم يرحب أحد بالفكرة ولم تتم .

وقطعا للشك باليقين كتب عرابى خطابا إلى جلادستون ، بعث به إلى بلنت لتسليمه كان نصه :

سيدى ..

يعلمنا ديننا ونبينا وكتابنا المقدس القرآن أن لا نسعى إلى الحرب أو أن نبدأها .. ولكنه يحثنا أيضا إذا ما فرضت الحرب علينا أن نقاوم ونستميت وأن

لا نكون مؤمنين إلا إذا جاهدنا المعتدين بكل قوة وسلاح وبلا هوادة ونريد أن لا نترك أدنى شك لدى بريطانيا أن لدى أول طلقة تقذف بها مصر فانها ستحل المصريين من كل الالتزامات والاتفاقات والمعاهدات وأن المراقبة المالية وديونها سوف تلغى وأن أملاك الاوربيين فى مصر سوف تصادر وأن القنوات سوف تردم وتهدم وأن المواصلات سوف تقطع وأن المسلمين جميعا فى الشام والجزيرة العربية والهند سوف يستنفرون للجهاد .. وأن مصر هى المفتاح والطريق إلى مكة والمدينة وسوف يهب المسلمون جميعا للدفاع عن الاماكن المقدسة والطرق المؤدية إليها .

وقد بدأت الدعوة فى المسجد الأموى بدمشق ، وسوف تعم منه إلى كل مساجد بلاد العالم الاسلامى واننى أود أن أكرر وأؤكد أن الضربة الأولى التى سوف توجه إلى مصر سواء من بريطانيا أو من حلفائها سوف تفجر بحارا من الدم بطول أسيا وأفريقيا وعرضها وسوف تقع المسئولية كاملة على رأس بريطانيا .

لقد سمحت الحكومة البريطانية لنفسها بأن تقع ضحية قناصلها فى مصر .. وفقدت بذلك أى احترام أو مكانة لها فى مصر .. وليس هناك مشورة أسوأ من أن تحاول بريطانيا استعادة ما فقدته ، بالقوة الغاشمة وبالمدافع أو الحراب .

أن هناك وسائل أخرى أكثر انسانية وصداقة لاستعادة النفوذ وأن مصر مستعدة لازالت وراغبة رغبة صادقة فى الوصول إلى تسوية مع بريطانيا وأن تقيم صداقة معها وأن تكفل الحماية لمصالحها وأن تؤمن طريقها إلى الهند وأن تحالفها ولكن لابد أن يتم ذلك فى إطار حقوقها وسيادتها المشروعة وإذا ما اختارت بريطانيا أن تظل مخدوعة وأن تتباهى وتهدد باسطولها ، وبجيوشها الهندية ، فهى حرة أن تفعل ذلك ولكن عليها أن تعرف الثمن وأن لا تخطىء فى تقدير وطنية الشعب المصرى ، أن قناصلها فى مصر لم يحيطوها قط علما بما تغير فى مصر ، وما حدث هنا منذ نهاية طغيان اسماعيل .. والشعوب فى عصرنا هذا تحقق قفزات مفاجئة وشاسعة فى طريق الحرية والتقدم .

ولابد أن تتأكد بريطانيا أننا سوف نقاوم ونحارب وقد صممنا على هذا ، وأننا نفضل أن نموت شهداء فى سبيل وطننا ، أو أن ننتصر ونعيش احرارا سعداء فيه وعلى هذا يحرضنا ديننا ونبينا .. أننا نجد السعادة فى كلا الحالين ولا حدود لشجاعة شعب هذا هو ايمانه .

أحمد عرابى

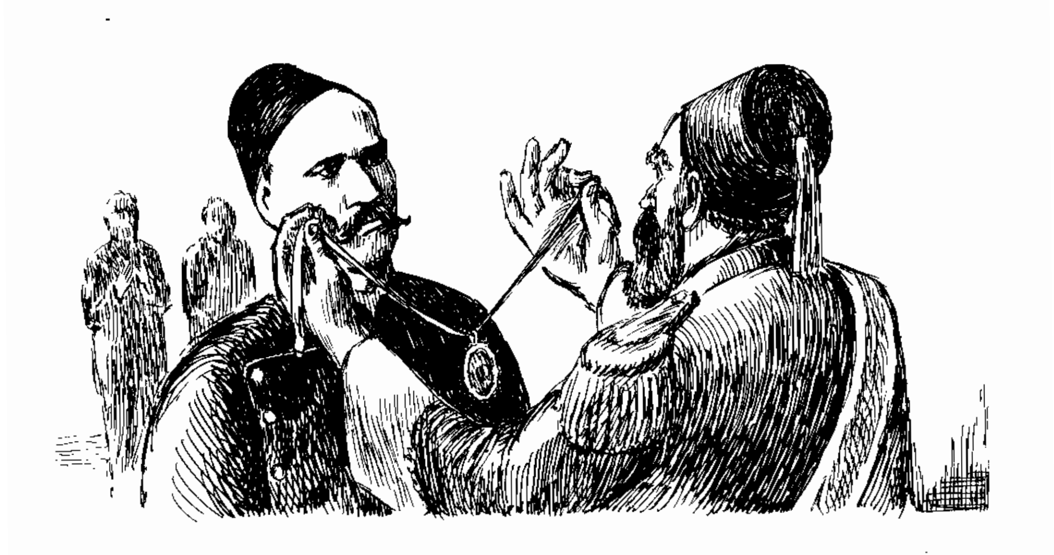
ولم يصل الخطاب إلى جلادستون ، وبعد أسبوع من كتابته وصل الانذار الاخير من الاميرال . كان الاختيار البريطانى قد تم وكان الرد المصرى جاهزا :

وبعد يومين من هذا الخطاب فى ٤ يوليو سنة ١٨٨٢ وفى نفس اليوم الذى وصل فيه أول انذارات الاميرال ، وصل من اسطنبول رسول خاص ومعه فرمان ونيشان لعرابى باشا واقام الخديوى حفلا لتسليمه والقى خطابا عبر فيه عن « رضائه واعترافه بالجميل لخدماتى المخلصة وأدائي لواجباتي وشكرت سموه وارسلت للسلطان أشكره على الانعام السامي » .

وتلقيت على غير العادة رداً من السلطان يمتدح أعمال وتصرفاتي » .

واقام درويش باشا مندوب السلطان الخاص حفلا آخر لتكريم عرابى .. ثم وجه إليه الدعوة للذهاب إلى اسطنبول لقضاء بعض الوقت مع السلطان وبين الاصدقاء هناك .

كان « **أنسب الأوقات** » ولم يفت على عرابى الغرض من الانعام والدعوة .. واعتذر بأن الشعب فى مصر لن يسمح له !!



كفر الدوار

كان القرن التاسع عشر عصر دبلوماسية القوارب المسلحة ، وكانت أهم أسلحته ، كان ذروة عصر القوة البحرية وتقاس فيه الدول بمدى مدافع أساطيلها وبقدرتها على التحكم فى البحار والمحيطات .

وبعد صراع طويل دامى ، استمر منذ القرن الخامس عشر ، ببداية الاكتشافات الجغرافية والطرق الجديدة إلى الشرق والغرب واشتبكت فيه كل دول أوربا الغربية ، خرجت بريطانيا سيدة البحار ، ولهذا سيدة العالم وتحكم حتى أمواج المحيط ، وقامت الامبراطورية وتعاظمت وعاشت بالأسطول ، وكان يكفى فى معظم الأزمات ارسال (قارب) منه ليحقق كل الأهداف ، وربما قبل أن تنطلق منه قذيفة .

وإذا ما أعلن الأسطول عن خروجه قاصداً بلداً ما فلابد وأن يستولى عليه الذعر ، ودائماً ما يستجيب إن لم يركع .

واختلف الأمر هذه المرة ولم تكف هيبة الامبراطورية وكل مدافع الأسطول لتخضع بلداً فى الشرق .

انطلقت المدافع وأنصب الجحيم ، ولكن نشبت أطول معركة بحرية فى مياه الشرق وأكثرها شجاعة وبسالة .

وسقطت المدينة واحترقت ولكن لم تسقط مصر ولم تنهار إرادتها .

وتحول الاهتمام كله وأنصب إلى الجولة القادمة والرد على الهزيمة ، تضميد الجروح وتعبئة البلاد واختيار ميدان المواجهة .

وغادر عرابى الاسكندرية فى ١٣ يولية سنة ١٨٨٢ متوجهاً إلى الميدان الذى وقع عليه الاختيار فى كفر الدوار .

وفى الطريق وقفنا على شاطىء المحمودية فى انتظار الذهبية التى تقله إلى هناك ، ونظر إلى سحب الدخان الكثيفة والسنة اللهب الحمراء التى كانت تتصاعد وتغطى سماء المدينة ، بعد يومين من الضرب ، وعلى هذا البعد .

وقال بأسى .

ـ كنا نستطيع أن نفعل مثلما فعل الروس وأن نحرق الاسكندرية كما أحرقوا موسكو ، ولم يكن أحد ليلومنا .

هاجمنا الانجليز بغير ذنب وبغير إعلان حرب .. وكان من حقنا فى الدفاع أن نحرق المدينة ولا نترك لهم فيها سوى الأطلال .. ولكننا لم نفعل بل وأخذنا قراراً بالمحافظة عليها .

قلنا إن الاسكندرية مدينة نصف أوروبية ولا نريد أن نقدم ذريعة أخرى لاتهامنا بالتعصب وبالنقمة على الحضارة المسيحية الأوروبية وهى منبر عالمى ولا نريد صراخاً وعويلاً أننا نقوض التجارة والمصالح الأوربية وأصدرت بنفسى الأوامر المشددة إلى طوابى كوم الدكة وكوم الناضور ألا تشترك فى الضرب ولا ترد وذلك لموقعهما من أحياء السكن .. ولكن انظر كيف قابل الأميرال مسلكنا ، لم يعبأ بشىء ، ولم يراع أى أصول للحرب ، وأطلق قنابله كما يشاء على المواقع والمساكن وعلى المدنيين والعسكريين وعلى النساء والأطفال والرجال معا .. لم يفرق أو يميز بين المعركة والمذبحة .. ونشر الموت والخراب فى كل مكان .. وسوف يلصقون بنا ـ رغم كل شىء ـ التهمة ، وسوف يخرج بريئاً مكللاً بالغار .

وبينما نتحدث لمحت على الشاطىء الآخر شيئاً أثار انتباهى وهو قطار الخديوى الخاص قادماً من القاهرة بلا ركاب .

ولفت نظر عرابى باشا وسألته مستغرباً .

واستغرق عرابى فى احتواء آثار الكارثة وكان عليه مهمتان ثقيلتان أشد المهام وطأة وهما تهجير الأهالى وتنظيم انسحاب القوات وعلى الأصح انقاذها وقد تدافع الأهالى بفصائل وكتائب الجنود الذين تشتتوا بعد أن صدرت إليهم أوامر الانسحاب وكان لابد من السيطرة على الموقف ، وتهدئة روع الأهالى ، وتجميع وتوجيه القوات .

ولم يكن هذا ممكناً إلا بواسطة عرابى نفسه ، وهو الوحيد الذى تستجيب له الجميع .. الأهالى والجنود على السواء والذى يستطيع أن يثبت قلوبهم ويرد لهم الثقة ويعيد لهم الطمأنينة وهو فقط الذى يقنعهم أن المحنة عابرة وإن مصر باقية .



وقضى عرابى ، أشق يومين فى حياته وأشقاهما أيضاً وواجه كل الانفعالات من الناس ، والأخطار أيضاً ، وتنقل من حى إلى حى ومن شارع إلى شارع ، يخطب ويجادل ويضمد الجروح والآلام ، ويحث على الصمود ويبشر بالأمل .

وغادر الاسكندرية بعد أن أصبح محتوماً أن يغادرها وقبل آن يتم احتلالها .

ووصل الركب إلى كفر الدوار ، وكان في استقباله اللواء محمود باشا فهمي ومعه أركان حربه الأميرال محمد بك شكرى ، وكان عرابي قد بعث بهما منذ تأكدت نهاية المعركة البحرية ، وذلك لاختيار أفضل ميدان للمعركة (البرية) وإعداد الخطوط والاستكامات والحصون .

وبدأ محمود باشا فهمى وأركان الحرب العمل لدى وصولهما على الفور ، وحينما وصل عرابى والقادة كانت (**استراتيجية**) المعركة جاهزة ويجرى العمل ليلاً ونهاراً فى الاستعداد لها .

وشهدت (**كفر الدوار**) فى صباح اليوم التالى نهاية قصة الخديوى والثورة ، إذ عاد القطار خالياً كما ذهب ، اعتذر الخديوى عن العودة واحتجز معه كل الوزراء ، وبعث برسالة إلى عرابى (**تأمره**) بالحضور على الفور إلى الاسكندرية ، وتقول :

صاحب السعادة عرابى باشا وزير الحربية .

تعلمون أن ضرب الاسكندرية وما تسبب عنه من كوارث ، كان بسبب رفض المطالب التى تقدم بها الأميرال وهى وقف كل الأعمال والترميمات فى الحصون والطوابى والتى كانت تسبب انزعاجه ، وأوضح الأميرال حينئذ أنه إذا استمرت

تلك الأعمال سيجد نفسه مضطراً إلى تدميرها ، ولكنه وعد إذا ما تم هذا ألا يتجاوز الضرب تلك الطوابى ولن تصيب مدافعه شيئاً سواها ، وهو ما نفذه بالفعل ولم يتجاوز حدوده ، وبهذا أثبت الأميرال أن ليس لديه اعلان حرب على مصر .

واليوم أرسل الأميرال ما يفيد أنه يريد عودة العلاقات إلى ما كانت عليه بين مصر وبريطانيا ، وأن تستأنف الصداقة كما كانت وذلك بأن تقوم بتسليم المدينة لأى قوات مصرية نظامية تكون جاهزة وقادرة على حمل هذه المسئولية ، وإذا لم تتوفر هذه القوات الآن فهو على استعداد لتسليم المدينة لقوات عثمانية حتى تستعد القوات المصرية .

وتعلمون أن مؤتمر القسطنطينية الدولى لا زال منعقداً حتى الآن ، وأنه قرر أن الباب العالى وحده هو الذى يملك حق التدخل فى شئون مصر .

ولهذا فإنى أدعوكم للحضور فوراً وبمجرد استلامكم هذه الرسالة لنبحث معكم ومع مجلس الوزراء طلبات الأميرال هذه .. والاجراءات التى تستلزمها .

وحتى يتم هذا ، فإنى أطلب إليكم التوقف نهائياً عن أى استعدادات وتجهيزات عسكرية ، مما أصبح لا فائدة منه .

وأدرك عرابي ما تعنيه الرسالة وأن الخديوي قطع الشعرة الأخيرة ، وأسفر نهائياً عن وجهه واختياره .

وقرر أن يكتب رداً يتوجه به إلى الأمة قبل أن يبعث به إلى الخديوى .. وكان نصه .

ـ ما الذى جاء بهذا القطار الآن .

وابتسم وقال لى :

ـ طلب إلى بالأمس وأنا أودعه أن أرسل له القطار الخاص من القاهرة لأنه يريد أن يعود إلى العاصمة ولا يبقى فى مدينة محتلة .

وطربت وهللت للخبر وقلت له :

ـ هذا أعظم ما يمكن أن يحدث ، تحققت الوحدة الوطنية وسوف يرى العالم مصر صفاً واحداً فى مواجهة العدوان .

ولم يدعنى استطرد وقاطعنى متهكماً .

- لا يذهب بك الحماس بعيداً لا أحد يستطيع أن يصدقه ، وهو مثل كل جنسه خائن كذاب لا أمان له .. انتظر لبضع ساعات حتى ترى القطار عائداً يحمله وأسرته ووزراءه .

وأقبلت الذهبية وعليها عدد من القادة وركب عرابى ، وسارت إلى المحطة القادمة فى كفر الدوار .

كما روى صديقه جون نينيه .

وقد لقى عرابى كثيراً من اللوم لموقفه من الخديوى . وأعتبر من أهم أسباب الفشل أن لم يكن أولها .

ومنذ الأزمة الأولى ، وبداية وصول الأساطيل فى مايو سنة ١٨٨٢ ، وقبول الخديوى مطالب الدولتين نصح كثيرون من السياسيين والعسكريين عرابى ، بخلع الخديوى أو التخلص منه نهائياً ، واعلان الجمهورية ، وبذلك تأمن الثورة ويتغير تاريخ مصر وتاريخ الشرق والاسلام .

ورأى عرابى أن هذه مغامرة متطرفة قد تعجل بالتدخل وتعصف بأسس الديموقراطية « **الوليدة** » فى بدايتها .

وحينما اشتدت الأزمة وانتهت إلى تولى عرابى وحده كل السلطات ، وضمانه للأمن وكل المصالح ، طلب الخديوى أن ينتقل كالعادة إلى الاسكندرية خلال الصيف ، وتكررت النصيحة لعرابى ألا يسمح له بذلك ، لأن وجوده إلى جوار الأساطيل تهيىء له كل فرص التآمر .. ولابد له أن يبقى تحت رقابة « الثورة » فى القاهرة وإذا كان قد استطاع من العاصمة أن يدبر المذبحة فلا حدود لما يفعله وهو مقيم قرب الأساطيل ، واكتفى عرابى بتأمين المدينة ولم يوافق .. لم يجد ضرورة لمواجهة حاسمة معه .

وحينما بدأت المعركة تحولت النصيحة إلى طلب مباشر بوضع الخديوى تحت الحراسة الكافية والمشددة .. والحيلولة بينه وبين الاتصال أو الانضمام للغزاة ، ولكن الخديوى كان أكثر حماساً (**للقتال**) والدفاع من كل الآخرين ، بل ولام عرابى لوماً عنيفاً على قبوله التسليم ، وأمره أن يحشد القوات فى الطوابى الرئيسية ليمنع نزول الغزاة إلى أرض المدينة بعد التسليم .

كان الخديوى بارعاً ماهراً فى استغلال (**طهارة**) عرابى .. الثورية ، وحرصه

المطلق على الشرعية والدستورية ، وربما خيط الأمل الدقيق فى أن يصلح شأن (**هذا الأمير الفاسد**) !

قبل أن يغادر عرابى المدينة تقدمت النصيحة لآخر مرة بأن يقنع الخديوى أو يرغمه على أن يغادر معه ، والا يتركه لينحاز أو ينضم علناً للأميرال ، ولكن الخديوى لم يترك له مبرراً وطلب ارسال قطاره الخاص ليعود إلى عاصمة بلاده .. ويشارك (**الشعب**) مصيره تاركين المدينة فى رعب وفزع ، بعد أن فقدوا كل شىء ، إستشهد آلاف منهم ، وإختلط الأهلى .

صاحب السمو .

تسلمت الرسالة التى تدعونى فيها للحضور للتفاوض حول مقترحات تقدم بها الأميرال البريطانى أمس ، وقبل التعرض لهذه المقترحات ، يجب أن أتعرض لما جاء فى الرسالة حول ضرب الاسكندرية .

قلتم سموكم أن الضرب كانت نتيجة لرفض الطلبات التى تقدم بها الأميرال ، ولابد من توضيح أن هذا أمر يتنافى والحقيقة .

ولاشك تناسيتم سموكم أن الرد على طلبات الأميرال صدر من مجلس الوزراء الذى انعقد فى جلسة خاصة برئاسة سموكم وبحضور مندوب عظمة السلطان وخصصت كلها لبحث الطلبات ، وفى النهاية تقرر أن الطلبات كلها غير مشروعة ومجحفة ولا مناص من رفضها كاملة ، ولم يختلف فى هذا أحد سواء من أعضاء المجلس أو من أقطاب البلاد الذين دعوا لهذه الجلسة الإستثنائية .. حول مصير البلاد .

وأجمع الحاضرون على أن طلبات الأميرال تتنافى تماماً وكل المبادىء والشرائع وتتعارض والحقوق الطبيعية والمشروعة لأى شعب ، وهى ضد أبسط قواعد القانون الدولى ، وضد أى قانون أو عرف للحرب أو السلم .

واتفق الجميع على أن مجرد تقديم الأميرال لتلك الطلبات كان لطمة واهانة قصوى لشرف البلاد وكرامتها ، وأن كل ما تذرع به جنابه كان إدعاءات باطلة وافتراءات كاذبة .

ولاشك تناسيتم سموكم .. أن الرد على طلبات الأميرال ألقى عليه شخصياً مسئولية أى عدوان يقع على مصر ، وحمل بريطانيا أمام العالم مسئولية تصرفات الأميرال ، بل وقرر أن القيام بعدوان مثل هذا هو سابقة شاذة لم تسبق لها فى

تاريخ الدول والأمم ، وأن الظلم والبهتان يقع على شعب بلا ذنب أو جريرة .

إن مصر لم تعلن الحرب على أحد ولم تقم بأى استفزاز ضد أحد ، ومع هذا جاءت الأساطيل وألقت مراسيها فى المياه الاقليمية المصرية ، وفى أهم موانئها وصوبت مدافعها نحو أرضها ، ثم طلبت إليها أن لا تقوم بأى اجراء دفاعى تعزز به أمنها ، بحجة أن هذا يهدد تلك الأساطيل ، وفرض على مصر ظلماً ألا تقوم بأى استعداد أو اجراء مشروع للدفاع ، بينما تصاعد التهديد ضدها كل يوم .

ولا نظن أن سبق فى علاقات الدول موقف أشد غرابة ولا نعتقد أن حدث له نظير من قبل .

وفى ظل هذه الوقائع والمطالب ، تتالت تصريحات نفس هذه الدول توكد حرصها على السلام وتمسكها بالصداقة مع مصر ، ولعلها لم تجد ما تؤكد به هذا الحرص سوى ارسال الاساطيل وتصويب المدافع .

ولابد أن سموكم تذكرون ولا تنسون أن رد الحكومة المصرية قد لقى أكبر صدى من الشعب وأيدته كل الطبقات والطوائف تأييداً حماسياً ، ولم يرتفع صوت واحد يعترض عليه .

ولهذا كله فإننى لا أشك يا صاحب السمو أن مقترحات الأميرال التى تقدم بها تبعث على الثقة أو تنبىء عن حسن نية ، وهى إن دلت على شىء فإنما على أنه لا زال على ما هو عليه ، يضمر الحرب ويتحدث عن السلم ، والحرب على أى حال لا زالت قائمة بيننا ولم تتوقف . وتتوافد القوات البريطانية يوماً بعد يوم وتنزل فى أرضنا ، ولم يحدث أن أوفى الأميرال بأى وعد أو احترام أى مبدأ وقد سلط مدافعه خلال الضرب بلا تميز على كل شىء .. وسقطت قنابله على أحياء السكن وعلى الأهالى العزل ولم تفرق بين النساء والأطفال ، وراح ضحيتها آلاف وانتهى إلى تدمير المدينة وتحولت بفضله إلى خرائب واطلال . بعد ما حرم عليها الاستعداد للدفاع وحماية نفسها .. وأتت الحرائق التى زادت من وطأتها العواصف على كل ما تبقى منها فى مأساة من أشد كوارث التاريخ .

ونحن ـ يا صاحب السمو ـ لا نرفض السلم وأى مقترحات تؤدى إليه ، والجيش المصرى لا زال جيشاً نظامياً قوياً قادراً على أفضل ما يكون ضبطاً وربطاً وهو كفيل بأداء كل مهامه خير أدائه ويستطيع فوراً تولى مسئوليته كاملة ، لو كان الأميرال جاداً فى مقترحاته .. ويتأكد هذا بتوفير الشروط اللازمة لتنفيذها .

إننا لا نستطيع يا صاحب السمو أن نتجاهل أن حالة الحرب لا زالت قائمة بين البلدين ، وأن المسئول عن بدئها واستمرارها هى بريطانيا ، ولا تنتهى هذه الحالة طالما بقى الأسطول راسيا فى مياهنا الاقليمية .. ولا يمكن مطلقاً الرجوع عن قرار مجلس الوزراء فى جلسته الاستثنائية والقاضى بمقاومة العدوان مهما كان السبب إلا بانسحاب الأسطول .

وطالما بقيت هناك قوات بريطانية وهى تتوافد كل يوم وبحشود كبيرة وتعزز الاحتلال وتدعمه ، فإنه من المستحيل قيام مباحثات أو مفاوضات حقيقية منزهة عن الضغط وبكفالة السيادة المصرية والارادة المستقلة .

وإذا كان الأميرال والدولة البريطانية تعنى ما تتقدم به من مقترحات فما عليها إلا أن تقوم بسحب الأسطول نهائياً ومعه كل القوات من مياهنا الاقليمية ومن المدينة المحتلة .. وقبل هذا سوف تكون أى مفاوضات عقيمة بل باطلة ولن تجدى .

وإذا ما حدث وقبل الاميرال الانسحاب فإننى على استعداد ـ يا صاحب السمو ـ أن ألبى دعوتكم وأحضر على الفور لبدء التفاوض .

ويؤسفنى فى النهاية أن أقرر أننا لا نستطيع أن نتوقف عن الاستعداد والتعبئة ، وهذا أقل ما يمليه واجبنا فى الدفاع عن الوطن وعن مصير البلاد .

وتذكر سموكم ما اتفقنا عليه قبل العدوان من ضرورة تجهيز جيش حديث من ٢٥ ألف جندى على الأقل ليستطيع حماية الوطن ، ونحن لا نقوم سوى بتنفيذ ارادتكم .

أحمد عرابى

ولم يتوقع الخديوى هذا الرد ، وبعد ثلاثة أيام من وصوله ، أصدر مرسوماً بإقالة عرابى باشا من وزارة الحربية ، وتجريده من كل مناصبه ، وحرمانه من كل ألقابه ، واعتباره عاصياً ، وخارجاً على القانون .. لأنه رفض طاعة الخديوى والامتثال لأوامره ، وتنفيذ واجباته ! .

وثبت أن خطاب الخديوى كان من املاء السير « اوكلاند كولفن » المستشار المالى البريطانى ، وفى نفس اليوم الذى أرسل فيه ، بعث القنصل البريطانى كارترايت إلى وزير الخارجية جرانفيل برقية تقول .

« استدعى الخديوى اليوم عرابى ، وتقرر اعتقاله بمجرد حضوره واعلانه عاصيا وخارجا على القانون .

وبتبادل الرسائل بدأت المواجهة صريحة ، وانقسمت البلاد إلى طرفين ، سلطة موالية « **خائنة** » بزعامة الخديوى فى الاسكندرية ، وسلطة وطنية « **ثورية** » بزعامة عرابى فى كفر الدوار .. وأصبح محتوما الفصل فى شرعية السلطتين .

لم يشهر عرابى خيانة الخديوى وعزله وتوليه كل السلطات . ولم يكن هناك ما يمنعه أو يعترض عليه ، بل كان هناك من يرى أنه تأخر طويلاً فى هذا القرار ولكن عرابى أصر حتى فى أدق الظروف وأشدها حرجاً ، أن يحرص على الشرعية ويؤكدها وإلا يستمد سلطته إلا من تفويض شعبى علنى وصريح .

وبعث عرابى بالرسائل المتبادلة إلى رجل الثورة ومسئولها الأول فى القاهرة « يعقوب باشا سامى » وطلب الاستفتاء عليها ودعا يعقوب باشا كل ممثلى الشعب ونوابه وكل أقطاب البلاد وأعيانها إلى اجتماع وطنى يحسم الأمر .

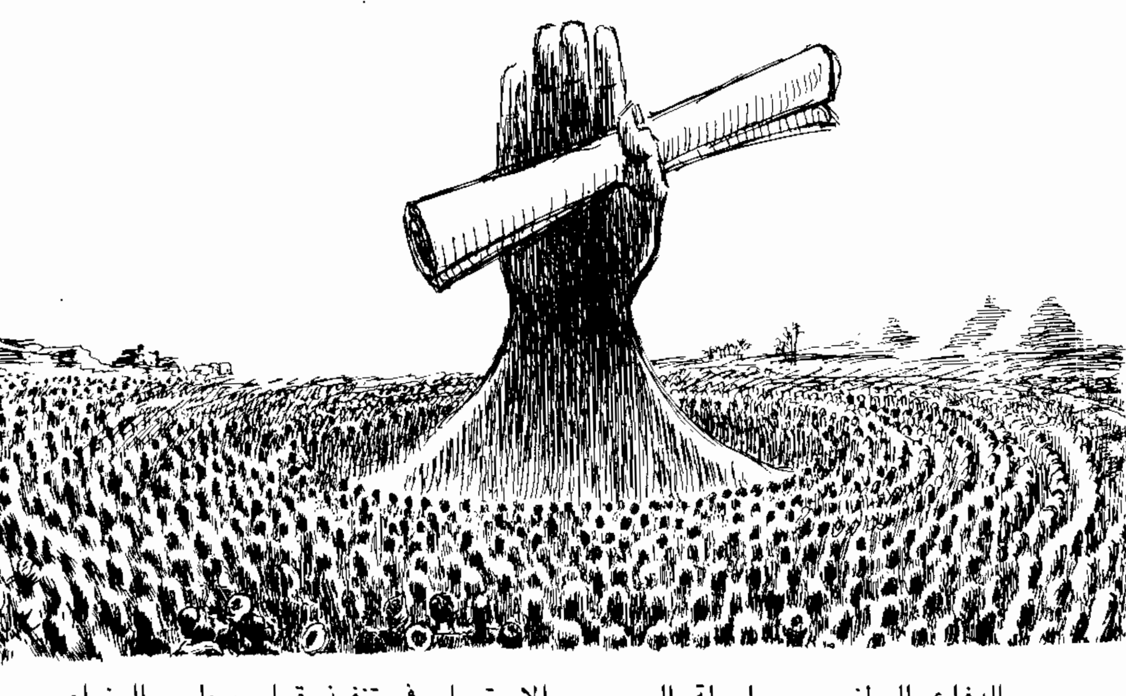
وعقد اجتماع ضم مصر كلها وكان أهم اجتماع عقد فى تاريخها .

شهده ما يقرب من خمسمائة شخص من كل الطبقات والفئات والطوائف ، تصدره ثلاثة من أمراء الأسرة المالكة ، وكل الباشوات والبكوات الاحرار والوطنيين ، كان أكبرهم سناً من عصر محمد على وعباس الأول ، وحضر كل الرؤساء الروحيين شيخ الاسلام والمفتى وقاضى القضاة وشيخ مشايخ الطرق ، وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود الأكبر .. وشهده حشد من كبار الموظفين والمديرين والمحافظين .. ووفد موكب من العمد والأعيان من كل أنحاء البلاد .

وانتهى الاجتماع إلى اعلان قيام « **المجلس العرفى** » من كل الأعضاء وأن يصبح السلطة الشرعية والتشريعية فى البلاد ، وأعلن عن تكوين حكومة مؤقتة من أعضائه ، تتولى ادارة البلاد ، وعن تكوين لجنة دفاع وطنى تتولى « **ادارة الحرب** » .

وخلال المناقشات اقترح على باشا مبارك تكوين لجنة وساطة تسافر إلى الاسكندرية لمحاولة المصالحة ورد الخديوى إلى طريق الصواب ، ووافق المجلس وانضم إليه من يشاء من الأعضاء .. وأعلنوا لدى وصولهم الاسكندرية انضمامهم للخديوى .. ورغم الصدمة تطهرت صفوف المجلس من الخيانة الباقية .

قرر المجلس عزل الخديوى وتجريده من كل سلطاته وبطلان أى مرسوم أو أمر أو قرار يصدر عنه ، لأنه لم يعد يملك ارادته ، وقرر المجلس بطلان قراره بعزل عرابى ، وتثبيته فى منصبه وتكليفه باسم المجلس العرفى والحكومة المؤقتة ولجنة



الدفاع الوطنى ، بمواصلة الحرب ، والاستمرار فى تنفيذ قرار مجلس الوزراء الصادر فى ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ .

وصدرت القرارات بالاجماع ، وتكونت الحكومة المؤقتة من الأمير كامل وحسين باشا الدرملى وبطرس باشا غالى ، وأحمد باشا نشأت على أن يضموا من يشاءون ، وبدأت مباشرة سلطاتها على الفور .

وأرسلت القرارات إلى الباب العالى فى اسطنبول للتصديق عليها .

وأنتخب أحمد رفعت سكرتيراً عاماً للمجلس العرفى ، ويروى الوقائع قائلاً

وقف الأمير كامل فى بداية الاجتماع وقال أين الخديوى .. أنه غير موجود ولم يعد له بالنسبة لنا أى وجود ، كان يمكن أن نعترف به لو كان هنا على رأس حكومته ووسط شعبه ، ولكنه الآن أما أن يكون أسيراً لا يستطيع تحرير نفسه أو حليفاً خائناً لدولة أعتدت على بلادنا وقامت بمحاربتنا ، ولهذا لابد من خلعه

وعرض للتصويت قراراً بتنحية الخديوى لأنه خرج على الوطن والدين ونقض الشرعية الدستورية ، ولم يعد أهلاً لممارسة الحكم .

وكان التصويت برفع اليد ووافق الجميع بلا استثناء .. ثم وقع كل عضو بامضائه وبملء حريتهم وفى جو مفعم بالحماس .

وقبل جلسة التصويت طلب يعقوب باشا سامى إلى القائمقام محمد عبيد ان لا يحضر وذلك كفالة للحرية التامة وحتى لا يتهم العسكريون بارهاب الأعضاء أو حملهم على الموافقة .. وكان مشهورا بعنفه وصرامته .

وصوت المجلس بنفس الطريقة والحماس على القرار الآخر ببطلان عزل عرابى باشا وتكليفه بمسئولية الدفاع عن الوطن وحماية كل شبر فيه .

وتسلم عرابى التكليف ودعا الأمة جميعها للوقوف معه لأنه لا يستطيع شيئاً بغير مشاركة كل فرد فيها .

وبدأت الاجراءات بإعلان التعبئة العامة بدعوة « الرديف ».. أى الاحتياطى .. ولم يستجب الجنود المسرحون استجابة الأمة كلها .

وكما يروى أحمد رفعت .

لم تكن هناك قوة أو سلطة في البلاد تستطيع أن ترغم مائة ألف من المصريين على أن يهرعوا للتطوع في بضعة أيام وكما لم يحدث من قبل في تاريخ مصر ، ولو لم تكن هذه الروح موجودة ومستغلة لما صمدت البلاد وانهارت المقاومة أمام القوة البريطانية الجبارة .

وكتبت صحف العالم .. الصحف العثمانية والصحف الأوروبية تسجل الظاهرة « لأول مرة تندفع جموع الفلاحين المصريين للقتال ، بعد ما كان هذا هو الشبح الذى يهرب منه بأى ثمن » .

ولم يقتصر التطوع على الفلاحين أو على المصريين ، وانهالت الرسائل على عرابى من كل أنحاء أوروبا والعالم الاسلامى .. تعرض التطوع ، وتطلب الاشتراك ف المقاومة ، بعث ضباط وجنود ومواطنين من مختلف الجنسيات يؤكدون تاييدهم لقضية الشعب المصرى العادلة وكفاحه الباسل ، ويطلبون شرف المشاركة ، وأعلن ابن غاريبالدى عن تأليف فرقة كاملة من المتطوعين للذهاب إلى مصر .

اتجهت انظار مصر والعالم كله إلى « كفر الدوار » وأصبحت رمزاً للحرية والمقاومة .. وقال عرابي في دفاعه بعد ذلك :

« قدم المصريون كل التضحيات الممكنة من أجل حرية بلادهم ، واقامة العدل ف ربوعها قدم البعض كل ما يملك وقدم البعض نصف ما يملك ، ولم

يبق مصرى لم يقدم شيئاً من أجل وطنه ووقف الجميع مع استمرار الحرب ولم يبخلوا بحياتهم أو ممتلكاتهم . ولم يبق شيء من أسباب الدفاع ومقوماته لا يتوفر لدينا ، سارع الآلاف للتطوع للقتال . وقدم مواطنون عاديون لا أقل من ثلاثين حصاناً وثلاثة آلاف أردب من الغلال ».

« ولم تكن تنقطع مواكب الوفود من كل أنحاء البلاد ، وانهالت الرسائل والبرقيات بالتأييد والتشجيع سواء من المواطنين البسطاء أو من الأعيان والوجهاء وكانت وزارة الحربية لا تلاحق الرد عليها .. ولا زالت محفوظة في سجلاتها دليلاً على وطنية شعبنا » . .

« وفي ظرف ثلاثين يوماً كان لدينا جيش من المتطوعين يصل إلى مائة ألف ، ولدينا ثمانية آلاف حصان ، وأربعة آلاف بغل وامتلأت مخازن الجيش بكل مواد التموين وتدفقت التبرعات المالية حتى امتلأت خزائن وزارة الحربية .. كانت روحاً وطنية لم يضطرم مثلها من قبل لا في تاريخ مصر أو في تاريخ الشرق والاسلام» .

كان أفضل رد على الذين ادعوا أن المصريين شعب مقهور ترهبه حفنة من المغامرين وخير دليل على أنه شعب ثار ليحقق حريته بكل ما فيه من قوة » .

وأكد ذلك أحمد رفعت قائلا .

[تفجر الحماس طبيعياً وتلقائياً في نفوس الجميع من الأمراء إلى الفلاحين ، وبايع الجميع عرابى زعيماً للوطنية وحامياً ومدافعاً عنها ، وأرسل الأمراء والأميرات برقيات ورسائل التأييد والتشجيع وأثمن الهدايا والتبرعات ، أرسلت له أرملة سعيد باشا خيمة القيادة التى كانت لزوجها .. وأرسلت الأميرات الخدم والأغوات يحملون رسائل الولاء والتبرعات . ولم يكتف الأمير ابراهيم بما تبرع به - وكان أسخى المتبرعين - أرسل أربعة جياد عربية نادرة إلى عرابى وأركان حربه .. وكان يشرف بنفسه على المستشفيات ورعاية الجرحى .. وكونت حرم أحمد باشا نشأت جمعية لرعاية الجرحى واعداد المواد الطبية اشتركت فيها بحماس الأميرات وسيدات الذوات] .

وسرى الحماس بين رجال الدين وكانت الصلوات والدعوات تقام ليل نهار في الكنائس والمساجد ، وخاصة في الأزهر والحسين .

وكانت المظاهرات لا تنقطع في شوارع القاهرة والمدن الأخرى تهتف كلها « **الله**

ينصرك يا عرابى ».. وهو هتاف شاع فى مصر كلها . وكانت مظاهرات الأطفال الصغار تطوف الأحياء تغنى :

تـوفيـق يـاوش القمـــلة ..

مـن قـالك تعمـل دي العمـــلة ..

شطب اسم توفيق من سجلات مصر ، وقام جيل جديد كامل هو جيل عرابى .

وكانت الحكومة المؤقتة كما وصفها عرابى « أقرب ما تكون إلى الجمهورية » ووصفها بلنت بأنها .

« أفضل حكومة تولت شئون مصر .. ولم يسبق أن حكمت مصر ودبرت شئونها بمثل هذه الكفاءة والنزاهة » .

تولى الأمن العام ابراهيم بك فوزى وزير الداخلية ، وتولى البوليس اسماعيل أفندى جودت وكلاهما من أخلص الوطنيين ، ولم يحدث حادث واحد يخل بالنظام ، وحينما حاول اثنان أو ثلاثة من المديرين الشراكسة والموالين للخديوى العبث بالأمن ، اعتقلوا على الفور وألقى بهم فى السجن ، واستتب النظام تماماً طوال الحرب ، وتكفلت الحكومة بحماية كل الأوروبيين الذين اختاروا البقاء فى القاهرة ، ورحل كل من طلب منهم المغادرة إلى بور سعيد فى حماية خاصة من البوليس .

« ولم يتأخر أحد فى دفع الضرائب ولم يتهرب أحد منها كما لم يحدث قط من قبل ، ولم يقع أى حادث اختلاس أو رشوة أو تلاعب بأموال أو ايرادات الدولة .. لم يختلس قرش واحد ولم يضع مليم ، وحينما انتهت الحرب كانت كل دفاتر الدولة وحساباتها وخزائنها سليمة تماماً .. وطبقت العدالة تطبيقاً صارماً ، ولم يبد على سير الأمور أن كانت هناك حالة حرب أو طوارىء ، وحينما انتهى كل شىء كانت هناك مؤن لمدة أربعة أشهر فى مخازن الجيش » .

وأمام هذه الروح وللقضاء عليها قبل أن تستفحل قرر البريطانيون الزحف لسحقها فى كفر الدوار ، وكما كان ضباط الأسطول بقيادة سيمور على ثقة أن المعركة لن تستغرق أكثر من عشرين دقيقة كان ضباط الجيش البريطانى بقيادة الجنرال اليسون على ثقة بأن معركة كفر الدوار لن تستغرق ساعات ، لأنها « وقفة يائسة للمغامرين » .

وكان فى انتظارهم مفاجأة أقسى . .

انهمك محمود باشا فهمى ، منذ اللحظة الأولى فى العمل ، واعتمد على الحماس

الجارف للأهالى والجنود فى اقامة خطوطه واستحكاماته .

وضع محمود باشا فهمى تصميم المواقع بمساعدة أركان حربه الأميرالاى محمد بك شكرى وكانا من أكفأ ضباط الجيش المصرى وتألفت من ثلاثة خطوط للدفاع يبعد كل منها عما يليه بأربعة أو خمسة كيلومترات وأمام كل خط خندق عمقه خمسة عشر قدماً .

وأقيمت المعاقل على جميع المرتفعات والآكام .. وركبت فيها المدافع وعددها خمسون مدفعاً .

واستغرقت القوات النظامية وقوات المتطوعين فى تدريب « مكثف » على طول هذه الخطوط والمواقع واستعد الجميع لمعركة فاصلة .

ورغم فرط الثقة لم يجازف البريطانيون ببدء الزحف إلى القاهرة إلا بعد ثلاثة أسابيع وبعد استدعاء قوات كبيرة من بريطانيا .. وقواعد البحر الأبيض .. وبدأ الهجوم يوم ٥ أغسطس .

« تحرك الانجليز يريدون التقدم من جهة الرمل باورطتين من المشاة وأورطتين من الفرسان ، ولما صاروا على بعد ألف وخمسمائة متر من موقع المصريين ، تصدى لهم البكباشى أحمد أفندى البيار والبكباشى مصطفى أفندى حسان ، ومعهما أورطتان من الفرسان وأوقفوا تقدمهم ، ثم وصل خورشيد باشا طاهر قومندان خط الدفاع فى أبى قير ومعه ثلاثة بلوكات من الفرسان ، وشن المصريون هجوماً شديداً على الانجليز واضطروهم إلى التقهقر وولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصفاً » .

ولم يصدق الجنرال البريطانى « اليسون » ما حدث وعاد بعد يومين يحشد من القوات ليصحح الأوضاع .

وهاجم الانجليز مقدمة الجيش المصرى فى كفر الدوار وتقدم جناحهم الأيسر على جسر ترعة المحمودية وتقدم الجناح الأيمن بطريق السكة الحديدية من القبارى وجاء القلب من طريق كوبرى المحمودية ، ولما التقوا بالمصريين صمد هؤلاء لقتالهم ، ودافعوا دفاعاً مجيداً ، وانبرى للمسيرة البكباشى محروس أفندى يقود أورطته وأبلى بلاء حسناً وجرح أثناء المعركة وصمد للقلب والميسرة البكباشى محمد أفندى فودة ومعه أورطة أخرى واشتد القتال فى هذه الناحية .. واستمرت المعركة أربع ساعات انتهت بتقهقر الانجليز منهزمين وصار المصريون على أثرهم حتى حجبهم الظلام » .

واشتد حرج الانجليز وغيظهم .. وعادوا مرة أخرى بحشد أكبر ولكن بنفس النتيجة . واستمرت المعارك طوال الشهر .. وانتهت بقيام المصريين بهجوم عام وصل حتى مشارف الاسكندرية .

وما كان مقدرا له يوم واحد استمر أسابيع .

وتأكد البريطانيون أن المصريين سدوا طريق نابليون أمامهم .. وقال بلنت « **لو كان طريق كفر الدوار هو المدخل الوحيد لمصر لكسب المصريون الحرب** » .

وحينما نشب القتال بعث إليه صاحبه القس صابونجى من مصر رسالة تقول : .

قابلت أصحابك قبل ساعات ووجدتهم صارمين مستعدين للقتال وللمقاومة حتى آخر نقطة دم .. ومهما كان « الثمن » .

وتعين قائد جديد للحملة على مصر هو السير« جارنيت ولسلي » أحد كبار قواد الامبراطورية واستدعيت قوات بلغت ٥٦ ألف جندى لتكون تحت أمرته ، وبدأ البحث عن طريق آخر إلى القاهرة .

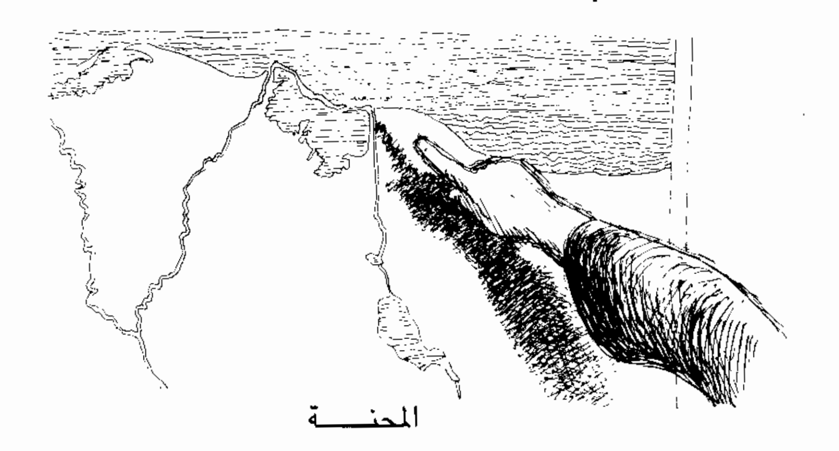
أنجب الفلاحون المصريون الزعيم المقاتل والذى لا يستسلم .

دخل عرابى الجيش فى الرابعة عشرة من عمره وحينما عين « بلوك أمين » فى عمل كتابى طلب أن ينقل للجيش العامل .

واسترعى بقامته وملامحه وقوته انتباه « سليمان باشا الفرنساوى » الضابط السابق فى جيش نابليون وأحد مؤسسى الجيش المصرى فى عهد محمد على ووجد فيه نموذج المحارب الفلاح الذى جنده ودربه . وكسب به معاركه حتى أبواب القسطنطينية .

وحينما أراد الوالى سعيد باشا أن يكون ضباطا مصريين صميمين من أبناء الفلاحين ومن تحت السلاح كان عرابى أول المرشحين .. واستطاع أن يرتقى سريعاً بشجاعته ونزاهته ، ووصل فى سن العشرين ليكون أصغر « **قائمقام** » فى الجيش المصرى .. واختاره سعيد باشا ياوراً خاصاً وأهداه الكتاب الذى بدأت به مسيرته الثورية وهو حياة نابليون بونابرت .

وظل يحمل فى نفسه كل تراث الفلاحين المقهورين الذين خرج من بينهم ، وآمن بهم وبحقهم وقدرتهم على الخلاص .. ولهذا كان التسليم آخر شىء فى حساباته .



المحنـــة

لم تكن الجبهة الشرقية غائبة عن اهتمام القادة ، وكانت استراتيجية مصر واضحة محددة لديهم .

كان « الخطر من الشرق » قاعدة تقليدية فى الاستراتيجية المصرية ، وتجددت وتأكدت بعد بعث العسكرية المصرية فى عصر محمد على ، وقد صقلت وتعمقت فى الحروب العديدة والمجيدة التى خاضتها مصر .

وحاربت مصر فى البر والبحر ، وبعلوم وفنون واسلحة العصر ، وحاربت فى الصحراء فى شبه الجزيرة العربية ، وحاربت فى اليونان فى جبالها ووديانها . وحاربت فى السودان بسهوله وأدغاله ، وكانت ذروة حروبها الزحف الطويل من القاهرة حتى أبواب القسطنطينية .. واعتبر أحد الانجازات العسكرية العظمى فى القرن الماضى .

وتجددت العسكرية المصرية فى عصر اسماعيل بمقومات أفضل وأحدث ، وفى ظل واقع متطور مختلف .. غيرت قناة السويس فى سياسة العالم واستراتيجيته واقتصاده ، وأن لم تغير فى اهمية وحساسية الجبهة الشرقية بالنسبة لأمن مصر .

وفى عصر اسماعيل حاربت مصر فى أفريقيا ، فى شرقها ووسطها ، وكشفت مجاهلها ، وحاربت فى تركيا مساندة للدولة العثمانية ضد روسيا القيصرية ، وحاربت فى المكسيك مجاملة لامبراطور فرنسا صديق الخديوى ، واكتسب الضباط مزيدا من الوعى والخبرة وكان بطل كل الحروب الجندى المصرى « **الفلاح** » ، وكان قرار محمد على بتجنيد الفلاحين أحد القرارات الاستراتيجية التى صنعت تاريخ مصر ، وبرزت خلال حروب اسماعيل نماذج جديدة فتية من القادة هم « الضباط الفلاحون » ممن ارتقوا من تحت السلاح بقرار سعيد باشا ، وكان القرار الاستراتيجى الثانى فى تاريخ العسكرية وتاريخ مصر عامة .

وتكونت نواة الثورة من هؤلاء ، وتشربوا هذا القدر من العلم والخبرة ، وورثوا تراثا ممتدا لأكثر من ثمانين عاما فى مختلف ساحات القتال فى عدة قارات ، ولم يكن غريبا أن يكون إدراكهم لاستراتيجية مصر ومقوماتها أدق وأعمق من سابقيهم .. كانت مصر وطنهم الذى اكتشفوه وقرروا انقاذه وتحريره .

ومنذ اشتدت الازمة وتقدمت الانذارات ووصلت الاساطيل فى مايو ١٨٨٢ اتجه الاهتمام إلى جهة الشرق ، وإلى تأمينها ، وكان من أهم بنود التطوير العسكري الذى وضع برنامجه عرابى بعد توليه وزارة الحربية فى وزارة البارودى .

وتلاحقت الاحداث سريعة وعنيفة وانتهت إلى الحرب ، ولكنها نشبت فى الغرب .. وبدأت فى الساحة الاخرى .

ولم يغفل نشوب الحرب على الجبهة الغربية من أهمية الشرق .. وكان هناك قلق من أحتمال قيام البريطانيين بالهجوم على الجبهتين .

وخلال العمليات فى كفر الدوار ، دعت لجنة الدفاع الوطنى فى القاهرة إلى اجتماع خاص للمجلس العرفى لبحث مسألة الجبهة الشرقية ، وناقش الاجتماع الامر مناقشة طويلة مستفيضة ، وتقرر بعدها أن تأمينها اصبح ضرورة استراتيجية عاجلة ، وأن افضل وسيلة لهذا بل والوسيلة الوحيدة هى تعطيل قناة السويس . ولابد أن يتم هذا فى أسرع وقت ممكن ، وعرضت خطة اعدت لهذا الغرض وتقضى بأن يكون التعطيل فى أربعة مواقع معينة هى : رأس العش وسنيل والقنطرة والشلوفة ، وتقوم به فرق خاصة تدرب على العملية وتزود بالألات والمتفجرات اللازمة ، وتستطيع اتمامه فى ليلة واحدة .

وتقرر فى الاجتماع أن لا يلتفت بأى حال لما يمكن أن تقدمه فرنسا من احتجاجات أو تثيره أوروبا من صخب وضجيج لأن المسألة حياة أو موت بالنسبة لمصر ولا تحتمل المساومة أو التأخير .

وصدرت هذه القرارات بالاجماع ، وارسلت إلى كفر الدوار حيث وزير الحربية ، وأركان حرب الجيش ، للتصديق قبل التنفيذ .

ووافق الجميع على قرارات المجلس ولكن اعترض عرابى ومحمود فهمى على توقيت التنفيذ ، ورأيا انه لا ضرورة لأن يتم فورا وان من الافضل تأجيله وأن يكون مشروطا بوقوع انزال أو عدوان بريطانى على أى موقع فى القناة .

وكانت حجج الاعتراض سياسية واستراتيجية .

ومنذ بدأت الحرب فى مصر ، ثار أشد القلق فى أوروبا حول مصير القناة ، كانت

شريان التجارة الدولية الرئيسى وما يهددها يهز كل الاقتصاد الاوروبى والعالمى ، وقامت حملة فى الصحف الاوروبية بوحى من مختلف الحكومات تطالب أوروبا بأن تقوم باجراء « جماعى » لحماية القناة وتأكيد حيادها ، سواء بوقف الحرب أو تسوية النزاع سياسيا .

وحضر ديلسبس إلى مصر ليسعى فى المهمة ، وقام فور وصوله باتصالات مكثفة مع كل الاطراف ، وشرع فى ارسال البرقيات والرسائل إلى عرابى فى كفر الدوار .. وألح فى ألا تقوم الثورة بأى اجراء ضد حيدة القناة ، وتصور عرابى أن اهتمام أوروبا لابد وأن يدفعها للتدخل ، وانه إذا ما أقتنع ديلسبس بحسن نية مصر فسوف يصب كل جهوده نحو هذا الهدف .

وبعث له برد على مراسلاته يقول : « **أود أن أؤكد لك اننا أشد الناس حرصا على حياد القناة . واننا نعتبرها إحدى المنشأت العظيمة ، والتى علينا أن نحافظ عليها وعلى سلامتها بكل عناية . لقد أرتبط بها اسمك ودخلت بها التاريخ ، ولابد أن نصونها .**

ولى الشرف أن أبلغك رسميا أننا لن نقوم بأى عمل يعد خرقا لحياد القناة أو تعطيلا لها ولن نلجأ إلى هذا إلا إذا اضطررنا إلى ذلك اضطرارا ، وذلك إذا ما قام البريطانيون بأى عمل من أعمال العدوان على بورسعيد أو الاسماعيلية أو أى مكان آخر على القناة .

واعترض البعض على هذا الموقف وقالوا انه يترك المبادرة فى يد العدو ليبدأ بالعدوان ، وأنه يحرم مصر من أن تسبق بالاجراء الوقائى الوحيد الذى يمكن أن يضمن سلامتها ويحمى امنها .

ولكن كان عرابى هو « الزعيم » والذى يرى الموقف بكل عناصره وأبعاده ويتخذ القرار .

وقدم محمود فهمى الاعتراض الاستراتيجى ، وهو انه فى الوقت المبكر للعمليات ، من الافضل التركيز وتوجيه كل القوى إلى جبهة واحدة ، وأن الصمود وهزيمة البريطانيين واثبات عجزهم لاشك سوف يدفعهم إلى الاعتراف بالواقع ، وعدم التورط أكثر .. وقد بدأ الرأى العام الاوربى يندد بالحرب ، وبدأ الرأى العام البريطانى يكشف نفاق حكومته ، وسوف تتألب هذه القوى لتدفع بريطانيا إلى المصالحة والتفاهم مع الوطنيين المصريين .

وانتهى الجدل بالموافقة على اتخاذ كل الاستعدادات اللازمة ، وأن يظل كل شىء

جاهزا ومعلقا على ساعة الصفر بمجرد وقوع أى عدوان .

وحينما نشر أن عرابى قرر احترام حياد القناة تنفست أوروبا الصعداء . وأن كانت لم تتدخل أو تفعل شيئا .

وما لبث أن وصل القائد البريطانى الجديد الجنرال السير جارنيت ولسلى ، وعلى رأس حشد من القوات ، ووسط دعاية طنانة بانه فاتح مصر .. وتأكد أن بريطانيا ماضية فى خططها ، واصبح فى امكانها ، بهذا الحشد من القوات الذى بلغ ستين ألفا تقريبا ، أن تفتح جبهة أخرى ، خاصة وقد تواترت الاخبار بأن قوات بريطانية هندية تمخر البحر الأحمر قادمة من بومباى وفى طريقها لاحتلال مدينة السويس .

ولم يمكث الجنرال ولسلى طويلا فى الاسكندرية ، وغادرها على رأس اسطول كبير متجهاً إلى بور سعيد وقرر الاسراع بالمفاجئة على الشرق .

وبدأ تحول الحرب إلى الشرق وأصبح واجبا ، تعبئة كل شيء وتوجيهه إلى هناك .

ودعت لجنة الدفاع الوطنى إلى اجتماع عاجل للمجلس العرفى لبحث الموقف الطارىء .

أصبح الشغل الشاغل للجنة الدفاع الوطنى مواجهة الغزو القادم ، والاعداد بأسرع وقت وبأقصى قوة والقيام بكل جهد لتحصين وتعزيز خطوط دفاع تلك المنطقة المكشوفة .

وتقرر أن ينتقل محمود باشا فهمى على الفور إلى الجهة الشرقية للقيام بالمهمة ، وكانت شهرته قد اصبحت عالمية ، طبقت الآفاق ، استطاعت خطوطه واستحكاماته أن تصد الانجليز وتردهم عن كفر الدوار .

وتقرر أن يسير على باشا فهمى فورا على رأس جيش يتكون من كل القوات التى خصصت للدفاع عن القاهرة إلى القناة ويحتل مدنها ، ويواجه أى محاولة انزال أو عدوان .

وانتقلت فرقة التدمير بمعداتها ومفجراتها ، وفى حالة تأهب تنتظر ساعة الصفر .

وأرسلت قرارات المجلس إلى كفر الدوار للتصديق ، ووافق الجميع بلا استثناء ، وقبل أن يتم التوقيع وصلت رسالة أخيرة مستميتة من ديلسبس تقول :

« أرجو أن لا تقوم بأى عمل يعطل القناة ، إننى هنا فى بور سعيد ولا تخش

شيئا قط من هذه الناحية لن ينزل جندى بريطانى واحد إلا وفى ظهره جندى فرنسى ، وأنا أضمن هذا وأعتبر نفسى مسئولاً عنه » .

وتصور القائد العام أن التدخل الأوربى « المسلح » قد بدأ ، وتردد فى التصديق ، وطلب اعادة مناقشة الموضوع .

ولم يتوقف زحف الجنرال ولسلى ، ووصل إلى بورسعيد يوم ٢٠ اغسطس ١٨٨٢ ، ووصلت الانباء .. وان لم يظهر هناك أى أثر لاساطيل فرنسية تلاحقه أو قوات تشرع حرابها فى ظهر كل جندى بريطانى .

ونجابت الغشاوة ، وتكشف الخدعة ، ودعى لاجتماع طارىء عاجل ، دارت المناقشات فيه حامية عنيفة .. وانتهى إلى صدور الأمر بنسف المواقع الأربعة .

وحينما وصل الأمر بالتنفيذ ، كان الوقت قد فات ، واستطاع الجنرال ولسلى أن يصل إلى الاسماعيلية وأن ينزل قوات بلغت ثلاثين ألفا هناك .. ووصلت القوات الهندية إلى ميناء السويس ، وشرعت فى احتلال المدينة .

كان سباقا مع الزمن كسبته بريطانيا بخدعة .

وهللت الصحف البريطانية لاحتلال الاسماعيلية ، وتباهت بالعمل العسكرى البارع والذى « جعل الدفاع عن مصر مستحيلاً ومهمة يائسة اذا ما حاوله عرابى » ، ودعته إلى التسليم .

كانت ضربة قاصمة والقيت المسئولية كلها على عرابى وحده ، وكان صديقه الحميم بلنت أشد الناس لوما وتقريعا !

كان تردد عرابى هو السبب ، وهو أشد لطمة لسمعته الاستراتيجية ولبراعته السياسية ، وأن كان لم يغفل أن يقول : ومع ذلك لن تصبح مهمة ولسلى نزهة عسكرية .

ولم يفصل أحد فيما اذا كان ديلسبس متواطئا أم مخدوعا بدوره .. وأيا كان الأمر ، فإن احدا لم يلحق اضرارا بمصر بقدر ما فعل ، استنزف شعب مصر وثروتها فى حفر القناة ، وبدأت به مأساة الديون التى غرقت فيها مصر وفى النهاية غرر بها فى اللحظة العصيبة .. وأدى إلى ضياع استقلالها .

وقد اعترف ولسلى بالجميل بعد عام من الاحداث وقال فى خطاب عام فى حفل فى لندن :

« لو نجح عرابى فى تعطيل القناة كما كان ينوى أن يفعل لكنا لا زلنا حتى الآن وإلى هذه اللحظة نحاصر مصر فى أعالى البحار .. كان تأخيره أربع وعشرين ساعة هو الذى انقذنا » ..

ولم يتخاذل أحد ـ مع هذا ـ وتجاوز الجميع الخدعة والصدمة ، وان كان الحظ قد بدأ وكأنه يتخلى عن مصر .. وظهر ان القدر يخبىء لها أكثر من صدمة .

لم يكد محمود باشا فهمى ينتهى من اختيار المواقع والقواعد ، ويضع الصميمات ويحدد ساعة المعركة الفاصلة وكانت فى التل الكبير ، حتى وقع له ما لم يكن فى تصور أحد أو فى حسبانه .

وبمحض صدفة سيئة وقع القائد الفذ والذى تعلقت به الآمال فى الاسـر .

كان يقف على تبة عالية يتفقد المواقع مع أحد معاونيه حينما فاجأته دورية بريطانية ضلت طريقها وتجاوزت الخطوط البريطانية .

ولما كان يرتدي الملابس المدنية وليس هناك ما يدل على شخصيته ، فقد أراد أن يقنع الضابط قائد الداورية أنه مجرد مالك للأرض وكان يتفقد حقوله ولا صلة له بالحرب .. وكاد يخلى سبيله لولا أنه رأى من الا حوط ان يصحبه إلى مقر القيادة .. حيث قضى الأمر .. واكتشفوا هناك شخصيته .

ولم يكن ممكنا ان يتوقع البريطانيون ضربة حظ سهلة مثل هذه ، وقع فى يدهم بمحض الصدفة القائد المصرى الذى لا يعوض ، لم تكن هناك ضربة أشد يمكن أن تنزل بالمصريين ، وهم يستعدون لمعركة فاصلة فى التل الكبير .

خرج محمود فهمى من المعركة ، وحينما عثر البريطانيون على خرائطه وتصميماته فيما بعد وصف بأنها « لو قدر لها ان توضع موضع التنفيذ لكانت عقبة رائعة أمام تقدم القوات البريطانية وكفيلة بصد زحفهم ، ولكن شاء قدر غريب أن يوجه للمصريين ضربة قلما يدرج مثلها في حلبات الحروب » .

كما قال بلنت :

وأسرع عرابى باشا إلى الجبهة الشرقية حيث تولى القيادة . وروجعت الخطط وتقرر تعديلها ، وبعد استطلاعات دقيقة تقرر القيام بالمبادرة وتقديم موعد الهجوم المضاد وأن يبدأ بكل القوى المتوفرة فى القصاصين .

وضع عرابى خطة المعركة وكانت تقضى بأن . ؟

يبدأ الهجوم من القصاصين ويقوم محمود سامى بقواته بالهجوم على الجناح الأيمن من الصالحية ويقوم راشد حسني بالهجوم من الأمام وتلتف قوة أخرى من الصحراء بقيادة على فهمى وتفاجئهم من الخلف ، ودرست الخطة ورجعت أكثر من مرة وجرى التدريب عليها ، ونفذت جزئيا حتى أصبحت مكتملة تماما .

وتولى القيادة أشهر قادة الميدان فى الجيش المصرى وهما راشد حسنى وعلى باشا فهمى نائبا له .

وبدأ الاشتباك ، وقالت جريدة التايمس « صمد المصريون وقاتلوا بعناد شديد واستطاعوا أن يلحقوا خسائر كبيرة بالفرقة الرابعة » .

وبقيت نتيجة المعركة بعض الوقت فى الميزان لان الانجليز فوجئوا بالهجوم المركز .. وكاد يقع فى الاسر القائد الثانى للحملة وهو الدوق أوف كنوت ابن عم الملكة فيكتوريا وان يكون ثأراً كافياً لمحمود فهمى .. ولكن ما لبث أن اصيب قائد المعركة ، وأصيب نائبه .. ونقلا من الميدان .. ولم تصل القوات الاحتياطية التى كان مفروضاً أن تصل من الصالحية وبذلك تحولت النتيجة .. وتغلب البريطانيون وان لم تكن النتيجة فاصلة .

لم يفتقد المصريون إلى كفاءة التخطيط أو شجاعة التنفيذ ولم يفرطوا فى شبر واحد بغير قتال مستميت ولم تهزهم أو تزعزعهم الصدمات .. ولم يخسروا الا بعد أن تدخل عامل أخير حاسم لم يضعوه قط فى حسابهم .

وحدث أن ذهب قائد معركة القصاصين السير تشارلز ويلسون إلى عرابى فى سجنه وقدم له ملفه وقال له :

ـ هل هذه خطتك وهل هذا خط يدك ؟

وأجاب عرابى .

ـ نعــم ..

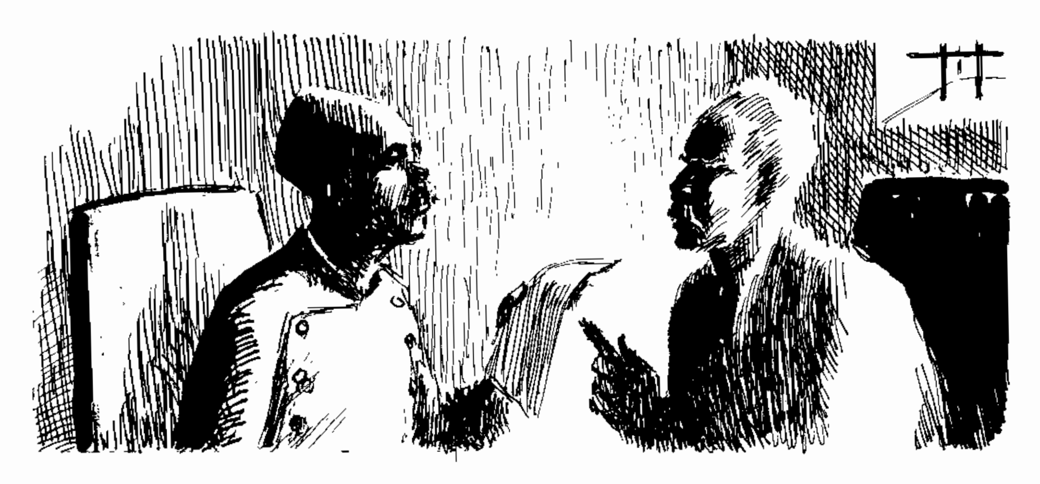
قال القائد ..

ـ لقد كانت معنا وحصلنا عليها من القائمقام .

ولم يرد عرابى على العار ..

وقال القائد البريطانى .

ـ هذه خطة جيدة وكان يمكن أن تهزمنا بها .



قامت الامبراطورية ودامت بفضل مدافع الاسطول ولكنها لم تكن السلاح الوحيد ، وكان هناك ما لا يقل فتكاً ، وهو سلاح برعت فيه بريطانيا وتقدمت فى استخدامه واشتهرت به ، وممارسته فى كل أنحاء الشرق ، وكان اسمه فى القاموس السياسى البريطانى « الخائن المحلى » .

وكسبت بريطانيا المعركة الحاسمة فى الهند ، وهى معركة « **بلاسى** » فى البنغال بهذا السلاح أولاً ، وبعدها أصبحت قصة « الأمير جعفر » الذى باع للانجليز درساً أولياً لبناة الامبراطورية .

ولابد أن نبدأ مشاريع الغزو والضم بالبحث عن هذا الأمير .

ولم تكن المهمة عسيرة فى مصر ولم تستغرق بريطانيا جهداً أو وقتاً فى البحث ، وعثرت على رؤساء وزارات مثل نوبار ورياض وأخيراً شريف ، ووجدت الأمير منتظرا فى أعلى مكان ، واكتشفت حلفاً عريضاً من الطبقات والفئات العليا ولكن كانت الثورة أقوى ، وقد ضمت حلفاً أعمق امتد من الأمراء حتى الفلاحين المعدمين .

وأصبح ضرورياً لهذا التنقيب فى صفوف الثورة نفسها ، واكتشاف حلقة ضعيفة ، ويمكن أن تشق صفوفها أو تهدم من صروحها ولم يكن ممكنا أن يعثر البريطانيون على صيد أثمن من الرجل الذى وضع الخاتمة وهو « محمد باشا سلطان » أو « **أبو سلطان** » كما كانت شهرته العامة .

كان سلطان باشا « الدينامو » السياسى كان شيخ البلد الذى استطاع أن يرتقى ليكون الباشا الفلاح ، الأول والاقوى والاغنى بين فلاحى مصر وكان طبيعياً أن ينضم إلى الثورة ، وأن يصبح الذراع «**السياسى** » لعرابى .. « وأهلته مكانته وهيبته على مصاطب الريف وفى دواويره أن يصبح « ملك الصعيد » كما لقب » .

وكان من أشد الناس حيوية واندفاعاً ، وحينما اصطدمت الثورة بالخديوى كان من انصار البتر « أنه مجرم ومن سلالة مجرمين .. ولن يصلح شىء طالما بقى على العرش »!

وكرمت الثورة سلطان باشا وأوكلت إليه أرفع المناصب ، وتولى السلطة التشريعية ، واختير أول رئيس لأول مجلس نيابى .. وهيأ له المنصب سلطة ونفوذاً واسعاً فى المجلس وفى الحزب وفى الجيش وبين كل السياسين والعسكريين عامة ، ولم يكن هناك ما يتم أو يحسم الا بعد الرجوع إليه .

ولم يتصور أحد يومئذ أن « أبو سلطان » كان يتطلع إلى ما هو أبعد بكثير من هذا ، وان طموحه « الساذج » وأنانيته الريفية « **الجاهلة** » كانت تقنعه انه احق بكل السلطات ، وبكل ما لا تؤهله له قدراته أو صفاته .



محمد سلطان باشا

ولم يستشف أحد أن ابو سلطان كان يرى فى نفسه صاحب الفضل الأول والأخير على الثورة ، وأنه لولا جهوده ونفوذه والتفاف العامة والخاصة حوله ، لما نجحت أو امتدت ، وأنه لابد وأن يجلس الجميع تحت اقدامه لتلقى نصائحه وتعليماته .

ولم يدرك أحد أنه لم يسعد بأن يتجاوزه « عرابى » ويصعد إلى الذروة . وأن يصبح الشعبية معبود الجماهير والزعيم ، و « **الوحيد** » كما كان لقبه الشائع .

ولم يدرك أحد أنه لم يغتبط باختيار شريف باشا ليكون رئيسا للوزراء بعد مظاهرة عابدين ، وساءه أن شريف لم يختاره وزيراً معه .. رغم اختياره بعدئذ لرئاسة مجلس النواب ، وأنه ولهذا عبأ النواب لاسقاطه ثأرا لشخصه أكثر مما كان تصميماً على تطبيق الدستور .

ولم يدرك أحد أن هذا كان نفس موقفه من اختيار محمود سامى البارودى خلفاً لشريف ، ورئيساً لأول وزارة وطنية « **ثورية** » فى مصر .. ولأنه لم يكن وزيراً فيها .

وحينما بلغت الأزمة ذروتها بالصدام بين الوزارة والخديوى ، الذى قبل الانذارات وتآمر مع القناصل ، تعثر موقف أبو سلطان « **وترنح** » بين الطرفين .. ثم سقط فى ساعة الفصل والاختيار الأخير .

وجد الخديوى والقنصل البريطانى الفرصة مهيأة .. لاستدراجه ، وألقوا كل المغريات فى طريقه .

وأكد البريطانيون للباشوات الخونة والانتهازيين أن مهمتهم فى مصر لن تتجاوز قمع الفتنة والشغب واعادة السلطة الشرعية وتثبيت اركانها ، ولن يبقى لهم بعد ذلك ما يفعلونه أو ما يحملهم على البقاء فى مصر .

وأطمأن هؤلاء الباشوات إلى أن مصر سوف تصفو لهم ليحكموها ويملكوها بعد تصفية الثورة ، وتحت المظلة البريطانية .. غير المباشرة !

ولا ريب ، تأكد سلطان باشا أنه سوف يكون أفضل الورثة .. ولا أحد سواه أجدر بالمسئولية أو أقدر على ملء الفراغ لن يصلح « شريف باشا » المتفرنج المتعالى الذى لا يحس بالناس أو يرتبط بهم ، ولن يصلح « نوبار » الارمنى الذى لا يجمع المصريون على كراهية واحتقار أحد أمثله ولن يصلح « رياض » الشركسى المستبد ، الذى لا يؤمن سوى بالكرباج والسخرة واخضاع « **الفلاحين** » .

لن يكون سواه ليستطيع أن يقنع الشعب يقدم البديل الأفضل « **للثورة** » التى « **صنعها** » .

وربما تصور « أبو سلطان » أيضاً أنه لو اثبت قدراته ومواهبه فسوف يقتنع به الانجليز ولا يبقى ما يحملهم على التمسك بالخديوى وأسرته الأجنبية الغاصبة .. ويولون بدلا منه أبو سلطان ويصبح « **ملك الصعيد والدلتا** » فعلاً لا لقباً .

سقط أبو سلطان فى شباك الخديوى والقنصل ، وأوكلوا اليه وأن يعبىء قوى « **الثورة المضادة** » وأن يوجهها ويوزعها لتجهز على الثورة ! .. ووضعت الامبراطورية تحت امرته كل ما أعدته من أموال وأجهزة .

وكانت بريطانيا قد أعدت « خطة كبرى للرشوة » وشراء النفوس اشرف عليها وزير البحرية اللورد نورثبروك وتفاخر بانها سوف تكون من المآثر التاريخية فى سجل الامبراطورية .. وتسرب النبأ إلى الليدى جريجورى زوجة صحفى كبير متعاطف مع مصر وحملته إلى بلنت الذى تابع القصة باهتمام وكشف كل تفصيلها .

« توجه ضابط مخابرات بريطانى هو الكابتن جيل إلى جامعة كمبريدج لكى يدعو المستشرق البريطانى « جون بالمر » استاذ اللغة العربية لتبادل الأفكار مع اللورد تورنبروك وزير البحرية فى لندن » .

« ودهش الأستاذ القابع فى صومعته للدعوة وفرح بها .. وسارع إلى تلبيتها وعلى مائدة الأفطار شرح له الوزير الهدف وأنه اختاره لمهمة وطنية دقيقة هى اقناع بدو الصحراء الشرقية وسيناء وغزة بمساندة بريطانيا خلال عملية غزو قريبة لمصر » ..

« ووعده بمبلغ كبير ومرتب شهرى ووضع تحت تصرفه كل الأموال اللازمة ، على أن يسافر فورا إلى الاسكندرية .. وأن يناقش التفصيلات الأخرى مع الاميرال سيمور ، وسيكون مرافقه « الكابتن جيل » الذى سوف يشرف على « **مكتب المخابرات البريطانية** » فى الاسكندرية » .

وجاءني « بالمر » قبل سفره ، وقال أنه صحفى من جريدة « الستاندارد » وأنها

أو فدته إلى مصر لتغطية الأحداث ، لأنه شديد العطف على الوطنيين ومعجب بعرابى ، وأنه يريد بعض التوصيات إلى معارفه منه .

« ولم يوح لى بالثقة .. ولم أطل الحديث معه واعطيته بعض التوصيات غير الهامة » .

ووصل بالمر ـ الذى خلف يوميات ومذكرات كاملة حصل عليها بلنت ـ إلى الاسكندرية .. وقابل الاميرال الذى رحب به ترحيباً حاراً ، وهنأه على أن بريطانيا لا تزال تنجب رجالاً مثله ، وطمأنه على أن ضرب الاسكندرية وغزو مصر مؤكد وقريب جداً ، وأن مصر فى طريقها إلى الضم إلى الامبراطورية .

وتصادف أن قابل جون نينيه فى الفندق الذى كان ينزل فيه ، ولما وجده يجيد العربية عرض عليه العمل فى مهمة دقيقة .. ولما اعتذر أكد له أنه لابد أن يقبل لصالحه وسلامته وأن المدينة سوف تدك عن آخرها بمدافع الاسطول ، ولن يسلم اجنبى يبقى فيها » .

وسافر بالمر إلى الجهة الشرقية . ولحق به بعد أيام الكابتن جيل يحمل مبلغاً طائلاً من المال .

وكان جيل يحمل أيضاً قائمة سلمها إليه الخديوى وكتبها بخطه وتحمل اسماء كل مشايخ البدو الذين يمكن أن يستميلهم ويقنعهم باسم الخديوى .. وطلب إليه أن يتوجه إلى اثنين منهم خاصة هما « سعود الطحاوى » و « محمد التبلى » وكان أشد المشايخ استجابة وتلبية للرسالة « سعود الطحاوى » .

كان أقوى البدو فى مديرية الشرقية وأوسعهم نفوذاً وكان محنكاً متمرساً ، عمل طويلا مع دىلسبس خلال حفر القناة .. وجمع ثروة كبيرة ، وأجاد معاملة الأجانب .. واختاره دىلسبس لأن جده كان من الذين انضموا إلى نابليون بونابرت خلال الحملة الفرنسية !

وكان سعود الطحاوى « **بلديات** » عرابي ومن أقوى انصاره وأشد المقربين إليه وكان محل ثقته التامة ، واعتمد عليه فى جمع المعلومات عن القوات البريطانية وتحركاتها .. وانتشرت رجاله بين خطوطها يؤدون المهمة !

ولم يكن الذهب والوعد بالسلطة والعملاء الذين اشتراهم بالمر وجيل هم كل ما وضعته بريطانيا بين يدى سلطان .

واستطاع اللورد دوفرين السفير البريطانى فى اسطنبول أن يقنع السلطان الذى كان يقتنع بكل ما تطلبه بريطانيا ، بأن يصدر منشوراً باعلان عصيان عرابى وخروجه على الشرع وعلى الأمة .

وكان العالم الإسلامى قد بايع عرابى فى موسم الحج .. زعيماً للإسلام والمسلمين وتوافدت عليه وفود من مختلف أرجاء العالم الإسلامى والعربى على كفر الدوار .. لتؤكد له ولاءها وتعلق آمال المسلمين به .. وحملت التبرعات والهدايا ورسائل التأييد .. وأثار هذا قلق السلطان بقدر ما أثار قلق بريطانيا ..

لم يكن أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ليغفر لعرابى انه تزعم ثورة وانها تتجه للعرب وللمسلمين وانهم يستجيبون لها بحماس ، وانها تنادى بالديمقراطية بل وربما بالجمهورية .. كانت هرطقة ولابد من استعمال السلاح الذى بقى لدى السلطان ، واعلان خروج عرابى على الإسلام !

وتسلح « أبو سلطان » بكل هذا العتاد وبدأت حملته المنظمة للغزو من الداخل .. وكانت له من صلاته الواسعة الوثيقة ما يمكنه من استقطاب وشراء عدد من ضعاف النفوس ، من السياسين والعسكريين ، استطاعوا عن طريق المواقع والمناصب التى يحتلونها أن يخربوا كل شيء .

كان أهم ضحاياه السياسين عبد السلام المويلحى زعيم المعارضة فى عصر اسماعيل وأحد أقطاب المجلس خلال الثورة ـ ولكن أخطر ضحاياه كان من العسكريين وأولهم أحمد عبد الغفار قائد سلاح الفرسان ونائبه القائمقام عبد الرحمن حسن ، ثم القائمقام على يوسف خنفس قائد المشاة .. واستطاع كل منهم أن يشترى بعضاً آخر من ضباطهم .. المرؤسين وسرى السم فى قلب القوات .

وقبل أن تبدأ معركة القصاصين كانت الخطة كاملة بخط وخريطة عرابى مع القائد البريطانى ، وسلمها له القائمقام على يوسف خنفس .. وتولى سعود الطحاوى تضليل جيش محمود سامى حتى لا يصل إلى مواقعه وتهاوت الخطة .

وكان انجازا فذا أن حارب المصريون ضد هذا كله « ولم يكن النصر بعيداً جداً عنهم » كما قال القائد البريطاني ولسلي .

منح القائد العام قواته « ليلة راحة » استعداداً للمعركة الفاصلة فى التل الكبير .. بعد يوم أو يومين على الأكثر سوف تقع المعركة، وسوف يتقرر بها

المصير .. أما أن يرتد البريطانيون وتتحرر مصر وأما أن ينتهى كل شىء ويصبح الطريق إلى القاهرة .. مفتوحاً .

كانوا يستحقون ليلة راحة .. ولم يكن هناك ما يدعو إلى القلق . كانت المعلومات التى تجمعت وتأكدت لديه أن البريطانيين يعيدون ترتيب قواتهم بعد القصاصين، وأنهم أيضاً يريدون المعركة أن تكون حاسمة، ولهذا لن يهجموا قبل بضعة أيام .

وكانت القوات تنام فى حراسة قوات الخيالة « **الساهرة** » وهذه صفوة قوات الجيش، ويقودها أحد كبار ضباط الثورة الاشداد الأمناء أحمد عبد الغفار .

وسهر القائد العام فى خيمة القيادة مع بعض ضباطه، ومع عدد من ضيوفه، وكانت الوفود لاتنقطع عن التل الكبير كما كانت الحال فى كفر الدوار وكان عدد من العلماء ورجال الدين، لاينقطعون عن إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية فى تلك الأيام الحاسمة .. وتثبيتاً لإيمان القوات .

كانت ليلة هادئة صافية من ليالي الخريف فى مصر .. ! .

وفجاة وفى الساعات الأخيرة من الليل، استيقظ الجميع على دوى الانفجارات ـ وسيل من قنابل المدافع وطلقات الرصاص، وفوجئت المعسكرات وصعقت بأن القوات البريطانية وسطهم وفى كل مكان، وتمعن فيهم قتلا وهم شبه نيام .. لم تترك لاحد الوقت لأن يصل إلى ملابسه أو إلى سلاحه قبل أن تحصده ومعه المئات .. وانهارت القوات وسط الفوضى والفزع، وأبيدت قوات الوسط واليمين .. ولكن ثبت قائد قوات الميسرة، واستطاع أن يجمع جنوده وأن يستثير وطنيتهم وحماسهم وأن يشن هجوماً مضاداً، وساندته بعض قوات المدفعية، ممن أستطاعوا الوصول إلى مواقعهم، وسط ذلك الجحيم .. كان عملاً بطولياً وفدائياً، ولكن يائساً ..

استشهد الفارس العنيد القائمقام محمد عبيد ومعه زهرة قوات الجيش المصرى النظامى .. وصفوة من رجال المدفعية الذين صمدوا على مدافعهم حتى أنتهوا معها .

ودامت المعركة ساعة واحدة .

ولم يعرف أحد يومها سبب الكارثة، ولم يكن هناك تفسير ولكن أدرك القائد العام على الفور وأن الخطوة القادمة والأخيرة هى « **العاصمة** » ولابد من العمل على عرقلة الزحف البريطانى حتى يتم تنظيم الدفاع عن القاهرة .. وأسرع إلى هناك .


اميرالاي محمد عبيد

لابد من دعوة « **المجلس العرفى** » لتعبئة كل شيء من أجل وقفة أخيرة لحماية العاصمة .

ولم يكن هناك أسباب يستطيع أن يقدمها، للانهيار فى التل الكبير .. لم يكن يعرف الحقائق ولم تكن لتخطر مطلقاً على باله .

ولعله لم يكن ليصدق لو أخبره أحد أن قائد الخيالة أحمد عبدالغفار ونائبه عبدالرحمن حسن، وقائد القوات الرئيسية فى الوسط على خنفس قد باعوه ثلاثتهم .. مقابل عشرة آلاف جنيه ذهب قبض كل منهم ألف جنيه منها على أن يقبض الباقى فى القاهرة .

كان « **أحمد عبدالغفار** » من الأبطال ومن الرواد وكان من المقربين إليه، وأراد الخديوى يوم مظاهرة سبتمبر أن يثنيه عن الانضمام إليها وتحداه وأهانه .

ولاشك لم يكن ليصدق لو أخبره أحد أن المعلومات التى أمده بها « سعود الطحاوى » والتى أدت إلى الكارثة كانت كاذبة مضللة، وكان الشيخ « سعود الطحاوى » « **بلدياته** » من مديرية الشرقية ومن الذين لاينقطعون عن التردد على خيمته وإثبات الولاء والاخلاص له .. ووضع « **قبيلته** » وثروته فى خدمة الثورة ! .

ولم تكن معركة بحال، وراح ضحيتها آلاف، لم يجدوا حتى الفرصة لأن يسلموا أنفسهم وفقاً لأبسط قواعد الحرب .

وقد ألقى اللوم على عرابى حينما روجعت الحسابات، وقال الأمير كامل عضو المجلس العرفى .. وعضو الحكومة المؤقتة :

لم يراجع عرابى جيداً نتائج معركة القصاصين ، ولو فعل بدقة لكان اكتشف خيانة **على يوسف خنفس** أو على الأقل إهماله، وكان يقود قوات الوسط فى تلك المعركة ولو هجم بها لكان قد سحق البريطانيين، وكان من حق عرابى وواجبه أن يعدمه فى الميدان ويعدم معه عشرة أو أكثر من الضباط ولو فعل ذلك لتغيرت النتائج وتغير التاريخ ولكن عرابى كان وطنياً عظيماً ولكن كانت تنقصه الصرامة والجبروت » .

وذهبت الأميرة نازلى فاضل إلى ما هو أبعد « **كانت الأميرة أجمل أميرات الأسرة الخديوية وأكثرهن ثقافة وأقواهن شخصية** وكانت متحمسة أشد الحماس لعرابى وتفيض أعجاباً به ولاتمل التغنى ببطولاته، وكانت أشد الناس حزناً وحسرة على الهزيمة ..

وقالت لى **لو كان قد جمعنا كلنا وشنقنا فى القلعة كما فعل جدى محمد على لكان قد حرر مصر وكانت الآن حرة مستقلة تحت حكمه** .. ولكن عرابى كان وطنياً عظيماً وإنساناً ذا قلب كبير وهذه خطيئته الكبرى » ، كما روى بلنت .

وحينما وصل عرابى إلى القاهرة كانت الأخبار قد سبقته ودعت لجنة الدفاع الوطنى المجلس العرفى إلى اجتماع .. دام ليلة كاملة .. وأنتهى بأن لم تعد هناك أى قوات أو أمكانيات لإستمرار المقاومة، وأن لا سبيل لإنقاذ العاصمة إلا بالتسليم، وأن الدفاع عنها قد يؤدى بها إلى مصير اسوأ من الاسكندرية .



نازلى هانم فاضل

وطلب إلى عرابى أن يتصل بالقيادة البريطانية .. للتسليم .. وأمتثل لقرار المجلس .

وحينما سلم عرابى سيفه للقائد البريطانى . أنتهت أطول سنة فى تاريخ مصر والتى بدأت بمظاهرة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وأنتهت بمعركة التل الكبير فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وبدأ تاريخ آخر لمصر .

كتب جوردون إلى بلنت « **أنتهت الأمور إلى أسوأ مايمكن أن تنتهى إليه .. سوف يعود كولفن إلى الهند وينقل ماليت إلى الصين، ولن يسمع بهما أحد، ولكن سوف يعيش عرابى فى ضمير شعبه لقرون طويلة .. وثق لن يكون هذا الشعب** « **خادمنا المطيع أبدأ** » .

وفاضت لندن بالطرب والنشوة لانباء تسليم « عرابى » وتغنت الصحف بالنصر البريطانى المجيد وأعتبرت التل الكبير ملحمة من ملاحم البطولة والشجاعة البريطانية، وكتبت « **التايمس** » إن الاصلاحات التى بدأت فى الجيش البريطانى بعد حرب القرم قد أثبتت فعاليتها فى مصر .. وبلغت ذروتها فى التل الكبير .

وأنعم على سيمور دولسلى بلقب « **لورد** » وأرفع الأوسمة البريطانية .

ونسجت أسطورة حول « **التل الكبير** » أصبحت القصة الرسمية .. وتغنت الصحف فى تمجيدها ورواية تفاصيلها .

قررت القوات البريطانية بقيادة الجنرال المحنك البطل ولسلى أن لاتقف بعد نجاحها فى الوصول إلى الاسماعيلية واحتلالها، وأن تقوم بزحف سريع يكتسح كل شىء أمامه حتى التل الكبير .. ومنها رأساً إلى القاهرة .. وفى المرحلة الدقيقة الحرجة من المحسمة إلى التل الكبير تضاربت المعلومات حول قوات العدو، وكانت بعضها تقول أن حشداً عاماً وقوات مدربة كبيرة تنظر للمعركة الفاصلة ولكن ولسلى الشجاع قرر أن يواصل الزحف مهما كان الثمن، لم يكن لديه خرائط دقيقة ولا معلومات مؤكدة .. ولم يكن هناك دليل يعتمد عليه سوى النجوم المتلالئة فى السماء، ثم ضابط بحرى شاب كان الوحيد الذى قام باستطلاع المنطقة .. وسارت القوات وهى تتوقع المفاجئة كل لحظة .. وعند التل الكبير فوجئت القوات البريطانية بأنها وسط معسكرات العدو

ويحيط بها جنوده من كل جانب ولكن صمود البريطانيين وسرعة بديهة القائد .. وقدرة الضباط على التعرف فى ظل اللحظات العصبية حسمت كل شىء، وحققت القوات البريطانية إنتصاراً ساحقاً .. أضافت مجداً آخر إلى تراث الامبراطورية » .

تحقق الحلم البريطانى الذى دام أكثر من مائة عام، ووقعت مصر فى أسر الامبراطورية وأصبحت قناة السويس فى قبضة بريطانيا، وأصبح البحر الأبيض بحيرة بريطانية .. وأصبحت أفريقيا .. القارة المجهولة والتى أشتد الصراع عليها مفتوحة الأبواب أمام بريطانيا .. كانت كل الأسباب تدعو للنشوة .

ولم يقدر للاسطورة أن تعيش طويلاً .. وكشف زيفها .

أنقطعت أخبار المستشرق البريطانى بالمر، وضابط المخابرات الكابتن جيل، وطالبت أسرتاهما بالبحث عنهما، ومعرفة مصيرهما .

وعثر على جثث الاثنين مقتولين فى الصحراء، بعد ما اغتصبت كل الأموال التى كانت فى حوزتها .. وصلت الأوراق التى عثر عليها معهما إلى الاسرتين مع ما تبقى من مخلفاتهما .

وكان بين الأوراق « **يوميات** » كان كل منهما يسجل فيها أعماله وأراءه وخواطره .. ويرويان **فيها** تفاصيل مهمتهما وكل ما قاما به .

وطالبت الاسرتان بتعويض مناسب « **لاستشهاد** » الاثنين فى سبيل الوطن .. وتلكأت الحكومة فى إجابة الطلب .. وقامت الاسرتان بتسليم المذكرات إلى « بلنت » .. وقام بفضح عملية « الرشوة الكبرى » والتى راح ضحيتها أستاذ اللغة العربية فى جامعة كمبريدج، وضابط المخابرات الشاب وراح ضحيتها « **شعب** » بأكمله فى مصر والتى أنحطت بالشرف البريطانى إلى أدنى مستوى وأثبتت أن لا فرق هناك بين السياسة البريطانية وبين أساليب « السلاطين » الخسيسة ـ كما قال بلنت .

وتقدم أحد أعضاء مجلس العموم بسؤال عن أسباب مقتل الاثنين وعن المهمة التى كانا يقومان بها خلال الغزو فى مصر .

ووقف وزير الخارجية البريطانى اللورد جرانفيل فى مجلس العموم، وشن حملة

عنيفة على بلنت والذين يشوهون تاريخ بلادهم ويلوثون سمعة جنودها وقادتها، والذين يجدون متعتهم فى أن يحطوا من شأن انتصاراتها .

ووقف وزير البحرية « اللورد نورثبروك » ينفى « **الاكاذيب** » من أساسها وينكر أن كان هناك أى أساليب أو وسائل غير شريفة يأباها الشرف البريطانى فى الحملة على مصر .. وأن هدفها كان إنقاذ مصر من طغيان « **عصابة عسكرية** » تحدت السلطة الشرعية، وهددت المصالح الأوروبية .

وأكتفى مجلس العموم البريطانى ببيانات الوزيرين ... وأقفل النقاش .

وسلم « بلنت » المذكرة إلى ابن عمه « اللورد ونتورث » العضو بمجلس اللوردات الذى نقل المسألة إلى هناك .. وقرأ على أصحاب الفخامة مقتطفات منها، وأسقط فى يد صاحبى الفخامة وزير الخارجية ووزير الحربية، وثارت إحدى فضائح الامبراطورية الكبرى .. وعلق أحد الأعضاء « **هذه حرب لايمكن أن يفخر بها قائد بريطانى أو أى عسكرى** » .

وكتب أحد المعلقين « هذه نهاية قذرة لدبلوماسية دنيئة، قامت على سياسة خسيسة » .

وأنتقلت القصة إلى مصر، وخففت من لوعة الهزيمة .. ورفعت بعض الوزر عن عرابى .. وأصبح المثل الشائع « الولس كسر عرابى » أى الخيانة .. .

كانت الجموع لا تنقطع عن الطواف حول سجنه في باب الخلق وتدعو « **الله ينصرك ياعرابى** » أو **تكتبه على الجدران** .

وكان ثمن الخيانة فادحاً بالنسبة لمرتكبيها لم يف البريطانيون بوعدهم إلى على خنفس ولم يدفعوا له شيئاً مما اتفق عليه .. وظل يطالب به حتى مات ، بل وأحيل إلى الاستيداع ومنح معاشاً ضئيلاً هو اثنا عشر جنيهاً في الشهر ، لم يملك سواه .. وعاش عليه في ضنك ومحتقراً منبوذاً لا يستطيع أن يكلم أحد في حي السيدة الذي كان يقطنه .

واختفى عبد الرحمن حسن .. ولم يعرف أحد عنه شيئاً ، ولم تشفع الخيانة لعبد الغفار .. ولم يغفر له الخديو اهانته وأودع السجن مع الضباط الوطنيين .. وكان عذاباً أشد ، وحينما ذهبت زوجته لتنفق من الجنيهات البريطانية ، اكتشفت أنها مزيفة .. وأنها من « **الرصاص** » المطلى بالذهب .

وأكتشف كل الذين قبضوا من البريطانيين هذه الحقيقة أيضا، وكانت صدمة .. شفت غليل المصريين فيهم . وحصل سعود الطحاوى على نصيبه

ذهبا خالصا وعلى آلف فدان من الأرض، ولكن أصبح « **رمزاً** » للخيانة تجنبه الناس جميعا هو وكل قبيلته .. ذهبا خالصاً، وعشرة آلاف فدان، أبو سلطان، ومنح عشرة آلاف جنيه وآغدق العطاء على **الرأس** « **الكبير** » ولم يكن يخرج من بيته إلا لمقابلة البريطانيين ! .

وأنعم عليه بأرفع وسام بريطاني وأصبح « السير محمد سلطان باشا » .

ولكن لم يحصل الباشا على آمنية حياته .. وأختير رياض باشا **لرئاسة** الوزارة وتقلب عليها شريف ونوبار ولكن لم يثق الخديو أو البريطانيون فى أهليته لتولى آى منصب وفى النهاية أعلن عبدالسلام المويلحى « **إننا جميعاً نادمون، وقد كان سلطان باشا هو الذى جرنا إلى هذا الموقف الشائن .. وقد غرر به ماليت وآوهمه أن مجلس النواب سوف يدعى للانعقاد بمجرد قمع الفتنة، وسوف يكون سلطان كل شيء، وحينما طلب خطاباً رسمياً من ماليت آقنعه الخديو آن لا يلح لأن كلمة القنصل البريطانى .. لا ترد** » ..

وأنهار سلطان باشا، لما انتهى إليه حاله .. وظل معتكفا معظم الوقت فى منزله حتى مات وقال المويلحى الى بلنت « كان دائم الحزن ويردد دائماً أنه يرجو أن **يغفر** له عرابى وكان أشد ما يفزعه أن يدرج اسمه في تاريخ بلاده بصفته الرجل الذي خان وطنه ودفع ثمن غيرته من عرابي التى أدت به إلى الهلاك » .

وجاء اللورد دوفرين على رآس بعثة بريطانية كبيرة لوضع أسس نظام جديد للحكم « **الصالح** » فى مصر، وكان من بين أعضاء البعثة « المستر ماكنزى والاس » الذى انفصل بعدئذ عن البعثة ليعمل مراسلاً لجريدة التايمس .

وفي « الذكرى الأولى للقضاء على الثورة كتب ماكنزي والاس في ١٥ سبتمبر ١٩٨٣ :

« **لو يجرى استفتاء اليوم بين توفيق وعرابى، وتوافرت كل آسباب النزاهة لهذا الاستفتاء فإن عرابى سوف يحصل على آصوات الأغلبية الساحقة للمصريين .. وإذا كنا حقاً قد جئنا إلى مصر لكى نقيم حكماً صالحاً وحكومة طيبة، وآن نقنع المصريين بهذا، فإن علينا آن نفسر لهم لماذا قضينا على الحزب الوطنى ولماذا آجهزنا على عرابى .**

أن توفيق لايملك أى مزية تقربه من شعبه، وليس هناك أحد يرفضه الشعب ويكرهه مثله .. وقد أصبح في عرفهم ، الرجل الذى انحاز للغزاة الأجانب ضد عرابى .

إن عرابى لازال يملك مصر كلها ف جانبه .. وكان عرابى فقط هو الذى يستطيع أن يقيم أفضل حكومة لمصر .. لو كنا قد تركناه وشأنه » .

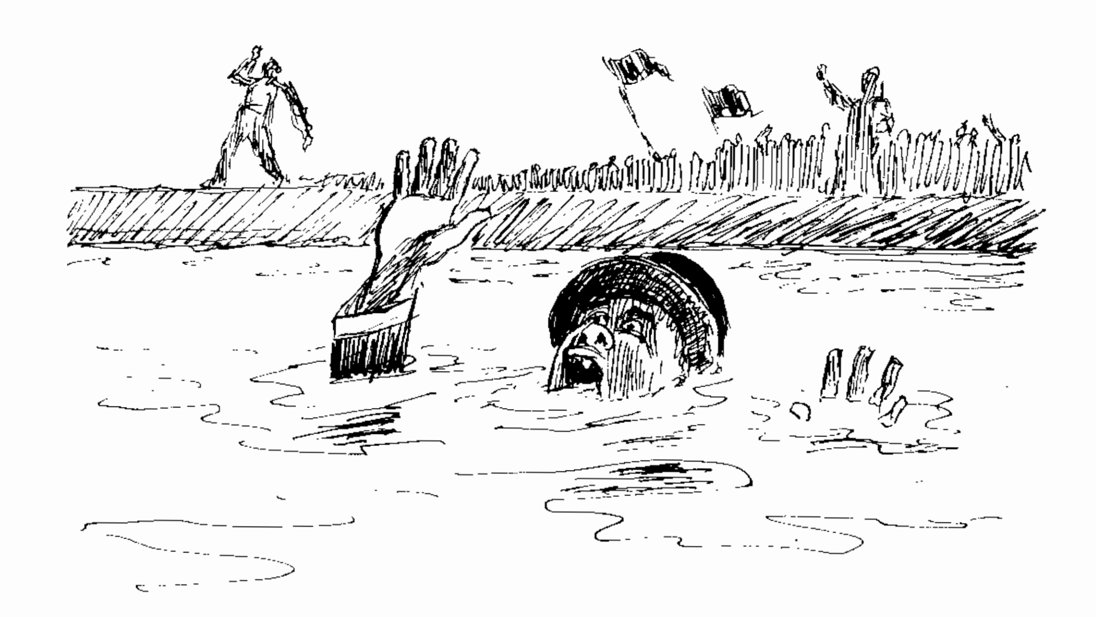
ووقف جلادستون فى مجلس العموم ليقول متبجحاً :

« ذهبنا إلى مصر ملتزمين بأن نوقف الخديو على قدميه .. وأن نوفر له بداية طيبة ولن نبقى يوماً واحداً بعد هذا .. وهذا هو العهد الذى قطعناه لأوربا ويأبى علينا الشرف أن نخل به » .

ورد عليه برودلى المحامى الذى دافع عن عرابى .

« هناك طريق واحد أمام المستر جلادستون لو كان يشعر بأي التزام نحو مصر .. وأن يدعو عرابي ليعود من منفاه في سيلان .. وأن يحكم .. بلاده .. وبغير هذا لن يستقر حكم أو يصلح حال في مصر » .. وكان هذا ما حدث ..

أفاقت مصر من الصدمة .. وأستانفت المقاومة .. ولم تتوقف حتى انتهت الامبراطورية كلها وغرقت بعد أربعة وسبعين عاماً فى مياه السويس .. وحيث نزلت قوات ولسلى ! .





الامير حليم باشا

علي باشا مبارك

درويش باشا

عثمان باشا رفقي

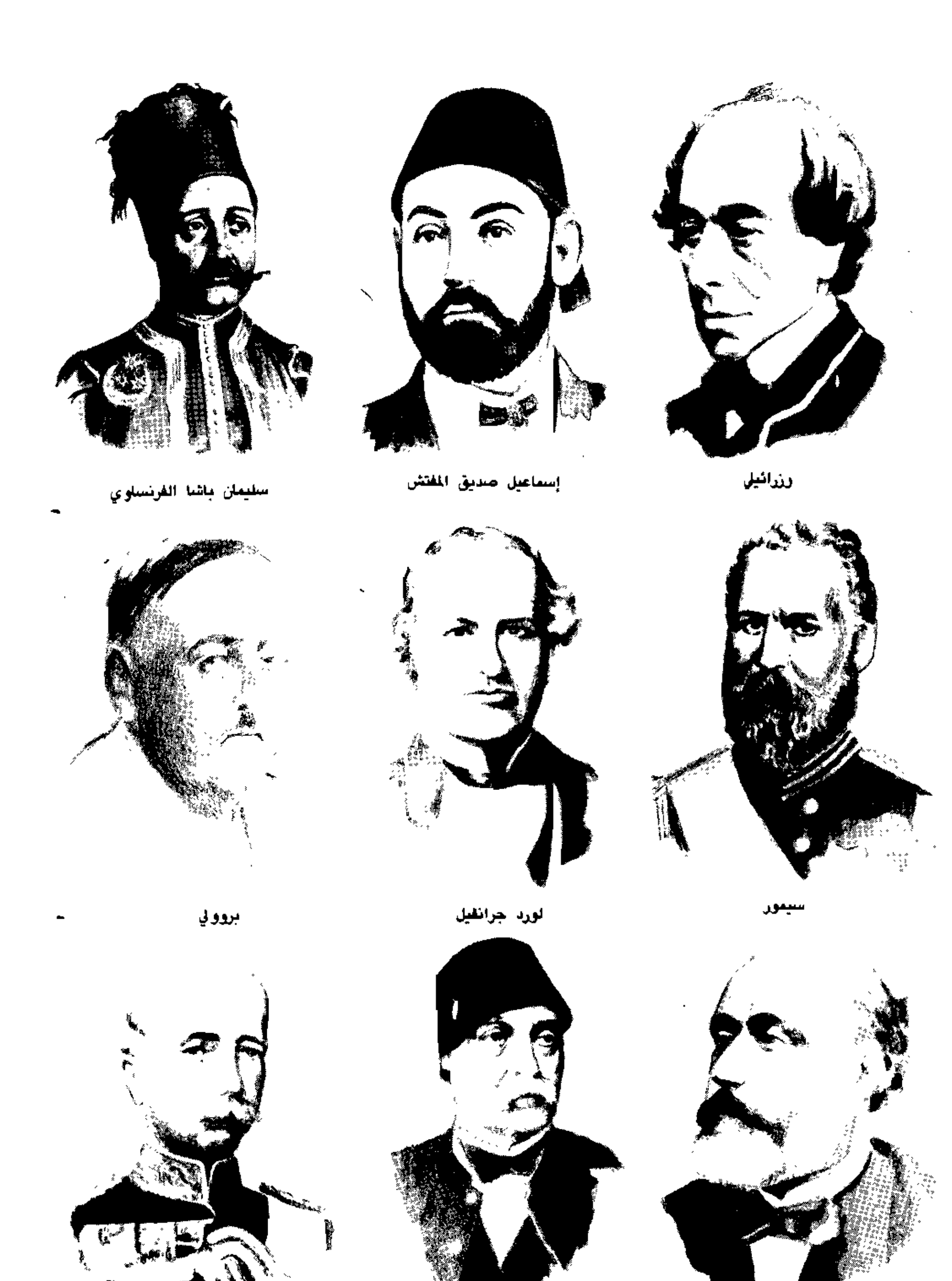
بطرس باشا غالي

السلطان عبد الحميد الثاني

الشيخ محمد عبده

اديب اسحق

جمال الدين الافغاني

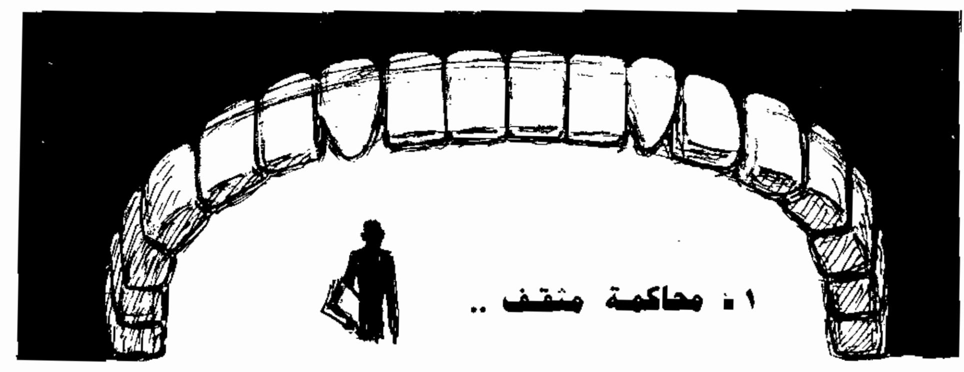


دزرائيل — إسماعيل صديق المفتش — سليمان باشا الفرنساوي

سيمور — لورد جرانفيل — بروولي

مسيو ليون غاميتا — نوبار باشا — جنرال ولسلي

عرابيـــات ..



١ - محاكمة مثقف ..

بدأت محاكمات « **العرابيين** » بعد فشل الثورة .. وكان من ألمعهم وأشجعهم وأقلهم شهرة شاب فى الثلاثينيات ، عمل سكرتيراً لمجلس الوزراء ومديراً للمطبوعات ومتحدثاً رسمياً باللغة الأجنبية للثورة .. وكان كاتباً أدبياً تنشر أشهر الجرائد الفرنسية تعليقاته وأحاديثه وتصريحاته .. واعتبرته جريدة « الطان » أشهر تلك الجرائد فى ذلك الحين .. « **مرجعها** » عن شئون مصر .

وهذه قصته كما يرويها المحامى البريطانى برودلى الذى تولى الدفاع عن القادة العرابيين ، وبتكليف من ويلفريد سكاون بلنت نصير الثورة الأول فى بريطانيا ، وقد استطاع أن يثير الرأى العام البريطانى ، من أجل محاكمة عادلة لعرابى ورفاقه وتكونت لجنة على أعلى المستويات ، اكتتبت اكتتاباً عاماً ، للدعاية ولتحمل نفقات محاكمة علنية عادلة وكان الخديوى ، والحكومة البريطانية يعدون محاكمة عاجلة شكلية تنتهى باعدام قادة الثورة جميعاً .. وقد استقال « رياض » باشا فيما بعد احتجاجاً على التدخل البريطانى لانقاذ حياة عرابى و « **العصاة** » من المشنقة .

فى الزنزانة الثامنة والأخيرة التقينا بموكلنا الأخير .. وكانت مواجهة لزنزانة عرابى .. فى الصف الآخر وفى نهاية الدور من سجن الدائرة السنية الذى أودعوا فيه بعد أن تسلمتهم السلطة المصرية من معتقل « الأسرى » فى ثكنات قصر النيل .

وفوجئنا بزنزانة مرتبة أنيقة تدل على ذوق وثراء وتختلف تماماً عن باقى الزنازين .. حتى تحت تلك الظروف .

كان هناك كوم من الكتب وتناثرت وسائد مطرزة منمقة ، وفرشت سجادة فارسية ثمينة ، وعلقت ناموسية من الدنتللا ، وتدلت ستائر على النوافذ .. وكان كل شىء ينبىء عن ثقافة وذوق رفيع .

وتقدم إلينا نزيل الزنزانة شاب نحيل في الثلاثينيات . يبدو تماما وكأنه أحد الأوربيين ، فحياناً مبتسماً .. ولاشك راضيا سعيداً وقدم لنا نفسه بفرنسية بالغة الطلاقة .. ودعانا للجلوس والحديث .

وبدأ بأن قال أنه عرف بحضورنا وبمهمتنا ، وأنه سعد تماما بذلك وأصبح ممكناً معرفة الحقيقة ، ورواية الأحداث بأمانة وصراحة ، وتحدث عن الارهاب الذى تعرضوا له جميعاً ، وعن النصيب الذى تلقاه من زوار الليل ، وكان هؤلاء هم أذناب الخديوى وزبانيته الذين كانوا يقتحمون الزنازين في الليل ، لسب المعتقلين والاعتداء عليهم « والبصق » في وجوههم .

وقد روى لى عرابى ما حدث له مرات عديدة من هؤلاء . ولكنه كان شديد المرارة من زيارة بالذات من هؤلاء .. جاءه فيها « بشارة تكلا » صاحب جريدة الأهرام لكى يتشفى فيه ويشارك في سبابه وتعذيبه ، وقال عرابى « **كان هذا الخسيس يوهمنا أنه من أشد أنصارنا** ».. ولكن ضحك أحمد رفعت ولم يستغرب .. وهو يستمع للقصة وقال « هؤلاء كثيرون عندنا وفي كل مكان » .. وخلال حديثه الممتع المضطرد قال :

« ربما يبدو لكم ، كما كان يبدو للكثيرين أن ليس هناك ما يمكن أو ما يجب أن يربطني بهذه الثورة .. أنا لست مصرياً في الأصل بل تركى ، وكان أبى وزيرا عثمانياً لا يزال يعيش في تركيا .. وقد تولى وزارة المالية أكثر من مرة في حكومات الباب العالى ، وكان يعرف بأنه التركى الوحيد الذى لا يرتشى وقد أرسلت للدراسة في فرنسا ، في كلية الحقوق ، وبدأت أتمرن على المحاماة ولكن استدعيت قبل أن انتهى للزواج وكانت العروس ابنة كميل باشا كبير الأمناء في ديوان السلطان .

وعينت بعد الزواج في السلك الدبلوماسى العثمانى ، وعدت إلى باريس ملحقا في السفارة هناك ولم أبقى طويلاً في المنصب لأننى كنت أتصل بالمعارضة التركية وحزب « تركيا الفتاة » في باريس ، ونقلت إلى الديوان العام في وزارة الخارجية . ثم إلى ديوان السلطان لأكون مديراً للمراسلات الأوربية .. وأدركت أى مستقبل ينتظرنى ، فقررت أن أتهرب منه .. وتعللت بالرغبة في الذهاب والعمل بمصر .. وكان الخديوى اسماعيل يحكم وكانت آماله وطموحاته تبهر الجميع .. ولم أجد صعوبة في الحصول على منصب مناسب لديه .. بل اننى تدرجت وارتقيت سريعاً في العمل معه ، وبعد عزله ، وتغير الظروف واشتداد وطأة الأزمة ، كان لابد أن يحدد

كل **موقفه** .. وفى أى جانب يقف .. واخترت طريقى .. وحينما تولت وزارة محمود سامى البارودى الوزارة الوطنية كما سميت وأول وزارة دستورية فى مصر ، وفى الامبراطورية العثمانية كلها ، عينت سكرتيراً عاما لمجلس الوزراء ومديراً للمطبوعات .. والمتحدث الرسمى للصحافة الأجنبية .

وقيل لى بالطبع أننى « **تركى** » ولا شىء يصلنى بهذه الثورة ، وبالفلاحين .. ولكننى انضممت لأننى وجدت قضية عادلة .. كان عرابى زعيماً وكانت مصر كلها تقف وراءه .. كان عرابى .. يعبر تعبيراً صحيحاً عنها ، عن شعب أزهقه الاستبداد والاستغلال ، وانتهكت أبسط حقوقه .. وقام ليستردها ، ولهذا وقفت مصر كلها وبلا استثناء معه ، وكان لابد أن ينتصر لولا أن خانه الخديوى وخدعه السلطان .. وتداعت أركان القضية .

ولم يعد صعبا أن تشوه الحقائق وأن تزيف الأحداث .

إن المصريين مثل كل الشعوب المقهورة يستولى عليهم الخوف والرعب بعد مثل هذه الهزيمة الساحقة .. وتنهار معنوياتهم أمام الارهاب الجارف .. ولهذا لم يعد هناك من يجرؤ بأن يشهد بالحقيقة أو أن يقف إلى جانبنا أو يتكلم لصالحنا .

حتى أنا ارتجفت وتلعثمت أمام لجنة التحقيق فى الأيام الأولى .. حيث حرمنا من كل شىء ، ومن أبسط حقوق المتهمين وبلغ التنكيل بنا حده الأقصى .. كان البطش والتعذيب سائداً جارفاً .. ولم يكن هم لجنة التحقيق أن تحقق ولكن أن تستخلص منى استنكاراً لما فعلت ، وتنكرا وتنديداً بالزعماء الذين وثقت بهم .

وإن كل ما نطالب به هو محاكمة علنية عادلة .. ولو حوكمنا فى وضح النهار وأمام الجميع ، فإن العالم سوف يتبين الحقيقة وسوف يعرف الرأى العام الأوربى إلى أى حد أمكن تضليله . وسوف يثبت للجميع . أن عرابى كان على حق لأنه كان زعيماً مختاراً لشعب بأكمله ، ومدافعاً عن قضية نبيلة عادلة .. ومهما تكن قوة خصومنا وأعدائنا ومهما يكن تأثيرهم إلا أننا على ثقة أن الحق معنا ، وإن عرابى لا يخشى شيئاً إذا ما تكشفت كل الحقائق .. وتكشفت كل الأسرار .

وتذكر أحمد رفعت شيئاً وابتسم قائلاً « **هل تصدق ، حينما جاء درويش باشا ـ مبعوث السلطان الخاص قبل ذروة الأحداث بقليل ـ كان يحمل لنا تأييد السلطان لوقوفنا فى وجه الأجانب أعداء الدولة والاسلام .. وذات يوم اختلى بى « درويش باشا » كمواطن تركى مثله ، وقال أن السلطان قرر مكافأة**

لى على موقفى من الثورة أن ينعم على برتبة الباشوية .. ولكن على أن أبقيها سراً بينى وبينه حتى تنتهى الأحداث إلى نتيجة .. وتستطيع لو ذهبت إلى زوجتى فى منزلنا أن تجد لديها « براءة الانعام السلطانى » فقد احتفظنا بها فى مكان أمين دلالة على مدى التآمر والسقوط » .

وانهى أحمد بك رفعت حديثه قائلاً « أيها السادة إذا كنتم جادين فاننى لا أطلب أكثر من ورق وقلم لأكتب دفاعى وقصة الأحداث كما شهدتها وشاركت فيها » وودعناه .. معجبين به كل الأعجاب » .

ولم أكن حينما قبلت تولى الدفاع عن العرابيين من المهتمين كثيراً بالقضية المصرية أو من المعجبين كثيراً بقادتها ، وكان كل حماسى واهتمامى ، بقضية تونس التى سبقت بعام واحد « **اغتيال واحتلال مصر** » .

وبعد أول لقاء لى مع « عرابى » انضممت إلى صفوفهم ، وأدركت سر إيمان صديقى « ويلفريد سكاون بلنت » وحماسه الفياض لهم .. ولم يكن صعباً على أن أفهم كيف اجتذب عرابى والثورة أحمد رفعت .

وكان رفعت على النقيض تماما من « موكلنا » على فهمى الذى رأيته قبله والذى يجاوره فى الزنزانة .

حينما دخلت عليه وجدت رجلا بسيطا عاديا لا ينبىء عن دوره الكبير ، وعن اهتمام عرابى الخاص به « **لا يمكن** أن تدافع عنى إلا إذا دافعت عن زملائى .. وخاصة أعزهم عندى على فهمى وعبد العال حلمى ، لا يمكن أن يختلف مصيرى عن مصيرهما مهما كان » ..

وحينما لقيت على فهمى سألنى على الفور عن عرابى وأحواله وحينما طمأنته ، قال لى مبتسماً ولكننى لست من أرباب القلم والفصاحة مثله ، ولهذا أريد أن تنتدب لى كاتباً لكى أملى عليه دفاعى .

وكان على فهمى من أقوى وأشجع من رأيت وعرفت ، أنه يستطيع أن يحصل على ما يريد لو لم يختر الثورة .. كانت زوجته سيدة واسعة الثراء من سيدات القصر ، وكان قائدا للحرس الخديوى وكان يعيش فى قصر من أفخم قصور القاهرة .

وكان لديه كل ما يخسره بالانضمام للثورة .. ولكنه فعل .. وحينما سألته لماذا فعل قال . وهو ما لا أنساه .

« عندى كلمة واحدة لا أملك سواها للدفاع عن نفسى .. أننى مصرى » .

لقد جاء عن طريق آخر غير أحمد رفعت ولكن إلى نفس الصف .

وقررت فى اليوم التالى أن أذهب إلى منزل أحمد رفعت لأحصل على « البراءة » كأحدى وثائق الدفاع .. ووجدت سراى ذات حديقة واسعة قرب قصر عابدين .. وقابلتنا سيدة فرنسية قالت أنها المربية وقادتنا إلى غرفة المكتبة وكانت غرفة واسعة تمتلىء أرففها بكل أنواع الكتب وأشهرها وأحدثها ، وأخبرتنا المربية أن هذه المكتبة عانت من زوار الليل ، الذين قلبوها رأساً على عقب أكثر من مرة بحثاً عن وثائق وأسرار وراء مجلداتها .

وكانت المربية مثل السيد متحدثة بارعة ملمة بكل الأحداث وعناصر القضية ، وقد دخلت أو عادت لنا من ربة البيت التى لم تقابلنا وفق التقاليد بالوثيقة وكانت من أهم ما أعتمدنا عليه فى تفنيد تهمة التمرد والعصيان » .

ورجعنا بعد يومين لزيارة أحمد رفعت فى زنزانته ، وكان غارقا بين الأوراق والمسودات يعد دفاعه ، ويبدو أن حماسه وحيويته القديمة عادت إليه ، فقد أخبرنا أنه سيقدم لنا وثيقة تفحم كل ادعاءات وافتراءات الأعداء .

وقد كتب دفاعه بفرنسية أدبية رفيعة .

بدأ دفاعه قائلاً : .

« هل كان ذلك حلماً أم وهماً ، ما رأيته وعشته .. مصر كلها تهب واقفة وتعلن الحرب رسمياً على دولة عظمى هى بريطانيا وتصمد لمدة شهرين .. هل كان حلما أم وهماً ؟» .

كان أحمد رفعت سعيداً سعادة بالغة ذلك اليوم .. وعرفنا أن السبب أن أبناءه الثلاثة زاروه فى السجن وأنهم أخبروه أنهم قد فصلوا ثلاثتهم من المدرسة الخديوية مدرسة أبناء الذوات لأن أباهم من « **العصاة** » ولأنهم فخورون به ، بل أن الابن الأكبر ذهب إلى نجل الخديوى وزميله عباس وطلب منه أن يقنع والده بالافراج عنه .

وأخذنا نقرأ مقتطفات من الدفاع .

« يجب أن لا نفقد الأمل أبداً .. ألم تحدث هذه المفاجأة العجيبة .. أن أعداءنا

البريطانيين والذين واجهناهم فى الميدان ، والذين هزمونا فى المعركة .. هم الذين يطالبون لنا الآن بمحاكمة عادلة .. والذين يحموننا من عصابات الأذناب والانكشارية الذين لم ينقطع ايذائهم لنا والذين يريدون الاطاحة فى اقرب وقت برقابنا » .

وقال فى صفحة آخرى : .

« بعض الأوربيين يقسم القوى السياسية فى مصر تقسيمات مستمدة من الفهم الأوروبى .

وان هناك محافظين وليبراليين وراديكاليين .. ولكن استطيع أن أقول أن فى مصر حزبا واحدا سائدا هو حزب الأغلبية وهو يوجد فى مصر ويوجد فى كل الشرق الآن وهو حزب الجياع إلى العدالة .. حزب الباحثين المتعطشين إلى العدل ويضم هذا الحزب رجالا أمناء صادقين من كل الطبقات والفئات من اعلاها إلى آدناها، من الامراء حتى الفلاحين المعدمين ..

ويطالب هؤلاء كل حسب وعيه وفهمه بحقهم فى المشاركة فى كل المزايا التى توفرها النظم السياسية التى تسود فى أوروبا لكل المواطنين . أن يحكمهم العدل والقانون وان تدير شئونهم حكومة نزيهة نظيفة، أن يوضع حد للظلم والاستبداد، ان ترتفع عن أجسادهم وطأة « **الكرباج** »، أن حزب الجياع إلى العدالة لا يريد اكثر من آمن الإنسان على حياته وكرامته وأملاكه ... وهذا « **الجوع** » هو القضية الكبرى التى تستولى الآن على قلوب وعقول المصريين وكل الشرقيين .

ويوم مظاهرة عابدين .. والمواجهة بين عرابى والخديوى فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ كنت فى صحبة حيدر باشا يكن وهو من أقارب الخديوى .. وعلق على ما حدث قائلا [illegible] نصح الخديوى مرارا آن يقيل وزارة رياض المستبد الذى يقف ضد كل المطالب المشروعة للبلاد، ولكنه لم يفعل .. وهذه هى النتيجة .

وقد انتهت المظاهرة إلى تولى شريف وبداية الحكم الدستورى وإجراء الانتخابات وكانت نتيجتها تفجر الشعور الوطنى واشتعال الآمال الكبيرة التى توصلت كلها إلى جذوة ملتهبة جرفت البلاد كلها .. بدأ عصر جديد وتاريخ جديد .. ولم تعد صيحة مصر للمصريين مجرد شعار .. لكن حقيقة وواقعا يمكن تحقيقه حتى النهاية .

واستطـــرد :

" حينما اقصى شريف باشا عن الحكم تولت الوزارة الوطنية برئاسة محمود

سامى البارودى وتولى عرابى وزارة الحربية .. وبدا للجميع أن الثورة تحققت وأن هذه هى الحكومة الشعبية الأولى، وأنها هى وحدها التى سوف تحقق كل المطالب والأمانى . وهى فقط التى سوف تقدم الحلول لكل المشاكل " .

وقد صور الاوربيون هذه الوزارة بأنها مجرد أداة فى يد العسكريين وأن عرابى ليس إلا قائد المتمردين وأنه مجرد حاقد على الأتراك والشراكسة، وبالطبع على الأجانب .. ولم يكن هناك صورة أكثر زيفا وبعدا عن الحقيقة .

أن اسم عرابى أصبح فى شهور قليلة تعويذة كل المصريين وأصبح الرمز الذي يلتف حوله الجميع .. الشعب والجيش معا .. والعامة والأعيان جميعا .

وقليلون من الناس كانوا على صلة وثيقة بعرابى مثلى، وأننى لأعلن الآن من هذه الزنزانة، أننى لم أجد فيه فى أى لحظة من اللحظات، وفى ظل كل الظروف السعيدة أو العصيبة سوى الزعيم، والرجل المثالى الأمين الذى نذر حياته كاملة ' لمته ولعقيدته .. وربما لم يكن عرابى دبلوماسيا بارعاً أو سياسيا مناوراً محنكاً، وربما لم يكن القائد العسكرى الذى يمكن أن يحارب بريطانيا ويهزمها ولكن عرابى كان المصرى الزاهد فى كل شىء سوى حقوق البلاد، والعاكف على هدف واحد هو قيادة شعبه فى مسيرة مقدسة من أجل العدل والحرية .. وكان أصلح المصريين لهذه الرسالة .

وأننى أذكر تماما الاجتماع الأول للوزارة الوطنية بعد تأليفها، وقد اجتمعنا فى منزل محمود سامى باشا، وجاء « بوريللى بك » المستشار القانونى فى مجلس الوزراء .. وقدم برنامج عمل للوزارة، وبمهارة فائقة استطاع أن يحذف منه المسألة الرئيسية والشائكة حول الميزانية وحق البرلمان فى إقرار الميزانية، وبهدوء وبساطة أخذ عرابى يناقش برنامجه، ويرد عليه فقرة فقرة، ويشرح أهمية المسألة من وجهة النظر المصرية ولم يترك أحدا حتى أقنعه .. بل وصدق على ذلك الخديوى بعد ذلك .. كانت قدرته على الحجة والاقناع خارقة، واختتم أحمد رفعت مسودة دفاعه قائلاً :

" بعد تنكر الخديوى وانحيازه للعدو وعزله لعرابى تقرر عقد اجتماع للمجلس العرفى فى القاهرة ليقرر ما يجب اتخاذه من اجراءات، وقد طلب عرابى إلى المجلس أن يفصل بينه وبين الخديوى وأن يقرر من هى السلطة الشرعية فى البلاد ..

ودعى إلى عقد الاجتماع .. ولم أشهد فى حياتى اجتماعا حافلاً مثله، إذ شهده أمراء من الأسرة الخديوية وبطاركة وحاخامات وعلماء .. وكل رجالات مصر وعظمائها .. وأجمعوا جميعا على تأييد عرابى ضد الخديوى .. وأن الخديو قد

خرج على الدستور والشرع وكل المبادىء وأن عرابى هو القائد، وأن المجلس هو السلطة وأن مواصلة الحرب ضد الغزو هى المهمة الأولى والأخيرة وذلك حتى يفصل السلطان فى الأمر ازاء الخديوى .

وبعد هذا الاجتماع لم يعد هناك فى مصر من يختلف حول الأمر، أنتهى تماماً كل جدل أو حوار، ولم تشهد مصر قط مثل الاجماع والحماس الذى كانت عليه البلاد .. وأصبح عرابى امام الجميع بلا استثناء هو حامى حمى البلاد ورجلها وخادمها الوحيد والأمين .. الزعيم لخمسة ملايين مصرى هم كل سكانها يصدون بقيادته غزو جيش اجنبى يعتدى على وطنهم .. وأننى أذكر يعقوب باشا صبرى وكان من مماليك عباس باشا الأول من أنصار توفيق المتحمسين وقد أنتحى بى ركنا وقال لى كنت من إنصار توفيق حتى ضرب الاسكندرية ولكن الآن وقد التجأ الخديوى إلى الانجليز فإنه لم يعد مسلماً ولا يستحق الاحترام أو التأييد، وقد سألت قاضى القضاة فى مصر وهو تركى « **مولى افندى** » حول الموضوع نفسه قال لى ليس الخديوى ولكن لو فعل السلطان نفسه هذا تسقط ولايته .

" وقد كان حماس مصر بكل طبقاتها وفئاتها فوق آى وصف، من الأمراء والاميرات حتى الاطفال الصغار فى الشوارع الذين خرجوا ينشدون الأناشيد الوطنية ويهتفون ضد الخديوى " .

تكون جيش من مائة الف من المتطوعين وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً فى أى بلد مثل مصر، وآنهالت التبرعات والاكتتابات فى كل مكان من المديرين والأعيان .. ولا زال خليل بك عفت مديرا للمنيا وكان أكثر المديرين حماسا وجمعا للتبرعات، وقد أصبح عثمان غالب مديرا للبوليس فى القاهرة الآن ولكن وهو مدير لاسيوط أرسل على الفور عشرة آلاف أردب ذرة، وتبرع الأمير إبراهيم بكل جياده وكونت الأميرات، وسيدات الذوات على الفور جمعية للعناية بالجرحى وإعداد الادوية والمواد الطبية واقيمت الصلوات فى كل مسجد وكل بيت للدعاء لجيشنا وقواتنا بالنصر .

وإسماعيل باشا آيوب هذا الذى يرآس لجنة التحقيق الآن، جاء وطلب إلى أن أصحبه إلى كفر الدوار، لكى يقدم التهنئة لعرابى بعيد الأضحى الذى تصادف وقوعه ولكى يؤكد له تأييده .

واختتم رفعت دفاعه قائلاً : « **آننى آترك مصيرى بين يدى بريطانيا ولا شك آنها عاجلاً آو آجلاً سوف تنصف القضية التى ظلمت آشد الظلم وتكسرت قوائمها وهى القضية الوطنية المصرية** » .

وتركنا أحمد رفعت ليعد الصيغة النهائية لدفاعه وذهبت لاحدد موعداً لاستجوابه مرة أخرى بحضورى وبعد أن تأمنت شروط المحاكمة العادلة .

وبعد يومين تسلمت اخطاراً بضرورة الحضور فوراً إلى مقر لجنة التحقيق فى الساعة العاشرة صباحاً ..

وحينما ذهبت وجدت اللجنة بكامل هيئتها وبرئاسة إسماعيل باشا أيوب وكانت التحيات والمجاملات زائدة، وبدأت صوانى القهوة والشاى والسجاير تتدفق ثم أرسل فى استدعاء المتهم أحمد رفعت .

وحينما دخل كان يبدو عصبياً جداً ومنفعلاً ولكن حينما دعوته ليجلس بجانبى أصبح أكثر هدوءاً، حينما صافحته بحرارة احسست أننى صدمت ولاء أصحاب السعادة الباشوات والبكوات الحاضرين ورأيت النظرة الصفراء المقيته التى حدجنى بها إسماعيل باشا أيوب .

وبعد لحظات أخرج سعادته بقايا قصاصة قديمة متسخة من جريدة أفرنجية، وقدمها لى بابتسامة تشفى وقال لى .. يمكن أن تقرأ هذه قبل أن تقرر هل يمكنك الدفاع عن هذا المتهم أم لا .

وكانت مقالة بقلم أحمد رفعت فى جريدة « الطان » الفرنسية يقارن فيها بين حضارة فرنسا وهمجية بريطانيا وأن لغة البريطانيين المعترف بها هى المدافع ..

وقال لى الباشا بعد أن انتهيت :

" أظن ياعزيزى المستر برود لى أنك سوف تنسحب من الدفاع عن الرجل " .

ولكن الباشا امتقع وجهه من الدهشة حينما رددت :

" لو كنت مكان أحمد رفعت لكتبت نفس الشيء " .

وصمت الجميع .. وأعلن الرئيس بدء التحقيق على الفور .. ووجه السؤال الأول بأن قذف بالمقال إلى أحمد رفعت وسأله :

س : فى العدد المؤرخ فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٨٢ من مجلة الطان الفرنسية نشر هذا المقال باسمك، ونشرت أيضاً صور وبرقيات ارسلت فى مصر إلى كل المحافظين والمديرين تطلب إليهم نفى كل الاشاعات التى تدس كل يوم حول وقوع مذابح فى القاهرة .. هل أرسلت هذا إلى الجريدة المذكورة ؟ .

جـ : نعم .. وكان ذلك بأمر المجلس الوطنى الذى كان يتولى كل السلطات والذى كنت سعادتك عضواً فيه .

س : أننى أذكر تماماً أننى كنت موجوداً حينما بحث هذا الموضوع وتقرر إرسال هذه البرقيات .

جـ : كل البرقيات كانت ترسل عن طريقى، وكان القرار عاماً ويقتضى نفى أى انباء كاذبة تذاع فى أوروبا عن الأحداث فى مصر، وهذه البرقية صدق عليها رئيس المجلس قبل إرسالها أما المقال فكان تعبيراً عن الشعور العام السائد فى مصر .. وأن الحرب أصبحت قضية وطنية عامة وأنها معركة كل المصريين .

وربما لم تكن سعادتك موجوداً ولكننى أذكر أنه فى يوم ١٨ أغسطس أى بعد يومين فقط من هذا التاريخ ذهبنا معاً أنا وسعادتك ورؤف باشا رئيس المحكمة العسكرية الآن وعثمان باشا فوزى وحسين باشا الدرمللى لكى نقدم جميعاً التهنئة لعرابى باشا بمناسبة عيد الأضحى ولكى نشد من أزره وندعو له بالانتصار .

س : أننى أملك الحق فى منعك من مثل هذا الكلام .. والاسترسال فى هذا الموضوع .. ولكننى لن استعمل هذا الحق .. واسمح لك بمواصلة الحديث .

وابتسمت لسعة صدر الباشا واستمر المتهم .

جـ : تذكر سعادتك جيدا أننا تناولنا طعام على مائدة عرابى فى خيمة القيادة وأنك طلبت بعدئذ أن نتفقد خطوط القتال فى كفر الدوار ، وقام معنا طلبة باشا عصمت ، وفى الطريق فاجأتنا قطارات قادمة من الاسكندرية تحمل قوات بريطانية .. وبدأت مدافعنا وخطوطنا تستعد للاشتباك وقرر طلبة باشا أن نعود ، ولكن سعادتك احتججت أنك كجندى قديم ، يجب أن نستمر وأنك أسف أنك لا تشترك فى القتال .

س : أن الجميع يعرفون أننى ذهبت إلى كفر الدوار ، ويعرف ذلك الخديوى ، وكانت مجرد نزهة لحب الاستطلاع . وارجوا أن لا تنحرف فى الإجابة وأن ترد على ما تسأل عنه فقط وأنا أسألك هل الآراء الواردة فى المقال وهذه البرقيات تعبر عن آرائك الشخصية .

جـ : فى هذا الصدد . نعم تعبر عن أرائى ولكنها كانت تعبر أيضا عن أراء جميع الناس الذين كانوا مثلى .

س : بصفتك مدير المطبوعات حينئذ كيف سمحت لجريدة « الطائف » التى كان يصدرها عبد الله النديم أن تنشر سلسلة مقالات تتهجم فيها على سمو الخديوى .. وكيف بررت لنفسك هذا التصرف ؟
جـ : اريد الاطلاع على هذه المقالات .
س : هذه هى المقالات .
جـ : سأجيب فيما يتعلق بالمقالتين . ثم أشرح كيف كنت أؤدى واجبى بصفتى مديرا للمطبوعات .

أولا : أن ما نشرته جريدة الطائف وما كانت تنشره الصحف عامة كان تعبيرا صحيحا عن السخط العام على الخديوى وقد عبرت الطائف عما كان يغلى فى صدور المصريين جميعا حتى الأطفال الصغار فى الشوارع .. ولم تكن هذه الآراء قاصرة على جريدة الطائف أو على جريدة واحدة بالذات بل كانت رأيا عاما فى كل البلاد ..

أما عن منصبى ، فقد أرسل راغب باشا وكان رئيس الوزراء الشرعى والمسئول فى ذلك الحين برقية رسمية من الاسكندرية جاء فيها أن الحرب قد نشبت رسميا بين مصر وبريطانيا وأن الاحكام العرفية اعلنت وأن وزير الحربية أصدر مرسوما باعلان الرقابة وأن لا ينشر شىء فى الصحف إلا بعد مراقبته .

وتوليت المسئولية ولكن كنت أرجع فى كل قراراتى إلى « المجلس العرفى » للتصديق عليها .. وكان هدفنا الأول هو حماية الرأى العام ومنع الاثارة ومصادرة أى مقالات تثير التعصب أو تدعو للشغب ..

وقد منعت نشر مقال لحسن افندى الشمسى فى جريدة المفيد ووجهت اليه انذارا ، وترك بعده العمل فى جريدة المفيد .

وحينما نشرت « مجلة الفسطاط » مقالا شديد العنف والتعصب اقترحت فى حضور بطرس باشا غالى سكرتير المجلس والاعضاء الآخرين مصادرة الجريدة ووافقوا على ذلك .

س : كيف تفسر أنك صادرت المفيد والفسطاط لأنها كانت تثير الناس بينما تقول أن الطائف كانت تعبر عن الرأى العام .. وأنك توافق على ما كانت تنشره ؟
جـ : قلت اننى كنت ارجع دائما إلى المجلس العرفى الذى كان يجتمع بانتظام فى وزارة الحربية والذى كان يمثل السلطة الشرعية الثورية ويضم كل قادة

البلاد وقد أجمع هؤلاء على أن الخديوى خرج على الوطن وعلى الشرع ولم يعد معترفا به ، وأنا مصرى مثلى مثل باقى الشعب ولا أستطيع أن أشذ عن اجماع الشعب وان أعاقب جريدة كانت تعبر عنه .. اننى بهذا كنت اناقض نفسى .

س : اذن كنت موافقا على ما تنشره جريدة الطائف ؟ !

جـ : لا أفهم ماذا تقصد سعادتك بكلمة موافق ولا أفهم معنى الاجابة على هذا السؤال ..

س : طلب إليك الخديوى ذات يوم أن تسلمه بعض محاضر جلسات مجلس الوزراء حينما كنت تعمل سكرتير مجلس الوزراء ولكنك امتنعت عن ذلك فما السبب ؟

جـ : اريد الاطلاع على هذه المحاضر قبل الاجابة .

س : انت تعرف الموضوع وسبق لك الاجابة عن هذا السؤال فى التحقيقات الاولى ، فلا تتهرب من الاجابة ؟

جـ : لا أتهرب .. لقد طلب إلى الخديوى أن أسلم محمد بك خليل سكرتيره محاضر جلسات مجلس الوزراء فى وزارة محمود باشا سامى ، وكان الخديوى يجلس مع المسيو سينادينو وسالا باشا ووعدته باجابة طلبه ، ولكن لما كنت مجرد سكرتير لمجلس الوزراء .. لم أكن استطيع تنفيذ الأمر منفردا ، وكان لابد أن أرجع إلى رئيس الوزراء أو من ينوب عنه ، ولما كانت المحاضر المطلوبة خاصة بالجلسات التى نوقشت فيها شئون وزارة الحربية ، فقد رأيت الرجوع إلى عرابى باشا بصفته وزير الحربية والبحرية ، والمعين من قبل سمو الخديوى .. وبما أن المحاضر تخص وزارته بالذات .. وبعد أن اطلع عرابى باشا على المحاضر طلب إلى أن لا أسلم المحاضر إلى الخديوى واننى سأكون مسئولا شخصيا لو حدث هذا ، وارسلت إلى محمد بك خليل رسميا اعتذار بعدم استطاعتى تسليم هذه المحاضر ، واخبرنى انه تلقى رسالتى .

س : كنت حاضرا فى منزل حسين باشا الدرمللى حينما قرأت برقية واردة من الخارج تقول بان المصريين سوف يكسبون الحرب ضد الانجليز وان الخديوى ندم على موقفه ويريد التوبة والرجوع عن خطئه . وعلقت انت على ذلك قائلا : معاذ الله كيف يجرؤ الخديوى على ان يرى وجهه ثانية للناس فى

مصر . وأى بيت أو جحر يمكن أن يأويه فى هذه البلاد .
جـ : لا اذكر شيئا من هذا .
س : بصفتك كنت مديرا للمطبوعات هل تذكر منشورا وزع فى البلاد بعنوان « الجنة تحت ظلال السيوف » .

جـ : بصفتى مدير المطبوعات لا أذكر شيئا عن هذا المنشور ولكننى أعرف أيضا أن وزراة الحربية هى التى اكتشفت هذا المنشور وأن قرارا بمصادرته على الفور تصدق عليه وتم جمعه من مصلحة البريد ، ويمكن الرجوع إلى يعقوب باشا سامى حول هذا الموضوع .

ولم يكن مدى الاستجابة سهلاً يو مريحاً بالنسبة لاسماعيل باشا ولهذا قرر رفع الجلسة وتأجيل التحقيق لمدة يومين .

ولم تكن المجاملات أو الضيافة سخية كما كانت فى المرة الأولى . ودخل أحمد رفعت ثابت الخطى هذه المرة واحتل مكانه بهدو وكبرياء إلى جوارى .

وبدأ الاستجواب مباشرة .

س : وجدت هذه الوثيقة فى وزارة الحربية وهى مسودة برقية باللغة التركية مرسلة الى بسيم بك ياوران الباب العالى ، هل أنت الذى حررتها ؟

جـ : نعم وبتعليمات من المجلس العرفى وصدق عليها رءوف باشا وأحمد باشا نشأت ، وبطرس باشا غالى واسماعيل باشا أبو جبل وكثيرون آخرون . وسلمت للتغلراف بعض التعديلات واظنها لم ترسل لانقطاع الخطوط .
س : وهذه الوثيقة « سلمة واحدة أخرى » هل حررتها ؟
جـ : هذه نسخة من نفس البرقية مرسلة إلى الصدر الاعظم .
س : وهذه الوثيقة « سلمة واحدة ثالثة » ؟
جـ : نعم .. حررتها وبتعليمات من المجلس العرفى ، ووقع عليها جعفر باشا والمرعشلى باشا ونشأت باشا ، وحسنين باشا وابو جبل باشا . وكانوا هم الذين قرروا ضرورة احاطة الباب العالى أولا باول بتطور الاحداث .. وأظن سعادتك ترى اختامهم على البرقيات .
س : وهذه البرقيات « سلمة عددا منها » ؟
جـ : جوابى هو نفس الجواب .
س : وهذه البرقيات هل تعبر عن رأيك ايضا أم كنت ترسلها للتعليمات وحدها ؟ وهل كنت تحررها باقتناع أم مضطرا أو مرغما على ذلك ؟

ج : سبق أن اجبت ان الرسائل والبرقيات كانت تحرر وترسل بقرارات من المجلس العرفى الذى كان يعبر عن كل مشاعر البلاد ، وكان يضم صفوة قادة وزعماء البلاد ، وبعضهم ترجع مكانته وشهرته إلى عصر محمد على .

وأنا لم أرغم أبدا على شىء وكل ماورد فى هذه الرسائل والبرقيات يتفق مع أفكارى وآرائى الخاصة .

س : فى احدى هذه البرقيات اقتراح بتعطيل قناة السويس .. اظن هذه لم تكن تتفق مع رأيك الخاص ؟

جـ : هذا الاقتراح كان ضرورة من ضرورات الحرب .. وللحرب ضروراتها المؤسفة .

س : فى احدى البرقيات تقول أن حريق الاسكندرية كان بسبب قنابل الاسطول البريطانى وان نسبتها الى المصريين زور وافتراء مارايك فى هذا ؟

جـ : لا أستطيع ان اجزم بالرأى ، وقد سمعت بعد اعتقالنا ان الاسكندرية لم تحرق بسبب نيران المدافع البريطانية ولكنى ايضا لازلت اعتقد ان الجنود المصريين لم يحرقوا الاسكندرية .

س : ومن الذى أحرق الاسكندرية فى رايك ؟

ولم يكن للسؤال صلة ما بالمتهم أو التحقيق ، وقمت على الفور وقلت اننى اعترض على هذا السؤال ورد رئيس اللجنة قائلا : اننى اعتقد انه سؤال مشروع ولكن سوف أتنازل عنه .. وأسأل اذا لم تكن متأكدا فلماذا ارسلت البرقية ؟

جـ : سبق ان أجبت كان ذلك بتكليف من المجلس العرفى وبناء على معلومات وصلت اليه .

س : هل كانت معلومات أم إشاعات ؟

ج : لا أستطيع الاجابة ويمكن ان توجه السوال الى رئيس المجلس .

س : بما أن حريق الاسكندرية اصبح حقيقة معروفة .. انت تقول انه لا الجنود البريطانيين ولا الجنود المصريين احرقوها ، فمن هم فى رأيك الذين اشعلوا الحريق فى المدينة ؟

جـ : كان المجلس ينعقد فى القاهرة وكانت المواصلات مع الاسكندرية مقطوعة ولم يعلن ان الانجليز لم يحرقوا الاسكندرية الا بعد احتلالهم للقاهرة .. وسمعتها ايضا من أحد الأغوات ويعمل عندى .

س : هل أخبرك هذا الاغا عمن تسبب فى الحريق ؟
جـ : لم أكن لأساله .. أظنه يعرف ولم يقل معلومات أزيد .
س : فى احدى البرقيات الى الباب العالى جاء ان المجلس العرفى طلب إلى محافظ السويس ان يخبر الاميرال الانجليزى الذى وصلت مراكبه الى هناك ان الحكومة الشرعية الوحيدة فى مصر هى المجلس العرفى المنعقد فى القاهرة .. هل هذا رأيك ؟

جـ : سبق ان قلت ان سلطات الخديوى كانت قد جمدت بواسطة المجلس العرفى المنعقد فى القاهرة والذى كان يمثل مصر تمثيلا صحيحا ولهذا فان الحكومة الفعلية والشرعية لمصر كانت هذا المجلس الذى يعبر عن ارادة الشعب ، وقد حمل المجلس مسئولية الدفاع عن الوطن وهى اسمى مسئولية .. وكانت البرقيات تصدر منه لهذه الصفة .
س : هل اشتركت بالتوقيع على هذه البرقيات بصفتك عضوا فى المجلس وهل كان هذا يتم بارادتك واختيارك ؟
ج : نعم .. وقعت بكامل ارادتى وحريتى ولم اضطر مرة ولم يرغمنى احد قط على التوقيع .

ولم تكن نتيجة هذه الجلسة افضل من سابقتها ولهذا قرر الباشا رفع الجلسة وتأجيلها إلى الغد مباشرة .

وفى صباح الغد كان جو الجلسة مختلفا تماما ، كانت التحيات جافة مقتضبة ولم تقدم سيجارة واحدة أو فنجان من القهوة .

وبدات الاسئلة على الفور واخرج الباشا ملفا وأخذ يقرأ منه أقوال أحمد رفعت فى التحقيقات الاولى ... ثم توجه إليه قائلا :

س : كيف تفسر التناقض بين هذه الأعترافات وأقوالك الآن ؟
جـ : لقد استجوبت فى التحقيقات الأولى بغير حضور محام . وبعد أن تعرضت لأشد أنواع العذاب وسوء المعاملة .. وكان خدم الخديوى وعلى رأسهم الأغا ابراهيم نوتوتجى ، الذى يقدم له الدخان .. يطوفون بنا كل ليلة بعد منتصف الليل ليتولوا التنكيل بنا وارهابنا بأن أعدامنا قادم لا محالة .. وسوف يمثل بنا وبأسرنا .
س : أسكت ، ولا تواصل الكلام .. هذا ليس اجابة على السؤال لم يكن هناك اى تعذيب ، ولم يشتك أحد سوى أنت وعرابى وعبد الغفار فقط .



وفجأة رأيت السير تشارلز ويلسون الذى كان مكلفا رسميا بضمان كل اجراءات المحاكمة والذى كان يشهذ كل جلسات التحقيق يهب ويقطع الجلسة قائلا : « هذا ليس صحيحا وأننى أرى من واجبى أن أقول أننى حينما قمت بزيارة المتعلقين وجدتهم جميعا يرددون نفس هذه الشكوى ».

وأسقط فى يد « الباشا » وتلفت حوله مضطربا ثم قال ترفع الجلسة ويستدعى النائب العام « بوريللى بك » لسؤاله حول هذا الموضوع.

وبعد ساعة واحدة حضر بوريللى بك ووقفت لأقول أن المنهم يريد أن يجيب على السؤال مرة أخرى . ووقف أحمد رفعت وقال : **ليس هناك ما أضيفه ، وأظن أن الكولونيل ويلسون قد عرف شيئا عن معاملتنا.**

ونحن منذ نقلنا الى سجن الدائرة السنية واودعنا فى زنازين أنفرادية لم تمض ليلة واحدة إلا وتفتح الزنازين فى ضجة كبرى ويتدفق عدد كبير من الخدم والقواصين والجنود الأتراك والشراكسة وضباط الياوران وعلى رأسهم الضابط أحمد كامل .. ويبدأون فى المهمة . وذات يوم هجم على هذا وأوقع بى على الأرض وقرر أن يقتلنى خنقا وبالطبع أحسست بالفزع والرعب ولم يخرج إلا بعد أن أغلق كل منافذ الهواء فى الغرفة .. من نوافذ وأبواب .. ونقل الفراش من الغرفة وظللت يومين على هذا الحال ثم استدعيت للتحقيق أمامكم ..

ويحق لى أن أسألكم بدورى .. هل الأستجواب الذى يجرى تحت هذه الظروف يمكن أن تكون له أى قيمة قانونية ؟

ولم ينبس صاحب السعادة بكلمة واخدة وقرر رفع الجلسة .. ولم تعقد مرة أخرى للتحقيق مع أحمد رفعت . ولم يحقق معه قط ، وفى التسوية التى تمت حول القادة جميعا .. كان نصيبه النفى خمس سنوات من مصر.

لم تكن الحكومة المصرية ولا الحكومة البريطانية على أستعداد لمواجهة محاكمة عادلة علنية للثوار العرابيين .. ولهذا أصبحت مهمتنا هى أنقاذ رقابهم أولا ، وأنقاذهم من أى عقوبة فى مصر تعنى فى النهاية القضاء عليهم وبعد مساومات

ومجادلات طويلة وعنيدة تم الأتفاق بيننا وبين كل الأطراف على أن تتم محاكمة مقتضبة ليعترف فيها المتهمون بتهمة « العصيان » فقط ، ويحكم عليهم على الفور بالأعدام ، ويخفف الحكم على الفور الى النفى خارج مصر .. وقد كان.

وتقرر نفى السبعة باشوات الى سيلان .. ووافقوا.

ولم يقرر المتهم الثامن أحمد رفعت اين يريد أن ينفى.

وأخيرا قرر ان يذهب معى الى « تونس ».

وخلال الرحلة سلمنى ملفا كان قد أعده ليسلمه لى قبل مغادرتى مصر ويشرح مرة أخرى قضية حياته وهى الوطنية المصري.

بعد أيام قليلة سوف تغادر مصر وتعود إلى تونس وسوف أذهب إلى المنفى وقد لا نلتقى بعدئذ أبدا .. ولا شك أن هناك كثيرين سوف يسألونك كل الاسئلة الممكنة عن مصر والى اين تسير وكيف يتقرر مصيرها الذى يبدوا الآن أبعد مايكون عن الاستقرار ، وقد قضى على آمالنا وأحلامنا الوطنية وتبدو الآن وقد تحطمت تماما .. ولكن هذا هو ما يبدو على السطح ومؤقتا.

لا تفكر قط أنها ماتت أو دفنت ، أن أعداءنا يتيهون زهوا بالنصر .. وتحمل اصواتهم الصاخبة العالية كل خيلاء النجاح ولكن لن يهنأوا طويلا .. أنهم يقولون أنه لا يوجد شىء يسمى القضية الوطنية المصرية .. ولم توجد قط . وحتى لو اعترفوا أن هناك حركة وطنية فى بلاد أخرى من الشرق إلا أنهم يرفضون الأعتراف بها فى مصر وينكرون أن عرابى كان الممثل الشرعى والحقيقى لها بل ويقولون أن ليس للمصريين أى هدف أو مطالب وأن شعبها أعجز من أن يستطيع حكم نفسه وأنهم لابد وأن يوضعوا دائما تحت الوصاية والحماية بل وبعضهم يذهبون أبعد ويقولون أن عرابى قد ساقهم الى الوطنية بالخوف والأرهاب.

وقبل أن نفترق دعنى أترك لك هذه الأوراق .. وتحوى بعض الحقائق والملاحظات ربما تكون مساعدة لك فى الاجابة على الاسئلة الكثيرة التى سوف توجه لك .. وهى شهادة أحد الذين عاشوا الاحداث وشارك فيها .. ولاتنس أن تقول لهم أن الشاهد تركى وأن كل مصالحه وولائه كان يجب أن يكون للطرف الآخر ، وأنه قد خسر مستقبلا زاهيا ، بانحيازه الى أهل ملته ودينه من المصريين .

■ ■ ■



٢ ـ عودة الباشوات السبعة ..

« أنا لست هندية كما قد لا تعلم »

وابتسمت ابتسامة وديعة عذبة وقالت :

ـ أنا من جزيرة صغيرة جميلة تبعد اربعين ميلا فقط عن الجنة .

ـ وما الذى يبقيك هنا .. بعيداً عن الجنة ؟

ـ قصة طويلة .. لا تهمك الليلة .

ـ كيف ؟ أنا كاتب قصص وقد جئت من مصر إلى الهند أبحث عن قصص ؟

وحملقت فى وجهى طويلاً وقالت من مصر ؟

نعم بلد الاهرام والنيل ورأس نفرتيتى وكنوز توت عنخ آمون .

ـ هذا لا يعنينى كثيراً ، أن مجازن العجائب تزخربها الهند هنا .. أننى أعني دائماً بالحقيقة والواقع .

ـ اذن أنا من مصر .. من بلد يخوض معركة الحرية والحضارة ربما منذ ستة آلاف عام وبلا توقف وبلا كلل وبلا استسلام للهزيمة أو الانتصار على السواء .

ـ هذا أفضل قليلا .. وهذا استطيع أن أفهمه لقد لعبت مصر هذه فى حياتى دوراً كبيراً .. هل تصدق ؟

ـ حياتك أنت ؟

ـ حياتى أنا .. ولقد كانت هناك اسطورة مصرية من الواقع الحى تعيش فى سيلان ولا تزال تعيش وتروى هناك .. وقد استيقظت ذات يوم وغيرت مجرى حياتى كله . وفى كاندى كنت أذهب دائماً إلى « مودليار عبد الرحمن » عمدة البلدة السابق وأكبر أهلها سناً وصديق جدى الحميم وأظل طويلاً لديه ليروى لى قصصاً عجيبة عن تجاربة خلال مائة عام طويلة عاشها فى الجزيرة ولم يغادرها أبداً .

وذات يوم روى لى مودليار عبد الرحمن قصة الباشوات السبعة أو عرابى باشا والباشوات السبعة كما سماهم . وهم سبعة باشوات قاموا بثورة فى مصر ضد الانجليز بعد ما استولوا على بلادهم . وجاء هؤلاء الباشوات مهزومين منفيين إلى سيلان ولكن بدلا من أن يستسلموا للهزيمة اتخذوها وطناً وبدأوا حياة جديدة وقلبوا كل حياة الجزيرة رأساً على عقب وتركوا فى كل مكان أثراً باقياً !!

وذات يوم بعد عام طويل تلقيت خطاباً من سيلان وكان من شيلا « **أننى أعيش عمرى الثانى هنا ولابد أن تحضر لترانى ولتقيم معى اسبوعين على بعد اربعين ميلاً من الجنة . أن المعركة مستمرة حتى آخر لحظة من حياتنا ، وجميل أن يحقق الإنسان انتصاره الأخير فى الأرض التى خرج منها** » .

« **أننى الآن أنظم نقابات عاملات الشاى فى سيلان ، أنهن أشقى صور الانسانية وعما قليل سيضع هؤلاء اسم سيلان على خريطة العالم السياسية** » .

« **أننى أريد أن تحضر . أننى فى حاجة إلى أوقات جميلة كتلك التى قضيناها فى بومباى وقد قابلت مودليار عبد الرحمن الذى لا يزال حياً .. ألا تريد أن تزور قبور مواطنيك فى سيلان وأن تكمل قصة البحث عن نفسك أو الهرب منها** » .

وسافرت إلى سيلان .. إلى كاندى حيث كانت تعمل « شيلا » وحيث عاش يوما الباشوات السبعة وحيث يحفظ مودليار عبد الرحمن ويروى قصتهم وتراثهم .

وذات يوم سار موكب فى شوارع كاندى يتقدمه هذا الكهل الذى لم يزل يحتفظ بحيويته فى القرن الثانى من عمره وقد حمله على محفة فرقة من عاملات الشاى وإلى جواره سارت شيلا معى لنكشف آثار العرابيين فى كاندى .

وانطلق مودليار عبد الرحمن يروى مرة بالعربية التى يتكلمها ومرة بالانجليزية التى يجيدها أكثر .

ـ لقد كنت أول مرة رأيت فيها عرابى باشا يوم خرج للناس من عزلته ليصلى الجمعة وقد جاء أعيان كاندى من المسلمين ليشهدوا ويرحبوا « بالباشا المصرى » الذى قدم .

ولم يكد يدخل المسجد حتى شعر الجميع بهيبة كبرى واحترام .. كان مجرد منظره بقامته وكبريائه وبساطته أيضاً كفيلاً بأن يحول إليه الابصار .

وبعد الصلاة تكلم عرابى باشا قليلاً ولم يفهم كلامه سوى قليلين ولكنهم مع ذلك انصتوا جميعاً لأنه كان يتكلم باخلاص وحرارة .

ولم تمض أيام حتى كان بيته هنا على الربوة العالية هو مقصد الجميع فى كاندى .

ولقد كان المسلمون فى ذلك الحين مغلقين لازالت على عقولهم وأرواحهم غشاوة وكانوا لا يريدون الخروج منها لأن الخروج كان كفراً ومروقاً على الدين . ولقد قام مصلح من هنا اسمه « سيدى ليبيه » حاول أن يقنعهم أن تعلم العلوم واللغات الحديثة وتعلم العادات الحديثة هو من جوهر الإسلام ولكنهم جميعاً صدوه واسكتوه وظل خافت الصوت حتى جاء عرابى باشا ومنذ جاء لازمه « سيدى ليبيه » ووجدت آراء « سيدى ليبيه » الارادة والشخصية التى استطاعت أن تضعها موضع التنفيذ .

ووضع الاثنان يدهما فى يد بعضهما البعض وولدت أكبر نهضة فى تاريخ مسلمى سيلان . بل هى ثورة نقلتهم من القرون الوسطى إلى العصر الحديث مباشرة .

وحينما تذهب إلى كولومبو ستزور هناك « الكلية الزاهرة » وسترى البناء الشاهق الواسع وسترى ابناء المسلمين يتلقون دروس الكمياء والطبيعة والهندسة جنباً إلى جنب مع علوم دينهم وستقابل عزيز عميد الكلية ثمرة من ثمرات عرابى وسيدى ليبيه هناك تحت شجرة جوز الهند ولابد ان تدعهم يقطفون لك احدى ثمارها وتشرب ماءها لأن الذى زرع هذه الشجرة هو عرابى باشا بيده . وفى كل عام يقام الاحتفال بتخريج الطلبة حولها .

وقد تسلم الخريجون الأول شهاداتهم من يد عرابى الذى كان يرأس حفلة التخرج كل عام طوال حياته فى الجزيرة ويوزع بيده الشهادات .

ولقد احتفلوا باليوبيل الذهبى لهذه الكلية منذ اعوام ووزعوا الكتاب الذى ألفه « عزيز » عن عرابى باشا راعى الكلية وبعثوا إلى بنسخة منه ولقد فرحت بها كما لم أفرح بشىء قط وضممتها إلى صدرى وقبلتها . أن الوفاء هو أفضل صفات الإنسان وأعظم نعم هذه الحياة .

وابتسم موديار عبد الرحمن واسهم مبتسماً وقال :

- ولابد أن تزور كلية البنات وحينما ترى بناتنا المسلمات أذكر عرابى .. افتتحت أول مدرسة لتعليم البنات فى الجزيرة بجهاده هو والباشوات السبعة ولقد رأى الناس سيدات مسلمات يصحبن ازواجهن للمنفى ويعشن معهم فى الشدة والبلاء ورأين نماذج عالية للثقافة والوطنية والدين . وارتفعت الصيحة بأن لابد من تعليم البنات ليكن مثل المصريات .

وأخذ عرابى يبشر بأن تعليم البنات واجب وأن الدين قد أوصى به . وقام عرابى وألف قصة طويلة عن المرأة والعلم والحب والزواج واهداها لفتيات الجزيرة . وكان أول كتاب نفذ إلى نفوس النساء وفتح عيونهن على العالم الجديد المغلق دونهن .

وكان موडليار عبد الرحمن يتحدث عن عرابى وكأنه نفض عن ظهره عبء القرن الذى عاشه ورجع صبياً كما كان يوم رأى عرابى وعاش قريباً منه مبهوراً به . وكانت عيناه تضيئان ووجهه يشرق وملامحه تبتسم لذكرى بطل صباه .. ومضى يقول :

- ولقد أصبح الباشوات المصريون نماذج الحياة لمسلمى الجزيرة كلهم . وأصبحت حياة الأسر الكبيرة لدينا صورة من حياة أسر الباشوات ، ولبس مسلموا الجزيرة الطربوش تشبها بهم ولبست السيدات الطرحة بدلا من البردة الكثيفة .. وتعلم الناس شرب القهوة وتقديمها ونسوا أننا أعظم زارعى وشاربى الشاى فى العالم .

كان عرابى باشا رحمه الله عليه زعيماً حقاً . وأننى أذكر هذا ولا أنساه .. دعى عرابى باشا يوما لحفلة ختان طفل صغير لرجل فقير وكان الباشا يلبى دعوة من يدعوه ويذهب بنفس الأقبال سواء كانت الحفلة لعامل صغير من عمال المزارع أو كانت للسير توماس ليبتون ملك الجزيرة غير المتوج يومئذ وصديق عرابى باشا الحميم . وقد رأى عرابى باشا الحلاق يقوم بالختان بطريقة آلمت الطفل الصغير فلم يملك الا أن يقوم ويعلم الحلاق درساً فى الختان بل دروساً فى الحلاقة واستعمال أدواتها ونظافة هذه الادوات !

ووصلنا إلى ربوة عالية واشار مودليار عبد الرحمن إلى بيت بين الاشجار والازهار على هذه الربوة وقال : « **هذا بيت عرابى باشا** » .

وأصر مودليار عبد الرحمن على أن ينزل من على المحفة وعلى أن يصعد على قدميه إلى الربوة وصاح وقد أشرقت أساريره « كنت أصعد هذه الربوة مرات كل يوم وأريد أن أصعدها الآن ولابد أن أصعد » .

وأحس بنا سكان المنزل فنزلوا جميعاً لاستقبالنا ولتحية حكيم البلدة وتقدم الينا شاب مهذب وقال انه صاحب البيت وانه طبيب .. والتفت إلى مودليار عبد الرحمن وقال :

ولقد احتفظنا كما احتفظ من سكنوا قبلنا بهذه الرخامة التى كتب عليها « **عرابى هاوس** » ولم نشأ أن نكتب اسمنا قط على المنزل بل تركناه وسيظل دائماً اسمه .

ودخلنا إلى المنزل لنشرب فنجاناً من الشاى وأرانى الطبيب كتابين فى مكتبته وصفهما بأنهما من أثمن ما يملك كان أحدهما كتاب برود لى المحامى الذى دافع عن عرابى والثانى كتاب بلنت صديق العرابيين ونصيرهم .. وقال لى الطبيب :

لم أكن أعرف شيئاً عن عرابى الا من سلفى فى سكنى هذا البيت فقد قال لى ضاحكاً وهو يغادره أن هذا بيت له تاريخ وهناك أرواح مقدسة تسكنه ولابد أن تعرف هذا .. وأقرضنى هذين الكتابين وحينما قرأتهما أدركت شيئاً غريباً كان يشغل بالى دائماً كلما مررت ببور سعيد فى طريقى إلى اوربا وهو كيف بنى هذا الشعب ـ الذى يبدو ممزقاً ـ الاهرام وكيف أقام أجمل معابد ومساجد العالم . وفهمت مصر من عرابى واستطيع أن أقول لك أن عرابى هو أحسن نموذج شرقى أخرجه القرن التاسع عشر للزعيم الثورى .

واشار الطبيب إلى صورة كبيرة بالزيت وقال : هذه الصورة رسمتها زوجتى لعرابى وها نحن أولاء نضعها هنا فى مدخل بيتنا .

ولم يتركنى الطبيب الا بعد أن أهدانى الصورة « على الأقل لكى تستطيع زوجتى أن تستمتع برسم صورة أخرى » .

وتحرك الموكب ونفذنا إلى قلب المدينة ووقفنا عند باب كبير كتب عليه مستشفى وصيدلية الشعب . وقال مودليار عبد الرحمن :

كان يسكن هذا المنزل طلبة عصمت وكان يقول دائماً : « أن وطنى حيث أكون نافعاً للناس » وعاش هنا كواحد منا تماماً وتعلم هو وأبناؤه لغة البلاد وأجادها بل ورجع ابنه الأكبر إلى مصر .. وعاش حينا يذكر مراع طفولته وصباه وكتب كتاباً عن سيلان مازال أحسن ما كتب عن الجزيرة . رحمه الله على طلبه عصمت لقد كان يقول « أن الرجل هو الذى يترك أثراً حيثما كان » .

وها هو قد ترك أثراً .. ان بيته دار علاج وتخفيف الآلام تماماً كما كان يختار لو خير .. عليه رحمة الله .

وتحرك الركب .. وسرنا حتى قاع واد أخضر جميل فى أسفل قمة عالية ارتفع عليها بيت أحاطت به أشجار الأكاسيا ونخيل جوز الهند وحديقة واسعة من الورد واشار موديليار عبد الرحمن إلى بيت وقال : « **ومن يسكن هذا البيت غير البارودى باشا** ؟ **ومن يختار سواه** ؟ **لقد كان البارودى باشا من طينة فرسان القصص .. كانت الحياة بالنسبة له حلماً عظيماً . ان لم يوجد فلابد أن يصنعه بالسيف أو بالقلم** » .

« لقد كنت فى صباى شاعراً فارساً ولهذا كنت احب وأعجب بالبارودى باشا .. وكان كثيرون هنا لا يفهمونه خاصة حينما يقطع اسابيع طويلة هو وشيخ يكتب وحيه اسمه الشيخ عبد الصمد .. ولقد كان البارودى باشا يعتزل الناس احياناً حتى زملاءه ويهيم فى أرجاء الجزيرة الساحرة وغاباتها . ولكن شيئاً آخر كان يسيطر على البارودى . كان يذكر مصر فى كل حين وفى كل لحظة وكانت مصر أمامه فى كل خطوة وفى كل لفتة وكانت نوبات الحنين إلى الوطن تشتد عليه كثيراً وكنت اذهب إليه فأجد فى عينيه آثار بكاء أو حزن أليم عميق . وحينما أسأله يقول لى : « **الحنين إلى الوطن** » ثم يقول .. « **اننى لا أخش الحياة ولا الموت ولكننى اخاف أن اموت هنا وألا أدفن فى حفرة من أرض مصر** » .

وتحرك الركب .

ووصلنا إلى أقصى المدينة ووقفت على باب بدا كأنه حديثة غناء حوت كل الاشجار الجميلة وقال موديليار عبد الرحمن : « **لننه زيارتنا هنا .. كل شىء سوف ينتهى إلى هنا** » .

هذه هى المقابر وتقاليدنا فى سيلان ان ندفن موتانا فى أجمل بقاع بلادنا وأن نحيطهم دائماً بالأشجار والورود وأن نسقى قبورهم بعطر النرجس وأجمل النرجس عندنا هو ما ينمو بين المقابر سواء مقابر المسلمين أو البوذيين » .

ودخلنا إلى المقبرة الشاسعة الفسيحة ونادى موديليار عبد الرحمن حارساً وكان عجوزاً كهلاً يضارعه فى صراع العمر والزمن ولا ادرى ما الذى قال فقد أمسك بيدى وأخذ ينظر إلى طويلاً ويردد : « **عليه رحمة الله** » ويتمتم بلغة الجزيرة وقال موديليار : « لقد قلت انك من بلاد فهمي باشا وجئت لتزور قبره وهو **يقول** أن أحداً لم يزر قبره منذ خمسين عاماً وقد ذبلت شجرة النرجس ولم يستطع أن يزرع غيرها » .

وأخذ الرجل يشد على يدى ويقول : « **ألا تفكرون فيه .. ألا تفكرون فى زيارته** » ورفع يديه وطلب أن نقرأ جميعاً الفاتحة على روحه .

وقرأنا الفاتحة . وأخذت أتأمل قبر « محمود فهمى باشا » فى مقبرة كاندى على بعد خمسة آلاف ميل من وطنه .. قبراً مغموراً ليس حوله شجرة نرجس ولا يسقيه أحد عطراً ولا يزوره أحد منذ خمسين عاماً .

وتصورت نهاية حياة محمود فهمى باشا الذى وضع استراتيجية معركة التل الكبير .. وهو يشرف على تنفيذها وهو ينهزم ضحية للخيانة لا للعجز وحسرته وهو يشهد الهزيمة ثم وهو يقع فى الأسر وينفى إلى هذا البلد السحيق حيث تدفن آخر بقاياه .

وقال مودليار عبد الرحمن : هذا لم يكن رجلاً عادياً .. لقد كان اعصاراً لا يهدأ ولا يكل . كان رأسه دائماً مزدحماً بالخطط والمشاريع وكان لكل معضلة فى رأسه حل .. وكانت الهندسة فى رأيه عمارة الكون فى مصر أو فى سيلان .

وحينما أفتى المهندسون الانجليز بأن الترام لا يستطيع أن يسير فى سيلان وان الكهرباء لا تتفق وطبيعة الأرض قام محمود فهمى وقتئذ وفند آراءهم وأصر ومشى الترام فى سيلان .

وحينما طغت أمواج المحيط على شواطىء سيلان وقيل أن شيئاً لا يستطيع أن يدفع أمواج المحيط أفتى محمود فهمى بأنه يستطيع أن يبنى الجسور وان يدفع غائلة المحيط وحينما قيل أن سيلان لا تستطيع أن تبنى خزانات أو سدود أفتى محمود فهمى بان بناء الخزانات والسدود ممكن .

وأصبح محمود فهمى معروفاً فى سيلان كلها باسم « الانجنير باشا » رجل المعجزات . وحتى اليوم لا يعرفه أحد الا باسم « الانجنير باشا » عليه رحمة الله .. عليه رحمة الله .

« ومات فهمي باشا هنا فى الأرض التى أحبها وعمر فيها ما استطاع عمارته وأراد مسلمو الجزيرة أن يقيموا له قبراً كبيراً ولكنه كان قد أوصى بأن يدفن كما تدفن عامة الناس .

وقال مودليار :

ـ أنت طبعاً لم تر قبر عبد العال حلمى فى كولومبو .. هذه قصة أخرى .. أصر الناس على أن يقيموا له قبراً عالياً شامخاً فى خير بقعة من مقبرة كولومبو وأقاموه

ولكنهم احترموا وصية محمود فهمى وأن كان ابنى قال لى منذ بضعة شهور أن مقبرة عبد العال حلمى فى كولومبو قد تهدمت وأن الطيور تعيش فى قبتها ولا أحد يروى النرجس المزروع حولها .. أن الزمن لا يحفل أحياناً بهيبة الذكريات .

وانتهينا إلى بيت موديليار عبد الرحمن لتناول الغداء وأكمل لى القصة . « أن أحدا لا ينسى يوم غادر الباشوات الجزيرة عائدين إلى بلادهم بعد النفى الطويل .

لقد خرجت سيلان كلها أطفالاً ونساء ورجالاً . بوذيين وهندوكيين ومسلمين .. وظل ميناء كولومبو منذ الصباح يموج بالآلاف يغنون وينشدون ويبكون .

وحينما أبحرت السفينة أختلطت أصوات الموسيقى واناشيد الأطفال بنحيب الرجال والنساء وقضت سيلان كلها يوماً حزيناً أليماً .

كانت حياتهم هنا اسطورة وقد خلقوا وراءهم قبرين لاثنين من زملائهم وذكرى حية دائمة فى قلب وروح سيلان .

وفى الليل جلسنا نتناقش أنا ومضيفتى بعد العشاء وقالت :

ـ ماذا نويت أن تفعل من أجل أجدادك ؟

ـ سأكتب عنهم .. ماذا أستطيع أن أفعل غير هذا ؟

ـ وأنت ماذا نويت أن تفعلى .

ـ سأتمم رسالتهم هنا .. أن الحلقة طويلة .. عرابى .. غاندى .. باندرانيكا ..

ـ مــن ؟

ـ باندرانيكا .. أعرف هذا الاسم جيداً . هذا هو رجل الشارع ورجل المستقبل فى سيلان ، سالمون باندرانيكا انه رجل نحيف ضئيل ألهب حتى تماثيل بوذا فى سيلان وهو الذى سيضعنا على خريطة العالم الثورية قريباً .

ان الاشتراكية هى النتيجة المنطقية .. والجنة هنا فى سيلان لابد وأن تكون اشتراكية وسنصنعها مع باندرانايكا .

نحن نصنع الحياة وأنت تكتب عنها .

لقد كنت اريد أن أكتب مثلك ولكن بعد أن فكرت رأيت أن احاول أن أصنع الحياة مباشرة .. وسنلتقى دائماً .. أليس كذلك ؟ .

ـ طبعاً سنلتقى .. انت لا تعلمين أن الثورة التى أشعلها الباشوات السبعة لا تزال مشتعلة عندنا .

وسترين اسم بلدى دائماً على خريطة العالم الثورية ولن يزاح من عليها .. وسيموت كثيرون .. ومن يدرى قد يدفن بعضهم مرة أخرى فى سيلان .. من يدرى ؟ !

٢ - الأميرة والثـورة ..

ليس فى الشرق بلد يبدو فيه نفوذ المرأة واضحاً جلياً كما يبدو فى مصر ولقد وجد عرابى فى الحريم وبين سيدات مصر تأييدا للقضية الوطنية ومبادىء عرابى منذ اللحظة الأولى . وقد ظللن ثابتات على حماسهن وتأييدهن حتى اللحظة الأخيرة أى حينما انطفأ الخيط الأخير من الأمل .

وقد جرف الحماس حتى أميرات الأسرات المالكة الخديوية ـ فيما عدا أم توفيق وزوجته ـ وكنّ لا يفين تأييدهن القوى الثورية ولعرابى .

وحدث فى اليوم التالى لضرب الاسكندرية أن هبت كل فتيات مصر وبنات الأسر الكبيرة لجمع التبرعات وبذلها وجمعن تبرعات كبيرة وألفن فرقة لتحضير الضمادات ولوازم الجرحى لارسالها للاطباء الذين يعملون فى الخطوط الامامية فى معركة كفر الدوار ..

لقد كان تأييد النساء المحجبات فى الحريم هو الضربة القاضية على حجج الذين كانوا ينكرون على حركة عرابى أنها ثورة شعبية شاملة ، وحدث بعد ما انتهت محاكمة عرابى ببضعة أيام وكنت قد بقيت فى القاهرة فى فندق شبرد أن جاءنى ذات يوم رسول خاص فى زيارة غامضة وقال لى أن معه سيدة كبيرة المقام وسلمنى الرسالة ومعها مجموعة من الهدايا الثمينة الفاخرة لى وللمستر نابيير مساعدى فى الدفاع . وقد كان نص الخطاب :

إلى المستر برود لى المحامى ..

« بعد تحياتى واحترامى وشكرى لشخصك الشريف فاننى انتهز هذه الفرصة لأعبر لك عن امتنان نساء وشعب مصر كله ونحن المصريين جميعاً نشعر بالفرح وعرفان الجميل لما أديته من خدمات ولأنك دافعت عن قضية العدالة والانسانية ونحن المصريات والمصريين سنصلى وندعو الله أن يحقق لك السعادة والتوفيق كما ندعو الله أن يلطف بهذا البلد .

وانك بدفاعك عن أبناء هذا البلد الذين ثاروا من أجله والذين لم يريدوا

له سوى الخير وقد جعلتنا نعز إنجلترا ونرى فيها أحرارا يساعدوننا فى محنتنا واننا لنشكر المستر بلنت شكراً عميقاً على جميله نحونا وأن أنباء ما فعله لتثلج صدر المصريات والمصريين جميعاً ولهذا فمهما فعلنا فلن نستطيع أن نعبر لك عن شكرنا .

١٥ ديسمبر ١٨٨٢ .

وكان الأمضاء« أنجة » وهذا كل ما عرفته عنها .

وبعد بضعة أيام تلقيت زيارة مماثلة ولكنها هذه المرة كانت من فتاة جميلة متحمسة جاءت وقالت لى أنها تريد أن تشرح لى حقيقة مشاعر نساء مصر نحو الأحداث الأخيرة وكانت تتدفق بحماس وهى تروى لى :

لقد كانت كل فتاة وسيدة فى مصر تعطف سرا ومن أول لحظة على عرابى .. لأننا ادركنا أنه لا يريد سوى خير مصر ولقد اعتقدنا حينا أن توفيق نفسه يؤيد عرابى ولهذا أحببناه ولكن حينما وجدنا أنه يكيد له ويخون مصر كرهناه وكرهناه بشدة ومن يومها حاول توفيق ان يستميل عطف سيدات وبنات الأسر عن طريق أمه وزوجته بلا جدوى .. بل ولقد كرهته الاميرات وذهبت احدى الاميرات إليه وقالت له فى مواجهته رأيها بصراحة فيه وفى تصرفاته السياسية .

وبعدها بقليل رحل توفيق إلى الاسكندرية وسمعنا بعدئذ انه أنحاز نهائيا للانجليز وبدأت الاجتماعات النسائية فى الحريم وصممت كل المجتمعات على عدم الاعتراف الا بعرابى كزعيم شعبى يدافع عن البلاد ، ولقد كنا جميعاً نرى فى عرابى زعيماً شعبياً سيتم على يديه الخلاص وكان حماسنا له لا يعرف حدودا كنا جميعاً نكتب له خطابات اعجاب ونبعث له بتلغرافات تهنئة وتشجيع باسماء مستعارة ولقد كتبت له احدانا مرة خطاباً متحمساً « إلى منقذ مصر » تعرض عليه الزواج لتقف إلى جانبه وتؤيده ورد عليها عرابى شاكراً وطلب منها أن تؤدى واجبها الوطنى فى مكانها .

ولقد ساهمت كل سيدة وفتاة فى نفقات الحرب حسب مواردها وكنا نجمع التبرعات بانتظام ، نشتغل بجد طوال اليوم فى اعداد ما يلزم الجنود من أدوية وأغطية وضمادات ، وظللنا نعمل بحماس ونلهب الشعور مع عرابى وضد توفيق حتى كان ذات يوم اذ جاء عرابى إلى القاهرة وسرت اشاعة قوية بأنه قد جاء معه برأس الجنرال ويلسلى والاميرال سيمور .. وطغى علينا الفرح ولكن ما لبثنا أن

عرفنا الحقيقة المرة وأن العكس هو ما حدث وأن عرابى قد منى بهزيمة ساحقة واستولى علينا ذهول وحزن أليم واستغرقنا فى بكاء مستمر حتى بلغت حالتنا مبلغ اليأس الأليم .

وحينما عاد توفيق منتصراً مزهواً إلى القاهرة توقعنا أن يصب العذاب والغضب على نصيرات عرابى وبالفعل ما أن وصل حتى ارسل إلى الفتاة التى كانت قد ارسلت خطابا إلى عرابى واعلن انه سيذيقها العذاب المر لولا أن تدخلت أمها وأعلنت بجرأة أنها هى التى كتبت الخطاب ووقعت عليه بخط ابنتها وحينما خرجت الأم وابنتها من عند توفيق التقيا بالأغا الذى أبلغ الخديوى توفيق بقصة الخطاب ووشى بهما اليه فأمسكت الأم بكرسى وضربته على رأسه وانهالت عليه ضربا وأخذت تجرى وراءه فى أرجاء السراى والدم ينزف منه تريد أن تفتك به نهائياً ..

وأمر توفيق بجمعنا كلنا بعد ما دله جواسيسه علينا وكان أكثرنا يرتجف من الخوف وذهبنا .. وكان توفيق يجلس والى جواره أمه وما أن أكتمل عددنا حتى انهالت علينا أمه بأقذر وأقذع السباب وأعلنت لنا فى تشفى أن بطلنا عرابى سيسلمه الانجليز إلى الخديوى لكى يعدم ببطء على الخازوق . وقرأت علينا أمه قائمة باسماء زعيمات حركتنا وقالت أنه قد تقرر اعدامهن وسرى فينا الرعب وظللنا خائفات بضعة أيام حتى تحققنا أنه لا توفيق ولا أمه يستطيعان أن يحركا أصبعاً بغير موافقة الانجليز اسيادهما .

وحينما عرف أن حياة عرابى لن تمس وأنه سينفى فقط لبست أم توفيق الحداد وسرى الوجوم والحزن فى السراى وأخذنا نحن بدورنا نتشفى فيهم .

واختتمت الفتاة الجميلة المتحمسة حديثهامعى قائلة :

« **أحب أن أقرر لك كى تعلن للعالم كله أنه مادام توفيق يحكم مصر فلن يكون هناك سلام لا لكم ولا لنا ولا لمصر كلها** » .

ولقد كان يمكن لتوفيق أن يتزعم الوطنيين وأن يكتسب ثقة الشعب المصرى ولكنه طرح هذه الفرصة وأخذ يناور ويداور حتى أصبح عبد بريطانيا .. ولقد أصبح توفيق أكره رجل على الشعب وليس له مستقبل وسيذكر اسمه فى التاريخ دائماً باسم الرجل الذى جاء بالانجليز إلى مصر .

ولقد قابلت توفيق بعدئذ وفى حديث طويل له قال لى : « أنه كان يستطيع أن يعيش فى سعادة وفى سلام لولا شيئان هما أشد ما فى مصر خطراً عليه وهما أقلام الصحفيين وألسنة النساء » .!